تيسير المنان

في قصص القرآن

جمع وترتيب

د/ أحمد فريد

مكتبة التوعية الإسلامية

للتحقيق والنشر والبحث العلمي

ت : ٥٨٦٨٦٠٥/ ٣٧٦٥٣٤٤

الطبعة الأولى
١٤١١هـ = ١٩٩٠م
الطبعة الثانية المنقحة بمكتبتنا
١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٧/١٥٨٩

الناشر
مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي .

المراسلات باسم : عماد صابر المرسي ص . ب : ١٧٤ بريد الأهرام ، الجيزة.
هاتف : ٥٨٦٨٦٠٥ هاتف مصور : ٣٧٦٥٣٤٤ محمول : ٠١٠٥٢٥٥١٤٠



مقدمة الناشر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله تعالى فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا مزيدا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

أما بعد . . .

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، وماقل وكفى خير مما كثر وألهى ، وإن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين .

وبعد أيضا ..... فإلى قرائنا الأحبة نقدم هذه الدرة النفيسة : « **تيسير المنان في قصص القرآن** » ، في طبعته الجديدة ، بعدما لاقى بفضل الله قبولا وانتشاراً بين أبناء عصرنا .

والقصص كما يقول ابن الجوزي (٥٩٢هـ) ـ رحمه الله ـ : « مصدر قولك : قصصت [1] الحديث أقصه قصا ، وقصصاً ، وهو الكلام المتصل بعضه

---

(١) قال الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (٧٥٦هـ) : ويجوز بالسين قسست قسا ... » عمدة الحفاظ : (ج٣ / ٢١٣٢) .

ببعض ... ويقال للواقعة التي لها حديث وبناء : قصة ... »[١].

ويقول الرازي : « والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة »[٢].

وذكر بعض المفسرين أن القصص في القرآن على ستة أوجه كما وضح الحسين بن محمد الدامغاني (٤٧٨هـ) ـ رحمه الله ـ ومن بعده ابن الجوزي وغيرهما : فوجه منها ؛ القصص : « التسمية » ؛ قوله تعالى في سورة النساء [الآية رقم ١٦٤] : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ ﴾ يعني : سميناهم لك ﴿ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ ، مثلها في حم المؤمن [الآية : ٧٨] : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ يعني سميناهم لك .

والوجه الثاني ؛ القصص : القراءة ؛ قوله سبحانه في سورة الأعراف [الآية : ١٧٦] : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ﴾ : أي فاقرأ ، مثلها فيها [الآية : ٣٥] : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ ، يعني : يقرءون ويتلون .

والوجه الثالث ؛ يقص يعني : يُبين ؛ قوله تعالى في سورة النمل [الآية : ٧٦] : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ ﴾ يعني : يبين ﴿ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ مثلها [هود : ١٢٠] : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ ﴾ : أي نبين ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ ، ونحوه .

الوجه الرابع[٣] ؛ قصصنا : أي طلبنا الأثر ؛ قوله سبحانه في سورة الكهف [آية : ٦٤] ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ يعني : يقصان الأثر ، ويطلبان

---

(١) نزهة الأعين النواظر : (ص٤٩٠) ، وانظر مفردات الراغب : (ص٦٧١) والوجوه والنظائر (ج٢ / ١٥٩ : ١٦٠) ، وعمدة الحفاظ : (ج٣ / ٢١٣٢) .

(٢) التفسير الكبير (ج٢ /١٨١).

(٣) جعل ابن الجوزي هذا الوجه وجهين : الطلب لآية الكهف ؛ واتباع الأثر لآية القصص وجعلها في أبواب السبعة من كتابه نزهة الأعين النواظر (ص/٤٩٠).

الموضع الذي انسرب فيه الحوت ، مثلها في سورة القصص : [الآية : ١١] : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ .

والوجه الخامس ؛ قص : أي أخبر ؛ قوله تعالى في سورة القصص [الآية :٢٥] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ ، يعني : أخبره بخبره ، كقوله تعالى في سورة يوسف ـ عليه السلام ـ : [الآية : ٥] ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ يعني : لا تخبرهم ، وكقوله تعالى فيها [الآية :١١١] : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ يعني : في أخبارهم ﴿عِبْرَةٌ﴾ .

الوجه السادس ؛ يقص : أي ينزل عليك ؛ قوله تعالى في سورة طه [آية : ٩٩] : ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: أي ننزل عليك ﴿مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ يعني بـ « الأنباء » : الأخبار ، ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ (١) .

ويقول الإمام القرطبي : « قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل » (٢).

غير أن هناك من بني عصرنا صنفين يتعاملون مع هذا القصص القرآني على غير هدى ولا بينة ، ولا كتاب منير ، أخطرهما مريد للأمة بل يضطرها إلى اتباع سنن بني إسرائيل باعتبار القصص بل إن شئت قلت الدين كله أثرا بعد عين ؛ يتعاظمون به في مجالسهم كأثر من الآثار وحضارة من الحضارات كانت

(١) الوجوه والنظائر للدامغاني (ج٢ ص١٥٩ : ١٦٠) ، ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (ص/٤٩٠ : ٤٩٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج٩ : ١١٨) .

وكانت ، وجعلوا القرآن نصا من النصوص ، مسوغين لأنفسهم بذلك توجيه النقد واللوم له بعقولهم العفنة ، حتى قال قائلهم وبئسما قال : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لايكفي لإثبات وجودهما التاريخي ...» الخ ، ثم شرع يشكك في قصة بناء الكعبة وغير ذلك من هذيان المحموم وسوداء الهموم ، وقد كثرت فئران مجاري هذا البئيس التعيس حتى نضح أحدها فقرر وصرح بسفور كالح : « لايلزم أن تكون كل حوادث القصص القرآني قد وقعت » !!!

وهكذا فالإنجاز عندهم يكون في النيل من هذا التراث ، والإعجاز عندهم هو ما لا يعرفه النبي ﷺ وعلموه هم ، ثم مالبثوا أن قدموا كل ذلك في تمثيليات ومسلسلات ...الخ مغلوطة ممقوتة محشوة بالعفن والكدر والكذب والتلبيس والتدليس إنهم ليسوا إلا منفذين لمؤامرة ما أخبثها . فاللهم سلّم سلّم ...

إن هذا الصنف لهو نابتة السوء[1] التي ظفر بها أعداؤنا عن طريق البعثات وسائر وسائل التغريب في التلقين وقنوات الاتصال العكرة التي تتبنى دسائس الزندقة ووسائل الإلحاد تحت ستار « المحللين والناقدين » .

اتخذوا القدح في الإسلام حرفة يتفرغون لها ويتعيشون منها ، ولاغنى لهم عن اختلاق المآخذ وتصيد التهم ، مستخدمين ما ظفروا به وما منحوه من ألقاب علمية ودرجات دنيوية علية دنية ، بوأتهم وظائف التوجيه والتدريس لأبناء

---

(١) ذكر العلامة محمد الخضر حسين في وصفهم أنهم يستعذبون الغمز في الإسلام بنهب مقالات من حديث قوم لايتدبرون فلايأتوننا إلا بعاطفة غير إسلامية تزوجت بمثلها فحملت هذا الهراء ، وولدته على غير مثال بقصد التشفي من غيظهم على دين لايرضى عن الإباحية المتهتكة. ولايجدون مندوحة من التغابي عن الإسلام أو الانسلاخ منه. وانظر المزيد في : نقض كتاب في الشعر الجاهلي للعلامة محمد الخضر حسين ، وكتاب الشيخ محمد الخضري ، وكتاب الأستاذ محمد أحمد الغمراوي .

المدارس والجامعات من أبناء المسلمين ، فوجدت الأفكار والسموم الموظفة المضطربة الألفاظ ، المتفاوتة الأبعاض ، المتباينة الأغراض ، المنتجة بعقول مستَغَلَّة من قبل بعض الساسة الحانقين على ديننا ؛ مرتعا خصبا بواسطة هؤلاء ينفذون بها إلى عقول أبنائنا فيتلقفونها بغثها وسمينها ، سقيمها وصحيحها دونما وعي أو تمحيص ، نسأل الله أن ينجينا منهم ، ويكون لهذه القلوب العليلة ، والأذهان الكليلة بالمرصاد ، وإنهم بإذن الله لأوهن من بيت العنكبوت .

والصنف الآخر يضطر الأمة أيضا إلى اتباع سنن بني إسرائيل لكن بوجهة أخرى هي ماعبر عنها ﷺ عندما قال : « **إن بني إسرائيل لما هلكوا قصوا** »[1] ؛ « أي ـ كما قال ابن الأثير ـ اتكلوا على القول وتركوا العمل ، فكان ذلك سبب هلاكهم ، أو بالعكس ، لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص ».

قال العلامة الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ بعد نقله قول ابن الأثير السابق : ومن الممكن أن يقال : إن سبب هلاكهم اهتمام وعاظهم بالقصص والحكايات دون الفقه والعلم النافع الذي يعرف الناس بدينهم فيحملهم ذلك على العمل الصالح ، لما فعلوا ذلك هلكوا ، وهذا هو شأن كثير من قصاص زماننا الذين جل كلامهم في وعظهم حول الإسرائيليات والرقائق والصوفيات. نسأل الله العافية [2].

وقال العلامة الألباني في موضع آخر : « أي لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص ، وعولوا عليها ، واكتفوا بها » . قاله المناوي .

قلت : ـ أي العلامة الألباني ـ ولينظر المؤمن العاقل في حال كثير من المسلمين اليوم ، فقد أصابهم ما أصاب من قبلهم ، فقد أخلد وعاظهم إلى

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٧٠٥) وغيره ، وحسن إسناده العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٨٠) .

(٢) الصحيحة للعلامة الألباني (ج٤/ ص٢٤٧) .

القصص ، وأعرضوا عن العلم النافع والعمل الصالح ، مصداقا لقوله ﷺ :
« **لتتبعن سنن من قبلكم ...** »[1].

وقصص القرآن وأخبار الصالحين وحكاياتهم ـ التي هي جند من جنود الله ولعله تتنزل الرحمة بذكرهم وتزول الوحشة ـ فوائدها والعبر المستخلصة منها لاتكاد تحصى[2] .

وبتتبع قصصهم نجدهم لا يتخالفون في أصل واحد من الأصول ، وهو القصص الحق يتبعه من قضى بسعادته ، ويتنكب عنه من حكم بشقاوته.

ثم أما بعد ؛

وقبل أن أودعك قارئي الكريم لتنهل من هذه الروضة الفيحاء الغنّاء أهمس في أذن كل من يهمه الأمر ؛ أن هذه الكتب القائمة على الكتاب وصحيح السنة بفهم سلف الأمة ، والتي تحرص على تصحيح المفاهيم ، وتوضيح الحق لمبتغيه لهي الحصن الحصين للشباب بل ولعامة الأمة من الانحراف والزيغ ، وهجوم الأفكار المسمومة الغربية على عقولنا ، فلا أقل من أن نفسح لها المجال للانتشار ، أو ندعها لتأخذ مسارها القويم للإرشاد والرشاد والتقويم بإذن ربنا العليم ، ذلكم رجاء وإيضاح وتمني ، والله الموفق سبحانه لارب سواه .

الناشر
عماد بن صابر المرسي
مكتبة التوعية الإسلامية
١٣رمضان ١٤٢٧هـ
٢٠٠٦/١٠/٦م

---

(١) صحيح الجامع (ج٢/ ص١٩٢) .

(٢) انظر منها ماذكره المصنف ـ حفظه الله ـ هنا من ص ١٧إلى ص ٢٣ ، وكذلك ماذكره من فوائد عقب كل قصة ، وانظر مقدمة الأخ مشهور حسن لكتابه الماتع : « قصص الماضين في حديث سيد المرسلين » وقد دُللت بواسطته على المواضع السابقة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً ، ونصب لنا الدلائل على صحته برهاناً مبيناً ، وأوضح السبيل إلى معرفته واعتقاده حقاً يقيناً ، ووعد من قام بأحكامه وحفظ حدوده أجراً جسيماً ، وذخر لمن وافاه به ثواباً جزيلاً وفوزاً عظيماً ، وفرض علينا الانقياد له ولأحكامه ، والتمسك بدعائمه وأركانه ، والاعتصام بعراه وأسبابه ، فهو دينه الذي ارتضاه لنفسه ، ولأنبيائه ورسله وملائكة قدسه ، فبه اهتدى المهتدون ، وإليه دعا الأنبياء والمرسلون : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ضدَّ له ولا ندَّ له ، تعالى عن إفك المبطلين وخرص الكاذبين ، ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١، ٩٢] .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفوته من خلقه ، وخيرته من بريّته ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتابُ الله ، وخير الهدي هدي محمدٍ - ﷺ - ، وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكلَّ محدثةٍ بدعة وكلَّ بدعةٍ ضلالة ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

ثم أما بعد أيضاً :

فقد قص الله تعالى علينا في كتابه أحسن القصص : أبدعه طريقةً ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقه أخباراً ، كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

ولاشكَّ في أن غفلتنا عن القرآن وتدبُّره والاتعاظ بمواعظه قد شمل هذا الجانب الكبير من القرآن – جانب القصص – الذي ينبغي أن يهتم به المؤمنون ؛ لتثبيت إيمانهم ، وأخذ العبرة والعظة من أخبار السَّالفين ، فإن سنَّة الله عزَّ وجلَّ في عباده واحدة ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] فلابدَّ أن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة للمؤمنين ، والدولة في النهاية لحزب الله الموحِّدين ، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُون ﴾ [الصافات : ١٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

وبتدبُّر قصص الأنبياء والمرسلين تظهر هذه السنُّن الربانيَّة ؛ ففي نهاية كل قصة يكون النصر والتمكين للمؤمنين ، والهلاك والعذاب للمكذبين لذا قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

قال ابن كثير (رحمه الله) : يقول تعالى وكل أخبار نقصُّها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجَّات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نثِّبتُ به فؤادك يا محمد ، أي : قلبك ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة.

﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أي : هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ونبأ صدقٍ يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون [١] .

وإنما ينتفع بهذا القصص العظيم والذِّكر الحكيم أصحاب القلوب الزَّاكية ، والعقول الواعية ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

قال القاسمي : قال بعضُ المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة ، بدليل وجود أمثالها بين الناس قبل نزوله ، فهي وإن اختلفت قليلاً في بعض التفاصيل والجزئيات عمَّا يرويه الناس ، إلاَّ أنها توافقها في الجملة وتصدقها في الجوهر ، فلا تظنُّوا أيُّها المشركون أن النَّبيَّ اخترعها بعقله ، بل اسألوا عنها أهل الكتاب تجدوا أنها معروفة بينهم ومرويَّة في كتبهم ، فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل ، من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يطَّلع على كتب أهل الكتاب.ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص القرآن يجب أن لا تختلف عن قصص التَّوراة والإنجيل في شيء ما ، كلاَّ،إذ لو صحَّ هذا لما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦] ، فقصصه قد تختلف عمَّا عندهم وتبيِّن لهم حقَّه من باطله ، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ومخالفته لها في بعض الجزئيات كما قلنا ا.هـ ملخصاً [٢] .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » : (٢ / ٤٦٥ ، ٤٦٦) بتصرُّف .

(٢) « محاسن التأويل » : (٩/ ٣٠١ ، ٣٠٢) .

وهذا النصر الذي وعد الله عزَّ وجلَّ به المؤمنين لا يكون دائماً في أول جولة مع الكفَّار ، ودون أن يمتحن الله قلوب أوليائه ويمحص المؤمنين ، بل غالباً يتأخر النصر جداً ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٤] فهذا من سنن الله عزَّ وجلَّ في أوليائه وحزبه كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

فالقصص القرآني تربية للأمَّة وتعريف بسنن الله في عباده . **جاء في كتاب « النظام والإسلام » في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله :**

طال الأمر على أمَّتنا فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة ، يا ليت شعري ما الذي أصابها حتى غضَّت النَّظر عن القصص التي قصَّها ! وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلاَّ المؤرخين؟! والقصص في كل أمَّة عليها مدار ارتقائها ، سواء كانت وضعيَّة أم حقيقيَّة ، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد .

جاء القرآن بقصص الأنبياء وهي – ولا جرم – أعلى مناراً وأشرف مزيَّة ؛كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه ، والقدوة الحسنة للكُمَّل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم ، وتحققها في أنفسها لوقوع مواردها ، وإن حب التَّشَبُّه طبيعة مرتكزة في الإنسان لاسيما لمن يقتدي بهم ، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ونقصت في سواها ، أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلا نكاد نفهم إلاَّ حكايات ذهبت مع الزمان ومرَّت كأمس الدَّابر؟! وما لنا ولها إذ ؟! تالله إن هذا لهو البوار ، ولم يكن هذا للجهل بالمقصود من قصصها ، وإنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكَّر ، وتبصرة لمن ازدجر .

وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلاَّ منافعها والعبر المبصرة للمسلمين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نعتمد إلاَّ على البرهان ، تأمَّل هذه القصص تجده لا يذكر إلاَّ ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع؛ إذ لا لزوم لها ، ولا معول عليها ، فلا ترى قصة إلاَّ وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقليَّة وتبصرة وتذكرة تلذ العقلاء[1].

ومن منطلق منهج التَّصفية وبعون الله وفضله عمدتُ إلى ما وقفتُ عليه من كتب السِّيَر والتفاسير ، وكذلك كتب السُّنَّة التي ورد فيها أخبار الأنبياء، فجمعتُ لإخواننا من طلاب العلم شيئاً من فضائل الأنبياء ، مما صحَّت فيه الأخبار ونقله العدول الأخيار ، ثم ذكرت شيئاً من دعوتهم ومواقفهم الإيمانية ، وأردفتُ ذلك بالفوائد والآثار الإيمانية ، حتى يتم الانتفاع بالقصص القرآني ، ونقف على مواطن العبرة والعظة ، ليس ذلك على سبيل الحصر ، ولكن بحسب ما فتح الله عزَّ وجلَّ من الخير ، وهمَّة البحث وما تيسر من المراجع ، ولعلَّ من إخواننا من يأتي فيكمل هذا الخير، وقد بدأتُ بذكر أولي العزم من الرسل ، وكنت قد أفردت خاتمهم ﷺ ببحث تحت عنوان « تقريب الوصول إلى معرفة الرسول ﷺ » في بيان فضائله وما خصَّه الله عزَّ وجلَّ به ، ولعلِّي أخصُّه بعد ذلك ﷺ بذكر بعض مواقفه الإيمانية مع بيان العبرة والعظة .

وفي هذا المصنَّف الذي بين يديك أيُّها القارئ الكريم ذكر بقيَّة أولي العزم على ما رتَّبهم الله عزَّ وجلَّ في سورة الأحزاب :﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧ ﴾

(١) باختصار من « محاسن التأويل » : (٩ / ٣٠٥ ، ٣٠٦) .

فبدأت بذكر نوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى صلى الله على رسولنا وعليهم وسلم تسليماً .

ولإتمام الفائدة ضمنتُ هذه المقدمة فصلين :

الفصل الأول : في فوائد القصص القرآني عموماً .

الفصل الثاني : في بيان اشتمال أكثر كتب التاريخ والتفاسير على الإسرائيليات والموضوعات مع بيان حكم ذلك وتنزيه هذا المُؤلَّف من ذلك .

ولما كان التَّوفيق لهذا الكتاب فضلاً من الكريم المنان ويسر الله جمعه وترتيبه في أقصر زمان أسميته :

« تيسير المنان في قصص القرآن »

والله أسأل أن ييسر لي إتمام قصص الأنبياء [1] وكذلك بقية القصص القرآني، والله الموفق لما يحبه ويرضاه فهو الذي يعطي عبده المؤمن فوق ما يتمناه .

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

وإني أهيب بكل مسلم وجد في كتابي شيئاً من الخطأ أو الغفلة ، أن يخلص لي النصيحة فيه ، حتى أتوب إلى الله منه ، وأتداركه في الطبعات المقبلة إن شاء الله ، والله يوفقنا وإخواننا لما يحب ويرضى ، ويختم لنا بخير في عافية ، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء – ويبقى في المقدمة ما شرطناه – ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله .

---

(١) وقد تم ولله الحمد والمنة ، وننشره كاملا في هذه النشرة .

منهـــــج الـــــدراســـــة

من باب التعريف والبيان لهذا المصنَّف الجديد في قصص القرآن أرى من المفيد أن أفصح عن طريقتي في البحث ، وما تتميز به هذه الدراسة الجديدة للقصص القرآني عن غيرها من المطبوع ، وألخصُ ذلك في عشرة أمور :

١- أبديت اهتماماً خاصّاً بأولي العزم من الرسل ؛ حيث أفردتُهم بالجزء الأول من هذا الكتاب عدا خاتمهم ﷺ حيث أفردته بدراسة أشرتُ إليها آنفاً ، ولا يتبادر إلى ذهن القارئ من هذا الصنيع إنكار نبوَّة آدم عليه السلام ، وسوف نشيرُ إلى قصته بعد ذلك إن شاء الله .

٢- بدأت كل قصة من هذا القصص بذكر فضائل نبيِّها بما لم أجده مجموعاً في مصنَّف ذاكراً الآيات الواردة في فضله بتفسير العلماء ثم ما صحَّت به السنّة في فضائلهم صلى الله عليهم وسلم .

٣- لم أتعهد بسرد القصص وجميع ما ذكر كما هو منقول في أكثر القصص، وإنما اقتصرت على شيء من دعوتهم ؛ لأن هذا هو المقصود الأول مع بيان طريقتهم في الدعوة وصبرهم وإخلاصهم ، ثم ذكرتُ شيئاً من مواقفهم الإيمانية وكيف نصرهم الله عزَّ وجلَّ على عدوه وعدوهم ، وذلك من أجل تثبيت الدعاة وزيادة ثقتهم بنصر الله - عزَّ وجلَّ - .

٤- أكثرتُ من النقول خلافاً لكثير ممن صنف في هذا المجال ، فلا يضيرني إذا وصلت إلى المعنى المرجو أو الفائدة المطلوبة كان ذلك على لساني أو لسان غيري .

٥- حذفتُ كل الإسرائيليات والموضوعات بل والضعيف الذي لم يصححه أحدٌ من الأئمة اكتفاءً بنصوص القرآن وصحيح السنّة ، وكذلك

التفصيلات والأسماء التى لم ترد في كتاب الله ، ولا صحَّت بها سنَّة رسول الله ﷺ ، ولو افترضت صحة الإسرائيليات فهي مما لا فائدة فيه ، وإنما سقنا ما سقناه لاستخراج العبرة والعظة .

٦- جمع الكتاب بين أقوال أئمة التفسير المتقدمين : كالطبري والقرطبي والزمخشري ، وأقوال المعاصرين من أهل العلم الذين لمسوا احتياج عصرهم وحاجة أمتهم : كالشنقيطي والسعدي ورشيد رضا وسيد قطب (رحمهم الله)

٧- ذكرتُ في مقدمة الكتاب أموراً نافعةً في بيان أهمية القصص القرآني كأسلوب من أساليب التربية التي عليها مدار رفعة الأمَّة وعزَّتها ، وجمعتُ ما وقفتُ عليه وما فتح الله – عزَّ وجل – به من فوائد القصص القرآني عموماً بما لم أجده مجموعاً ، ولله الحمد والمنَّة.

كما ذكرتُ كذلك حكم رواية الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، واعتذرت عن المتقدمين الذين ذكروا في كتبهم الضعيف والموضوع بأسانيدهم ، وكيف أنهم صنَّفوا لزمانهم وللمميزين بما تقرّ به أعين المشتغلين بعلوم السنَّة .

٨- حققتُ الأحاديث المرفوعة بحسب الطاقة ، ذاكراً مواضع الحديث في كتب السنَّة بحسب ما تيسر من المراجع ، وهمَّة البحث العلمية بما لم أجده في كتب القصص عموماً مع اختلافها في ذلك .

٩- التزمت كما هو منهجي في البحث دائماً ترك فضول الكلام ، ومحاولة جمع الفوائد وتحصيل المنافع بأوجز عبارة ، وربما اقتصرت في كثير من المواطن على ترتيب النقول وتبويبها وتحقيق مادتها دون زيادات .

وعاشِر العَشَرَةِ ؛ دعوتُ الله أن يبارك في هذا المؤلف وينفع به إخواننا ، وأن يغفر لي تقصيري وزللي ، وينفعني والمسلمين بصالح عملي والله المستعان وعليه التكلان .

ويبقى في المقدمة ما شرطناه ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله .

فوائد القصص القرآني

يقول الأستاذ : مناع القطان : الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع ، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حبُّ الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس ، والموعظة الخطابيّة تسرد سرداً ، لا يجمع العقلُ أطرافها ولا يعي جميع ما يلقى فيها ، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها ، ويرتاح المرءُ لسماعها ، ويصغى إليها بشوقٍ ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبرٍ وعظاتٍ [١] .

* **فمن فوائد القصص القرآني أن به يتم ويكمل الإيمان بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم ،** فإننا وإن كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمال ، فالإيمان التفصيلي المستفاد من قصصهم ، وما وصفهم الله به من الصدقِ الكاملِ والأوصافِ الكاملةِ التي هي أعلى الأوصاف ، وما لهم من الفضل والفواضل والإحسان على جميع نوع الإنسان ، بل وصل إحسانهم إلى جميع الحيوانات ، بما أبدوه للمكلّفين في الاعتناء بها والقيام بحقّها ، فهذا الإيمان التفصيلي بالأنبياء يصل به العبدُ إلى الإيمان الكامل ، وهو من مواد زيادة الإيمان.

* **ومن ذلك أن في قصصهم : تقرير الإيمان بالله وتوحيده ، وإخلاص العمل له ،** والإيمان باليوم الآخر ، وبيان حسن التوحيد ووجوبه ، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة .

(١) باختصار من « مباحث في علوم القرآن » : (٣٠٥) ، مكتبة المعارف ، الرياض .

* ومن ذلك أيضاً أنهم عبرة للمؤمنين ، يقتدون بهم في جميع مقامات الدين ، في مقام التوحيد والقيام بالعبودية ، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة ، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التّام ، وفي مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى ، لا يطلبون من الخلق أجراً ولا جزاءً ولا شكوراً إلاّ الأمور النافعة للخلق .

* وفيها من الفوائد الفقهيّة ، والأحكام الشرعية ، والأسرار الحكميّة شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها .

* وفيها من الوعظ والتذكير ، والترغيب والترهيب ، والفرج بعد الشّدة ، وتيسير الأمور بعد تعسُّرها ، وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدّار وحسن الثناء والمحبّة في قلوب الخلق ما فيه زاد للمتقين ، وسرور للعابدين، وسلوة للمحزونين ، ومواعظ للمؤمنين ، فليس المقصود من قصصهم أن تكون سمراً ، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيراً وعبراً [1] .

* ومن ذلك إثبات صدق الوحي المنزل على رسولنا ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[هود :٤٩] ، لأن النبي ﷺ لم يطّلع على الكتب السابقة.

* ومن ذلك التسرية عن رسول الله ﷺ والمؤمنين فيما يلاقونه من تكذيب وأذى واتهام بالسّحر والجنون ؛ فقد كُذِّب الرسل من قبل ، ووجه لهم نفس القول ، ثم صبروا حتى جاءهم نصر الله وإهلاك المكذبين .....

(١) باختصار من « تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن » للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي : ص (١٠١) ، بتصرف .

كما قـال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

* **ومن أهداف القصص القرآني إبراز حقيقة عقيديَّة هامة تبرز من خلال السرد التاريخي ، هي أن الأنبياء والرسل جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة على تتابع الأجيال** ، كلمة واحدة هي : لا إله إلاَّ الله ، وقضية واحدة هي : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

وتوحيد الألوهيَّة هو القضية الكبرى في حياة البشريَّة حيث يرسل الرسلُ المتتابعون من أجلها وحدها ، وكل شيء بعد ذلك مترتب عليها ، وهذا يعطي شعورًا بالانتماء إلى أمَّة كبيرة موحدة على تتابع الأجيال : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

* **ومن هذه الفوائد بيان أن الابتلاء لابد أن يحدث للمؤمنين** ، لابد أن تواجههم الجاهلية بالإيذاء بشتى صنوفه... ثم يبقون في هذا الإيذاء فترة لا ينصرهم فيها الله ، إنما يملي للطغاة فينتفشون ويزيدون طغياناً بما يحدث لهم من الغلبة للمؤمنين ، حتى إذا جاء أمرُ الله ، جاء النصر للمؤمنين بقدر من الله ، ووقع الهلاك بالمكذبين بقدر كذلك من الله [1] .

* **ومن هذه الفوائد بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحي الله تعالى لعباده** ، وأنهم لا يملكون فيما وراء التبليغ نفعاً للناس ، لا دينياً كالإيمان والتَّقوى ،

---

(١) باختصار من « دراسات قرآنية » للأستاذ محمد قطب : (٩٩ : ١١١) ، دار الشروق.

ولا دنيوياً كالرزق والصحة ، ولا كشف ضرٍّ عنهم كذلك ، فقد كان أبو إبراهيم وابن نوح وامرأته وامرأة لوط من الكافرين .

* **في هذا القصص كذلك بيان أن شبهة الأقوام على رسلهم أنهم بشر** ، وأن آياتهم سحر ، واقتراحهم عليهم نزول الملائكة والآيات الكونية الحسيَّة ، وردهم عليهم بأن آياتهم من فعل الله تعالى لا من كسبهم بقدرتهم .

* **في هذا القصص كذلك بيان الرسل أن هداية الدين سبب لزيادة النعم وحفظها** ، كما أنها هي التي تُنال بها سعادة الآخرة .

* **ومن فوائده الانتفاع بنصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم** ، كقوم نوح في غوايتهم وغرورهم ، وآل فرعون وملئه في ثروتهم وعتوهم ، وقوم لوط في فحشهم ، وعاد في قوتهم وبطشهم ، وثمود في أشرهم وبطرهم ، ومديَن في تطفيفهم وإخسارهم لمكاييلهم وموازينهم ، وبني إسرائيل في تمردهم وجمودهم .

* **بيان سنن الله تعالى في استعداد الناس النفسي والعقلي لكلٍّ من الإيمان والكفر** والخير والشرِّ والهدى والضلال ، واستكبار الرؤساء والزعماء المترفين والمقلِّدين للآباء عن الإيمان والإصلاح ، وكون أول من يهتدى به المستضعفين والفقراء ، وفي عاقبة الكفر والجحود والبغي والظلم والفسوق [1] .

* **ومن فوائد دراسة القصص كذلك تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم .**

* **ومن ذلك مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البيِّنات والهدى وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل** كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ

(١) باختصار وتصرف من « تفسير المنار » للعلامة محمد رشيد رضا – رحمه الله – : (١٢ / ٤١ ، ٤٢) .

الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) [آل عمران : ٩٣].

* **ومن ذلك محبَّة الأنبياء والمرسلين وموالاتهم ، وذلك من مكملات الإيمان** بهم ، وكذلك معاداة أعدائهم وبغضهم ولا شكَّ أن محبَّة الأنبياء من أعظم أسباب دخول الجنَّة لقوله ﷺ **« المرء مع من أحب »**(٢) .

* **ومن ذلك أن الشاهد ينبغي أن يدرس ويعلم ما يشهد به يوم القيامة ، وهذه الأمة سوف تشهد لجميع الأنبياء يوم القيامة أنهم قد بلغوا ، ويكون الرسول عليهم شهيداً.**

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : **« يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمَّته فيشهدون أنه قد بلَّغ ويكون الرسول عليهم شهيداً فذلك قوله (عزَّ وجلَّ) :** ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] (٣)
والوسط : العدل .

---

(١) « مباحث في علوم القرآن » للشيخ مناع القطان : ص (٣٠٧) ، بتصرُّف واختصار .

(٢) حديث متواتر رواه البخاري : (٦/٥٥٧) الأدب ، ومسلم : (١٦/١٨٧) البر والصلة ، عن عبد الله بن مسعود بهذا اللفظ ورواه عن أنس بلفظ : **« أنت مع من أحببت »** . ورواه الترمذي عن أنس وعن صفوان بن عسال : (٩ / ٢٣٣) الزهد .

(٣) رواه أحمد : (٣ / ٣٢) ، وابن ماجه : (٤٢٨٤) بزيادة في أوله بإسناد صحيح على شرط الشيخين . وصححه الألباني في « صحيح ابن ماجه » : رقم (٣٤٥٧) .
ورواه البخاري : (٦ / ٣٧١) الأنبياء ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ :
« يجيء نوح وأمته » .

تكميل :

قال الأستاذ منَّاع القطان : يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع ، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن وتُعرض في صور مختلفة ؛ في التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب وما شابه ذلك ومن حكمة هذا :

(١) **بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها :** فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة ، والقصة المتكررة تَرِدُ في كلِّ موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر وتصاغ في قالب غير القالب ، ولا يملّ الإنسان من تكرارها بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى .

(٢) **قوة الإعجاز :** فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي .

(٣) **الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس :** فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون لأنها تمثل الصراع بين الحقّ والباطل أتم تمثيل ، مع أن القصة لاتكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها .

(٤) **اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة :** فتذكر بعض معانيها الوافية للغرض في مقام ، وتبرز معانٍ أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال [١] .

---

(١) « مباحث في علوم القرآن » : ص (٣٠٧ ، ٣٠٨) .

الفصل الثاني

في بيان اشتمال أكثر كتب السير والتفاسير في القصص على الإسرائيليات والموضوعات مع بيان الحكم في ذلك

فمما دفعني إلى دراسة قصص الأنبياء عدة أمور :

الأمر الأول : معرفة ما ثبت من فضائلهم ومناقبهم ومراتبهم العالية ونشر ذلك ؛ لأنهم الأمثلة الحيَّة والقدوة الصالحة للبشرية ، فقد اصطفاهم الله عزَّ وجلَّ على علم على العالمين واختصهم بالصفات العالية والأخلاق الرفيعة الزاكية ، وأمرنا بالاقتداء بهم كما قال تعالى : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام : ٩٠] ، وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . ولذا اهتم النَّبيُّ ﷺ بذكر فضائلهم ورفع منازلهم ، مع أنه ﷺ سيد الأولين والآخرين ، وإمام الأنبياء والمرسلين .

روى مسلم في « صحيحه » عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : ياخير البريَّة . فقال رسولُ الله ﷺ : « **ذاك إبراهيم** »[1] .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تفضلوا بين أنبياء الله ؛ فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله** » قال : « **ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث ، فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث**

(١) رواه مسلم : (١٥/١٢١) ، الفضائل .

قبلي ؟ ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متّى »[1].

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة – رضى الله عنه – : « قيل : يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال : « أتقاهم » فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله ... »[2] الحديث .

وأخبر النَّبيُّ ﷺ ببعض صفاتهم الخَلقية مبالغة في التعريف بهم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النَّبيُّ ﷺ – ليلة أُسري به – : « لقيت موسى » فنَعَته فإذا رجل حسبته قال : « مضطرب رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة » قال : « ولقيت عيسى » فنَعَته النَّبيُّ ﷺ فقال : « رَبْعَة أحمر، كأنما خرج من ديماس – يعني : الحمام – ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به...» [3].

قال الحافظ : القائل حسبته عبد الرزاق ، والمضطرب : الطويل غير الشديد ، وقيل : الخفيف اللحم ، وتقدم في رواية هشام بلفظ : « ضرب » وفسر بالنحيف ولا منافاة بينهما . وقال ابن التين : هذا الوصف مغاير لقوله بعد هذا : « إنه جسيم »... قال عياض : وهو ضد الضرب ، إلاَّ أن يُراد بالجسيم الزيادة في الطول .

قال ابن حجر : ويؤيده قوله في الرواية التي بعد هذه :« كأنه من رجال الزُّط » وهم طوال غير غلاظ ، ووقع في حديث الإسراء وهو في بدء الخلق: « رأيت موسى جعداً طوالاً» واستنكره الداودي فقال : لا أراه محفوظاً لأن الطويل لا يوصف بالجعد ، وتعقب بأنهما لا يتنافيان . وقال النووي : الجعودة في صفة موسى جعودة الجسم وهو اكتنازه واجتماعه ، لا جعودة الشعر لأنه جاء أنه رَجِل الشعر .

وقوله في صفة (عيسى) : رَبْعة وهو المربوع ، والمراد أنه ليس بطويل جداً ولا قصير جداً بل وسط ، وقوله : « من ديماس » – يعني : الحمام –

(١) مسلم: (١٥/١٣٠ ، ١٣١) الفضائل، والبخاري بمعناه:(٦/٤٤١) أحاديث الأنبياء .
(٢) البخاري : (٦ / ٣٨٧) الأنبياء ، ومسلم : (١٥ / ١٣٤) الفضائل .
(٣) رواه البخاري : (٦ / ٤٧٦ ، ٤٧٧) الأنبياء .

المراد من ذلك وصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه، كأنه كان في موضع كِنٍّ فخرج منه وهو عرقان ، وسيأتي في رواية ابن عمر بعد هذا : «**ينطف رأسه ماء** »[1] . ثم وصف إبراهيم عليه السلام بأنه يشبهه ﷺ فقال هنا : « **وأنا أشبه ولده به** » وفي رواية : « **فانظروا إلى صاحبكم** »[2] يعني نفسه ﷺ .

والأمر الثاني : وهو ما أسلفناه في الفصل السابق وهو استخراج العبرة والعظة، والوقوف على الفوائد والآثار الإيمانية مِن القصص عموماً ومن كل قصة على وجه الخصوص ، لقوله – عزَّ وجلَّ – : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف: ١١١].

والأمر الثالث : وهوالمقصود بالبحث في هذا الفصل تنقية القصص مما علق به عبر القرون والأجيال ، من الخرافات والموضوعات والإسرائيليات ، فإن الله عزَّ وجلَّ تعبَّدنا بما جاء في كتابه الكريم وبما صحَّ من سنَّة المصطفى عليه الصلاة والتسليم .

يقول الأستاذ محمد أبو شهبة : لايزال بعض الخطباء ومقيمي الشعائر الدينية الذين ليس لهم علم بالحديث روايةً ودرايةً ، ولا سيما من لم يتأهلوا التأهل اللازم لمن يتولى الإمامة والخطابة والذين لا يزالون يخطبون في الدواوين، أو يعتمدون في خطبهم على الكتب التي لايعتمد عليها في معرفة الأحاديث والتمييز بين صحيحها وضعيفها وموضوعها ، والذين جعلوا غايتهم استرضاء الجماهير ، فيذكرون لهم أحاديث في الترغيب والترهيب وحكايات وقصصاً مثيرة عجيبة أغلب الظنِّ أنها من وضع القُصَّاص وجملة الزُّهاد الذين استباحوا ذلك ، وكان جلُّ همِّهم تملق الجماهير واستمالتهم بذكر المبالغات ، والتهاويل والعجائب والغرائب ، وما أجدر هذه الفئة بأن يحال بينها وبين الخطابة والوعظ والتذكير حتى لا يسمِّموا أفكار الناس ويفسخوا القيم الدينية والخلقية الصحيحة ، وتكون

(١) رواه البخاري : (٦ / ٤٧٦ ، ٤٧٧) الأنبياء .
(٢) « فتح الباري شرح صحيح البخاري » : (٦ / ٤٨٥ ، ٤٨٦) .

حجّة على الإسلام لا حجّة له ، وأحبُّ أن أقـول لهؤلاء وأمثالهم : إن في الأحاديث الصحيحة والحسان والقـصص الثابت الصـحيح غُنْيَة عن الأحاديث الموضـوعة أو الضـعيفـة والقصص المكذوب لمن يريد أن يرقق القلوب ويسـتـولي على النـفـوس ، فليتّـق الله هؤلاء في الناس وفي أنفسـهم(١).

والناظر في كتب السير والتـاريخ والتفاسير يهوله كثرة ما فـيها من الخرافات والموضوعـات التي لا يجوز روايتهـا لقوله ﷺ : « **إن كـذباً عليَّ ليس ككذبٍ على أحدٍ فمن كـذب عليَّ متعمـداً فليتبوأ مـقعده من النّار** » (٢) . ولا شـكَّ أن ترويج الأحـاديث الموضوعـة بنقلهـا في المصنّفـات ودروس العلم مـشاركـة في الكذب على النّبيِّ ﷺ إذا لم يتم التنبيه على ضعفها ووضعها.

قـال النووي ــ رحـمـه الله ــ : يحـرم روايـة الحـديث الموضــوع على من عرف كونـه موضـوعاً أو غلب على ظنّه وضـعه ، فـمن روى حديثـاً علم أو ظنَّ وضعه ولم يبيّن حال روايـته وضعفه فهو داخل في هذا الوعـيد مندرج في جملة الكاذبين على رسـول الله ﷺ ويدلُّ عليه أيضـاً الحديث السـابق : « **من حدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين** » (٣).

وقال الدّارقطني : توعـد ﷺ بالنّار من كذب عليـه بعـد أمره بالتـبليغ عنه، ففي ذلك دليل على أنه إنما أمـر أن يبلغ عنه الصحيح دون السّقيم ، والحق دون الباطل ، لا أن يبلغ عنه جمـيع ما رُوي عنه لأنه ﷺ قال : «**كفى بالمرء إثماً أن**

---

(١) « الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير » للأستـاذ الشيخ محـمد بن محـمد أبو شهبة : ص (٣٠-٣١) ، سلسلة البحوث الإسلامية .

(٢) رواه البخـاري : (١٦٠/٣) الجنائز ، ومسلم : (٧٠/١ ، ٧١) المقـدمة ، والترمذي : (١٢٦/٩) أبواب العلم . والحديث متواتر لفظاً ومعنىً .

(٣) « شرح النـووي على صحيح مـسلم » : (٧١/١) . والحديث رواه مـسلم : (٦٢/١) المقدمة ، والترمذي : (١٢٩/٩) أبواب العلم .

يحدث بكلّ ما سمع »[1] أخرجه مسلم . فمن حدث بجميع ما سمع من الأخبار المرويّة عن النّبيّ ﷺ ولم يميز بين صحيحها وسقيمها وحقها من باطلها باء بالإثم وخيف عليه أن يدخل في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ . وقد أخبر الله نبيّه ﷺ بما يكون بعده في أمّته من الروايات الكاذبة والأحاديث الباطلة

فأمر النّبيّ ﷺ باجتناب رواتها وحذر منهم ونهى عن استماع أحاديثهم وعن قبول أخبارهم فقال ﷺ : « **سيكون في آخر الزمان أناس من أمّتي يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإيّاكم وإياهم** »[2] .

فإن قال قائل : لماذا ترخص العلماء في رواية كثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة في كتبهم ولم يشترطوا الصحة كما اشترط البخاري ومسلم رحمهما الله ؟ . فالجواب : أن الأحاديث الضعيفة التي ليست شديدة الضعف أو موضوعة قد تنجبر بكثرة الطرق إلى درجة الحسن أو الصحة فتترقى لدرجة الاحتجاج ، فالحديث الذي لا يصح بذاته قد يصلحُ للاعتبار فيُقوي غيره أو يَقوى بغيره .

ثانياً : أنهم أوردوا الأحاديث بأسانيدها ، وكما يقولون : من أسند لك فقد أحالك وإنما يصح ذلك في أزمنتهم الزاهرة التي ينظر فيها طالب العلم في السند فيعرف آفته ، وقد صرّح بعضهم أنهم صنّفوا للمميز الذي يفرق بالنظر في السند بين صحيح الحديث وضعيفه وموضوعه ، وبذلك تبرأ ذمّة المصنّف إذا ذكر الحديث بسنده ، وعلى طالب العلم أن يميز من حيث السند ويحكم على الحديث بما يليق بحاله ، ولا يخفى أن الواجب في هذه الأزمنة أن يبين حال الحديث من حيث الصحة أو الضعف .

---

(١) رواه مسلم : (٧٣/١) المقدمة ، بلفظ «كفى بالمرء كذبا » . وأبو داود : (٤٩٧١) الأدب .
قال النووي : فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب فإذا حدث بكل ما سمع كذب لإخباره بما لم يكن ؛ والكذب : الإخبار عن الشيء بغير ما هو ، ولا يشترط فيه التعمد.

(٢) « الضعفاء والمتروكين » : (٩-١١) ، ط . المكتب الإسلامي .والحديث رواه مسلم : (٧٨/١) المقدمة .

ثالثاً : قد يخفى ضعف بعض الرواة على بعضهم ، ولا يقدح هذا في علمهم وورعهم ، فما جعل الله العصمة لأحدٍ بعد رسوله ﷺ .

رابعاً : أسباب الجرح مختلفة وما يراه بعض الأئمة قادحاً يراه غيره غير قادح، ومن هنا اختلف العلماء في الحكم على الحديث بالصحة والضعف(١) .

أما الإسرائيليات : فقد ترخَّص كثير من العلماء في نقلها عملاً بقول النَّبيِّ ﷺ : « **بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج** » (٢) .

قال ابن كثير – رحمه الله –: لكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، ويجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعددهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلَّفين في دينهم ولا دنياهم (٣) .

قال العلامة أحمد شاكر – رحمه الله – : إن إباحة التحديث عنهم فيما

---

(١) وانظر: «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» للحافظ ابن كثير: ص (٣٨) .

(٢) رواه البخاري : (٤٩٦/٦) ، أحاديث الأنبياء . والترمذي : (١٣٦/٩ ، ١٣٧) ، العلم .

(٣) «تفسير القرآن العظيم» : (٤/١) ، المقدمة ، دار المعرفة ، بيروت .

ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيءٌ وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو روايةً في معنى الآيات أو في تعيين ما لم يعين فيها أو في تفصيل ما أُجْمِل فيها شيء آخر ؛ لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبيِّن لمعنى قول الله سبحانه ومفصِّل لما أُجْمِل فيه وحاشا لله ولكتابه من ذلك . وإن رسول الله ﷺ - إذ أذن بالتحديث عنهم - أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم فأي تصديقٍ لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟! اللهم غفراً .

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه في تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف بعد أن ذكر أقوالاً في « إبليس » واسمه ومن أي قبيل هو ؟! : « وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السَّلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحقِّ الذي بأيدينا ، وفي القرآن غنية عن كلِّ ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الأمَّة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دَوَّنوا الحديث وحرروه وبيَّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه؛من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرَّفوا الوضَّاعين والكذَّابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال ، كلُّ ذلك صيانة للجناب النَّبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يُحدَّث عنه بما ليس منه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنَّات الفردوس مأواهم ؛ وقد فعل [1] .

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :« يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث

(١) «عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير» اختصار وتحقيق : أحمد محمد شاكر : (١٥ ، ١٦).

الأخبار بالله تقرءونه لم يُشَبْ ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بَدَّلُوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا : ﴿ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [البقرة : ٧٩] أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم » (١) .

وروى البخاري كذلك عن حميد بن عبدالرحمن سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : (إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا ــ مع ذلك ــ لنبلو عليه الكذب) (٢) .

قال الحافظ : وقال عياض : يصح عوده على الكتاب ، ويصح عوده على كعب وعلى حديثه ، وإن لم يقصد الكذب ويتعمده ، إذ لا يشترط في مسمى الكذب التعمد بل هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه ، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب . وقال ابن الجوزي : المعنى أن بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذباً ، لا أنه يتعمد الكذب ، وإلاَّ فقد كان كعب من أخيار الأحبار (٣) .

وقال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : لما أسلم كعب الأحبار في الدولة العمرية جعل يحدث عمر ــ رضي الله عنه ــ عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر فترخص الناس في استماع ما عنده غثها وسمينها ، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرفٍ واحدٍ مما عنده (٤) .

ومع تصريح ابن كثير (رحمه الله) بأن هذه الأمَّة ليست في حاجة إلى حرفٍ واحدٍ مما عنده ومع قول معاوية ــ رضي الله عنه ــ بأن كعب الأحبار كان من أصدق

---

(١) رواه البخاري : (٥/٢٩١) الشهادات ، (١٣/٤٩٦) التوحيد ، (١٣/٣٣٤) الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٢) رواه البخاري : (٥/٣٣٣) الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٣) باختصار من « فتح الباري » : (٥/٣٣٥) .

(٤) نقلاً عن « محاسن التأويل » للقاسمي : (٨/١٢٠) .

المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب إلاَّ أن تفسيره لم يخل من الإسرائيليات وكذلك قصص الأنبياء المنسوب إليه -رحمه الله- إلاَّ أنه ينبه على حالها .

يقول الأستاذ محمد أبوشهبة - رحمه الله - : ومن خصائص هذا التفسير العظيم أنه يعتبر نسيج وحده في التنبيه على الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ، تارة يذكرها ويعقب عليها بأنها دخيلة على الرواية الإسلامية ويبيِّن أنها من الإسرائيليات المكذوبة ، وتارة لا يذكرها بل يشير إليها ويبين رأيه فيها ، وقد تأثر في هذا بشيخه الإمام ابن تيمية ، وزاد على ما ذكره كثيراً . وكل من جاء بعد ابن كثير من المفسرين ممن تنبه إلى الإسرائيليات والموضوعات وحذر منها هم عالة عليه في هذا ومدينون له فيها بهذا الفضل ، وقد تعقب ابن جرير على جلالته وتقدمه ؛ في بعض الإسرائيليات والموضوعات التي ذكرها في تفسيره ! ولا عجب في هذا فهو من مدرسة عُرفت بحفظ الحديث والعمل به روايةً ودرايةً وأصالة النقد ، والجمع بين المعقول والمنقول وهي مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ابن القيم والذهبي وابن كثير وأمثالهم ، فجزاه الله على صنيعه هذا خير الجزاء [1] .

ويقول العلامة أحمد شاكر صاحب «عمدة التفاسير» وهو مختصر لتفسير ابن كثير مبيناً منهجه في الاختصار :

« نفيت عن كتابي هذا كل الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها فإن المؤلف (رحمه الله) قد جَدَبَها [2] في مواضع كثيرة من تفسيره ، وأبان عن خَطَلِها وضررها ، وأنحى باللائمة على روايتها ورواتها ، ورسم لنفسه خطة في شأنها ، ومع ذلك فإنه - فيما يبدو لي - لم يستطع أن يسير على ما رسم، وغلبه ما وجد من الروايات في كثير من

(١) باختصار من « الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير » : (١٨٢ ، ١٨٣) ، مجمع البحوث الإسلامية .
(٢) أي : ذمَّها وعابها .

المواطن فأثبت طائفة منها غير قليلة فحذفتها كلّها والحمد لله »[1] .

ولاشكَّ أن أكثر هذه الإسرائيليات في كتب التفاسير إنما هي في القصص ؛ حيث إنه من أخصب المجالات لذكر العجائب والغرائب التي عند أهل الكتاب ، خاصة مع العلم بأن كثيراً من هذا القصص مروي في كتبهم التي حرّفوها وزادوا فيها ونقصوا منها .

يقول العلامة أبو شهبة – رحمه الله –: وقد جاء في كتب التفسير على اختلاف مناهجها إسرائيليات كواذب ومرويّات بواطل ، لا يحصيها العدُّ وذلك فيما يتعلق بقصص الأنبياء والمرسلين والأمم والأقوام السابقين وقد رويت عن بعض الصحابة والتابعين وتابعيهم وورد بعضها مرفوعاً إلى النَّبيِّ ﷺ كذباً وزوراً .

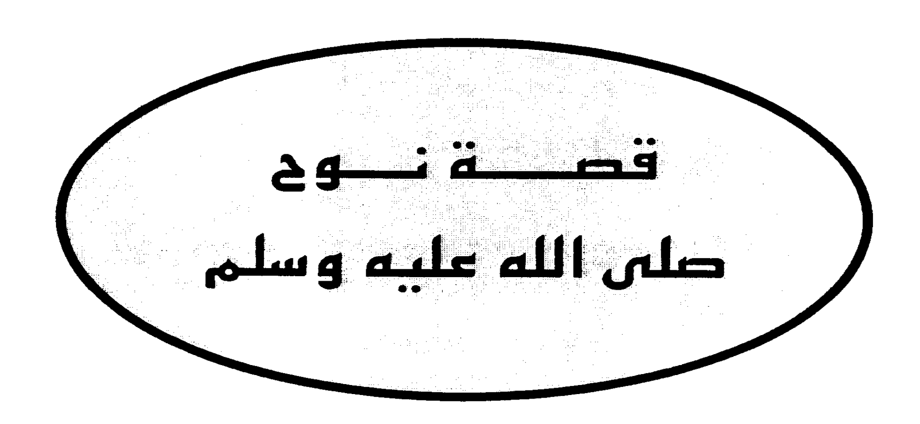
وهذه المرويّات والحكايات لا تَمُتّ إلى الإسلام ، وإنما هي من خرافات بني إسرائيل وأكاذيبهم وافتراءاتهم على الله وعلى رسوله [2] .

وبهذا الكلام انتهت المقدمة نسأل الله تعالى حسن الخاتمة .

---

(١) « عمدة التفاسير » : ص (٩) في المقدمة وبالنسبة للإسرائيليات التي نقلها ابن كثير فلعله ذكرها للتنبيه عليها والتحذير منها وذلك لكثرة ورودها في أكثر التفاسير والسير، والدليل على ذلك أنه ينبه على بطلانها وكذبها غالباً ، والذي يتعجب منه هو الأسماء والتفصيلات التي ذكرت في القصص ، ولم ترد في كتاب الله ولا صحَّت بها سنَّة رسول الله ﷺ ، ولا نعلم للغيب مصدراً ثالثاً فمن أين أخذها إذاً مَنْ ذكرها ، وقد تعمدت في هذا القصص عدم ذكر شيء من ذلك ، إلاَّ ما قصه الله – عزَّ وجل – علينا ، أو صحَّ في سنَّة النَّبيِّ ﷺ ، مع العلم بأن تفسيره وتاريخه من أقرب المصنفات وأنفعها وأكثرها بركة ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير ، وغفر لنا وله ما زلَّ به القلم .

(٢) « الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير » (٢٤٩ ، ٢٥٠) .


قصة نوح
صلى الله عليه وسلم

فضائل نوح - عليه السلام -

(١) ثناء الله – عزَّ وجل – عليه :

قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] .

قال القاسمي : أي : لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذي ينبغي، وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحثٌّ للذرية على الاقتداء به (١)

وقال الزمخشري : قيل : كان إذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني ، ولو شاء أجاعني ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني ، ولو شاء أظمأني ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني (٢) .

وقال ابن كثير : والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبيَّة والقوليَّة والعمليَّة فإن الشكر يكون بهذا وبهذا (٣).

(٢) أول رسول للبشر :

فقد كان بينه وبين آدم عشرة قرون كلهم على التوحيد ، ولذا قال الله – عزَّ وجل – : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:١٧] .

عن أبي هريرة – رضى الله – عنه في حديث الشفاعة وفيه : « **فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسمَّاك الله عبداً شكوراً أمَا ترى إلى ما نحن فيه** » (٤) .

(١) « محاسن التأويل » (٢٠١/١٠) .

(٢) « الكشاف » : (٦٤٨/٢) باختصار .

(٣) « قصص الأنبياء » : ص (٩١) .

(٤) الحديث مخرَّج في الكتب الستة بألفاظ وطرق وهو في البخاري : (٣٧١/١٣) التوحيد ، ومسلم : (٣/٥٣ – ٦٠) الإيمان .

قال الحافظ : فأما كونه أول الرسل فقد استشكل بأن آدم كان نبيا ، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة ، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه ، فعلى هذا فهو رسول إليهم ، فيكون هو أول رسول ، فيحتمل أن تكون الأولية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم إلى أهل الأرض ؛ لأنه في زمن آدم لم يكن للأرض أهل ، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد ، واستشكله بعضهم بإدريس ، ولا يرد لأنه اختلف في كونه جد نُوح كما تقدم (١) .

(٣) أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب :

قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣]، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٧] .

قال أبو السعود : وتخصيصهم بالذكر يعني قوله : ﴿ وَمِنكَ ﴾ إلخ مع اندراجهم في النبيين للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم ، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع ، وأساطين أولي العزم ، وتقديم نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام لإبانة خطره الجليل (٢) .

(٤) استجاب الله (عزَّ وجلَّ) دعاءه ونجاه من الكرب العظيم وجعل ذريته هم الباقين :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ

(١) باختصار من «فتح الباري» : (٦/٣٧٢ ، ٣٧٣) .
(٢) نقلاً عن «محاسن التأويل» : (١٤/٢٣٠) .

الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ [الصافات : ٧٥-٨٢] .

قال الألوسي : ونداؤه عليه السلام يتضمن الدعاء على كفّار قومه وسؤاله النجاة وطلب النصرة . وقوله : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُون ﴾ قال : تالله لقد دعانا نوح حين أيس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقاباً ودهوراً ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً ، فأجبناه أحسن الإجابة ، فوالله لنعم المجيبون نحن . وقوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الغرق . ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِين ﴾ حيث أهكلنا الكفرة بموجب دعائه ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [نوح : ٢٦].

وقد روي أنه مات كل من في السفينة ولم يعقبوا عقبا باقياً غير أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم، فإنهم بقوا متناسلين إلى يوم القيامة .

أخرج الترمذي وحسنه وابن سعد وأحمد وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن سمرة أن النَّبيَّ ﷺ قال : « **سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم** » .

وعلى كون الناس كلهم من ذرية (عليه السلام) استدل بعضهم بالآية. وقالت فرقة : أبقى الله تعالى ذرية نوح (عليه السلام) ومدَّ في نسله وليس الناس منحصرين في نسله ، بل من الأمم مَنْ لا يرجع إليه. حكاه في «البحر» .

قال : والحصر في الآية بالنسبة إلى مَنْ في السفينة ، وهو لا يستلزم عدم بقاء ذرية مَنْ لم يكن معه ، وكان في بعض الأقطار الشاسعة التي لم تصل

إليها الدعوة، ولم يستوجب أهلها الغرق كأصل الصين كما يزعمون [١].

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:٧٨ – ٨١].

قال الزمخشري: معناه: الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبَّت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين؛ يسلمون عليه عن آخرهم، علَّل مجازاة نوح – عليه السلام – بتلك الكرامة السَّنيَّة من تبقية ذكره وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدَّهر بأنه كان محسناً، ثم علَّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ ليُريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه [٢].

(٥) جعل الله في ذريته النّبوّة والكتاب:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد: ٢٦].

قال ابن كثير – رحمه الله –: يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبيّاً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشرٍ من بعده إلاَّ وهو من سلالته [٣].

---

(١) «روح المعاني»: (٢٣ / ٩٨) باختصار.
(٢) «الكشاف»: (٤ / ٤٨).
(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣١٥).

دعوته عليه السلام وصبره على تكذيب قومه وعنادهم :

كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلها على التوحيد ، كما في صحيح الحديث عن ابن عباس قال : «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام» (١) ، والمراد بالقرن : الجيل كما قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] وقيل : المراد بالقرن مائة سنة . ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أنْ آل الحال بأهل هذا الزمان إلى عبادة الأصنام .

عن ابن عباس – رضى الله عنهما – في تفسير « وَدّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر» : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم عُبِدت » (٢) .

قال الحافظ : وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ، ثم تبعهم مَنْ بعدَهم على ذلك (٣) .

قال تعالى في سورة نوح (٤) : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح : ١-٤] .

قال ابن كثير (رحمه الله) : يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم (٥) .

---

(١) رواه الحاكم (٤٤٢/٢) عن ابن عباس موقوفاً وصححه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه البخاري : (٦٦٧/٨) التفسير .

(٣) «فتح الباري» : (٦٦٩/٨) .

(٤) قال القاسمي : قال المهايمى : سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . « محاسن التأويل » (١٦ : ٢٩٢) .

(٥) « تفسير القرآن الكريم » : (٤٥٢/٤) .

قال سيد قطب – رحمه الله –: في هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق ثم تفترق بعد ذلك في التفصيل والتفريع .

وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق . وتقوى الله هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج ، وعدم التلفت هنا أو هناك .

وطاعة الرسول ﷺ هي الوسيلة للاستقامة على الطريق ، وتلقي الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية . وقد وعدهم عليها ما وعد به التائبين الثائبين : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هي المغفرة والتخلص من الذنوب التي سلفت ، وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له في علم الله وهو اليوم الآخر ، وعدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال .

ثم بيّن لهم أن ذلك الأجل المضروب حتمي يجيء في موعده ، ولا يُؤخر كما يُؤخر عذاب الدنيا فقال:﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وها هو نوح – عليه السلام – يرفع تقريراً إلى ربّه الكريم عن دعوته ، يقول تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ . **قال القاسمي :** ﴿ قَالَ ﴾ أي : نوح بعد أن بذل غاية الجهد وضاقت عليه الحِيَلُ ، في تلك المدد الطوال ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ﴾ أي: إلى التوحيد والعمل الصالح ﴿ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي : دائماً بلا فتور ولا توان ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي : من الحق الذي أرسلتني به ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الإيمان ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ أي : سدُّوا مسامعهم من

---

(١) « في ظلال القرآن » (٥/٣٧١١ ، ٣٧١٢) باختصار .

استماع الدَّعوة ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي : تغطَّوا بها من كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في الدِّين ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أي : على الشرِّ والكفر ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أي : تعاظموا عن الإذعان للحقِّ وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة [1] .

قال تعالى حاكياً عن نوح - عليه السلام - : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ .

قال الزمخشري : قد فعل - عليه الصلاة والسلام - كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السِّرِّ ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان ، ومعنى ﴿ ثُمَّ ﴾ الدالة على تباعد الأحوال لأن الجهر أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما [2] .

قال الألوسي : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ بالتَّوبة عن الكفر والمعاصي فإنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به وقال : ﴿ رَبَّكُمْ ﴾ تحريكاً لداعي الاستغفار ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ دائم المغفرة كثيرها للتَّائبين ، كأنهم تعلَّلوا وقالوا : إنْ كنَّا على الحقِّ فكيف نتركه ، وإنْ كنَّا على الباطل فكيف يقبلنا ويلطف بنا - جَلَّ وَعَلاَ - بعد ما عكفنا عليه دهراً طويلاً ، فأمرهم بما يمحق ما سلف من المعاصي ، ويجلب إليهم المنافع ، ولذلك وعدهم على الاستغفار بأمور هي أحبّ إليهم وأوقع في قلوبهم من الأمور الأخرويَّة أعني ما تضمَّنه ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ إلخ وأحبيّتهم لذلك لما جبلوا عليه من محبَّة الأمور الدنيويَّة - والنفس مولعة بحبِّ العاجل - قال قتادة : كانوا أهل حبٍّ للدنيا فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق

---

(١) «محاسن التأويل» : (٩/٢٩٤) .
(٢) «الكشاف» : (٤/٦١٦) .

التي يحبُّونها ، وقيل : لما كذبوه – عليه الصلاة السلام – بعد تكرير الدَّعوة حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة وقيل : سبعين سنة فوعدهم أنهم إن آمنوا يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع عنهم ما هم فيه وهو قوله : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ (١) .

قال ابن كثير – رحمه الله –: وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] ، أي : ومع هذه المدَّة الطويلة فما آمن به إلاَّ القليل منهم .

وكان كلَّما انقرض جيل وَصَّوا مَنْ بعدهم بعدم الإيمان به ، ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصَّاه فيما بينه وبينه ألاَّ يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي . وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ولهذا قال : ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧] .

و﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هود : ٣٢ ، ٣٣] أي : إنما يقدر على ذلك الله – عزَّ وجلَّ – فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر، بل هو الذي يقول للشيء : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤] ، أي : من يرد فتنته فلن يملك أحدٌ هدايته ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعَّال لما يريد، وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجَّة الدامغة (٢) .

---

(١) « روح المعاني » : (٢٩ / ٧٢) .

(٢) « قصص الأنبياء » : (٧٤ ، ٧٥) .

الفوائد والآثار الإيمانية .

قال العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي :

يستفاد من هذه القصة أمور :

(١) **منها : أن جميع الرسل من نوح إلى محمد – صلى الله عليهم وسلم – متفقون على الدّعوة إلى التّوحيد الخالص والنهى عن الشرك ،** فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] . ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة .

(٢) **ومنها : آداب الدّعوة وتمامها ،** فإن نوحاً دعا قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ، بكلّ وقت وبكلّ حالة يظن فيها نجاح الدعوة ، وأنه رغّبهم بالثواب العاجل بالسّلامة من العقاب وبالتمتع بالأموال والبنين وإدرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل وحذّرهم من ضدّ ذلك ، وصبر على هذا صبرا عظيما كغيره من الرسل ، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة وبكلّ لفظٍ جاذب للقلوب محصل للمطلوب ، وأقام الآيات وبيّن البراهين .

(٣) **ومنها : أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التّام لله تعالى في عبوديتهم لله القاصرة ، وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق** كالدّعوة والتّعليم وتوابع ذلك ، ولذلك يبدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول : ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [هود : ٥١] .

ولهذا كان من أجل الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة ، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة

أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا[١].

(٤) **قال القرطبي – رحمه الله – : في هذه الآية :** ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ [نوح : ١٠] والتي في هود ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٢] **دليل على أن الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار .**

قال الشعبي : خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فأمطروا فقالوا : ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يُستنزل بها المطر ثم قرأ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾[٢].

وقال ابن صبيح : شكا رجلٌ إلى الحسن الجدوبة ؛ فقال له : استغفر الله ، وشكا آخر إليه الفقر ؛ فقال له : استغفر الله ، وقال له آخر : ادع الله أن يرزقني ولداً ؛ فقال له : استغفر الله ، وشكا له آخر جفاف بستانه ؛ فقال له : استغفر الله ، فقلنا له في ذلك ؛ فقال : ما قلت من عندي شيئاً إن الله تعالى يقول في سورة نوح : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ... ﴾ الآية [٣] .

(٥) **قال الحافظ في « فتح الباري » :** حكى الواقدي قال : كان « ودٌّ » على صورة رجل ، و « سواع » على صورة امرأة ، و « يغوث » على صورة أسد ، و « يعوق » على صورة فرس ، و « نسر » على صورة طائر وهذا شاذ والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر وهو مقتضى ما تقدم من الآثار في سبب عبادتها [٤] .

---

(١) « تفسير اللطيف المنان » : (١٠٩–١١١) باختصار .

(٢) أخرجه البيهقي (٣/٣٥١،٣٥٢) وغيره، وضعفه العلامة الألباني في الإرواء (رقم : ٦٧٣).

(٣) « الجامع لأحكام القرآن » باختصار : (٨/٦٧٨١) .

(٤) « فتح الباري » : (٨/٦٦٩) .

(٦) قال ابن القيم (رحمه الله) : أول ما كاد به الشيطان عبَّاد الأصنام من جهة العكوفِ على القبور وتصاوير أهلها ليتذكروهم بها ، كما قصَّ الله سبحانه قصصهم في كتابه فقال : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ.. ﴾ [نوح : ٢٣] .

ثم قال : وتلاعُب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعَب بكلِّ قومٍ على قدر عقولهم ، فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدم في قوم نوح – عليه السلام –؛ ولهذا لعن النَّبيُّ ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسُّرج ، ونهى عن الصَّلاة إلى القبور وسأل ربَّه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كلّه [١] .

دعاء نوح – عليه السلام – على قومه واستجابة الله – عز وجل – له وهلاك الكافرين

قال تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ

---

(١) باختصار من « إغاثة اللهفان » : (٢ / ٢١٨ ومابعدها) .

وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : ٣٦ – ٤٨]

قال ابن كثير – رحمه الله – : وهذه تعزية لنوح – عليه السلام – أنه لن يؤمن منهم إلا مَنْ قد آمن ، أي : لا يسوءنّك ما جرى فإن النَّصرَ قريبٌ ، والنَّبأ عجبٌ عجيب . ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ . وذلك أن نوحاً – عليه السلام – لَمّا يئس من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال ، دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم ، فلبى دعوته وأجاب طلبه : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٥ ، ٧٦] . ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : ٢٦ ، ٢٧] ، فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم [1] .

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

(١) « قصص الأنبياء » : (٧٥ ، ٧٦) .

قال صاحب المنار : وطفق يصنع الفلك كما أُمِرَ ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ استهزؤوا به وضحكوا منه وتنادوا عليه لحساباتهم أنه مصاب بالهوس والجنون ، ورُوي أنهم كانوا يسألونه عمَّا يصنع فيجيبهم أنه يصنع بيتاً يمشي على الماء ، ولم يكن هذا معروفاً ولا متصوراً ، وقلَّ أن يسبق أحدٌ أهل عصره بما هو فوق عقولهم ، ومداركهم من قول أو عمل إلا سخروا منه قبل أن يتم له النجاح فيه . ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ أي : نسخر منكم اليوم لجهلكم وغداً لما يحل عليكم ، فإن كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل وبما سيكون من عاقبة أمرنا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بعد تمامه ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي : يذله ويجلب له العار والتبار في الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ بعد ذلك في الآخرة فيكون عذاب الدنيا هيِّناً بالإضافة إليه لانقضاء هذا وزواله بهلاككم وبقاء ذلك ودوامه بدوامكم (1) .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

قال القرطبي : اختلف في التنور على أقوال سبعة :

الأول : وجه الأرض .　　　الثاني : أنه تنور الخبز الذي يخبر فيه .

الثالث : أنه موضع اجتماع الماء في السفينة .　الرابع : أنه طلوع الفجر .

الخامس : أنه مسجد الكوفة .

السادس : أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة منها .

السابع : أنه العين التي بالجزيرة .

---

(1) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا : (١٢ / ٧٤) باختصار .

قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن الله - عزَّ وجلَّ- أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر : ١١، ١٢] فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة ، والفوران : الغليان. ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ يعني : ذكراً وأنثى لبقاء أصل النسل [١] .

﴿ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ منهم ﴾

قال الشيخ محمد رشيد رضا : أي : واحمل فيها أهل بيتك ذكوراً وإناثاً ، وأهل بيت الرجل عند الإطلاق نساؤه وأولاده وأزواجهم والظاهر أن المستثنى منهم كفارهم إن كان فيهم كفار لأنهم يدخلون في عموم قوله : ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [٢] .

قال ابن كثير : وقدم الله تعالى إليه إذا جاء أمره وحلَّ بهم بأسه الذي لا يُرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعلَّه قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة [٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

قال في « المنار »: ولم يبين الله تعالى ولا رسوله عددهم فكل ما قاله المفسرون فيهم مردود لا دليل عليه كما قال ابن جرير الطبري ، كما أنه لم يبين لنا أنواع الحيوانات التي حملها ، ولا كيف حملها وأدخلها السفينة ، وهي مفصَّلة في سفر التكوين ، وللمفسرين فيها إسرائيليات مضحكة تخالفها لا

---

(١) «تفسير القرطبي» : (٤/٣٢٦١ ، ٣٢٦٢) . (٢) «تفسير المنار» : (١٢/٧٦) .
(٣) «قصص الأنبياء» : (٧٦) .

ينبغي تضييع العمر في نقلها وإشغال القُرّاء بها [١] .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال الزمخشري : بمعنى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين باسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها ويُروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست . ويجوز أن يقحم الاسم كقوله : ثم اسم السلام عليكما . ويراد بالله إجراؤها وإرساؤها أي : بقدرته وأمره [٢] .

﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إيَّاكم لما نجَّاكم.

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

قال القاسمي – رحمه الله – : وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء، وتفجَّرت ينابيع الأرض ، تعاظمت المياه وعلت أكناف الأرض ، وارتفعت فوق الجبال الشامخة ، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ أي: في متنحى عن أبيه ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ﴾ أي : ادخل في ديننا واصحبنا في السفينة ﴿ وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي: في الدين والانعزال ، الهالكين . ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ أي: فلا أغرق . ﴿ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ أي : لا مانع اليوم من بلائه وهو الطوفان إلا الرَّاحم وهو الله تعالى ، أو لا عاصم إلا مكان من رحم وهم المؤمنون يعني السفينة ، أو لا عاصم بمعنى لا ذَا عصمة إلا مَنْ رحمه الله .

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ أي : الهالكين بالغرق ، وفيه دلالة

---

(١) « تفسير المنار » لمحمد رشيد رضا : (١٢ / ٧٦) .

(٢) « الكشاف » (٢/٣٩٥) باختصار .

على هلاك سائر الكفرة ، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع ، غير مفتقر إلى البيان [١] .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله –: يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلّهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها ، واجتمع عليها وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ أي : شرع في النقص ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أي : فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم دياراً ﴿ وَاسْتَوَتْ ﴾ السفينة بمن فيها ﴿ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ قال مجاهد : وهو جبل بالجزيرة [٢] .

وقال الزمخشري : وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنهم عقلاء مميزون قد عرفوا جلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث [٣] .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

قال القاسمي – رحمه الله –: إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة وتعطف الرحم والقرابة على طلب نجاته لشدة تعلقه به واهتمامه بأمره ، وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة وحسن السؤال ، فقال : ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَق ﴾ ولم يقل : لا تخلف

---

(١) «محاسن التأويل» : (١٢٤/٦) . (٢) «تفسير القرآن العظيم» : (٤٤٦/٢) .
(٣) «الكشاف» : (٣٩٧/٢ ، ٣٩٨) .
نقل الألوسي شيئاً من مزايا هذه الآية ونحن نذكر شيئاً من ذلك والله المستعان :

وعدك بإنجاء أهلي ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوي القرابة الصوريَّة والرَّحم النسبيَّة ، وغفل لفرط التأسف على ابنه عن استثنائه تعالى بقوله : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ ، ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول : فاستعطف ربَّه بالاسترحام وعرض بقوله : ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ إلى أن العَالِمَ العادل والحكيم لا يخلف وعده .

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي : الموعود إنجاؤهم بل من المستثنين لكفرهم أو ليس منهم أصلاً ؛ لأن مدار الأهليَّة هو القرابة الدينيَّة ولا علاقة بين المؤمن والكافر . ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ بيَّن انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح تنبيهاً على أن أهله هم الصلحاء أهل دينه وشريعته ، وإنه لتماديه في الفساد

= قال : وما ذكر في شرح مزايا هذه الآية بالنسبة إلى ما فيها قطرة من حياض وزهرة من رياض ، وقد ذكر ابن أبي الأصبع أن فيها عشرين ضرباً من البديع مع أنها سبع عشرة لفظة ، وذلك المناسبة التامة في ﴿ ابْلَعِي ﴾ و ﴿ أَقْلِعِي ﴾ والاستعارة فيهما ، والطباق بين الأرض والسماء ، والمجاز في : ﴿ وَيَا سَمَاءُ ﴾ فإن الحقيقة يا مطر السماء ، والإشارة في : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ فإنه عبر به عن معان كثيرة لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها ، فينقص ما على وجه الأرض والإرداف في : ﴿ وَاسْتَوَتْ ﴾ والتمثيل في : ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ ، والتعليل : فإن غيض الماء علَّة للاستواء ، وصحة التقسيم : فإنه استوعب أقسام الماء حال نقصه ، والاحتراس في الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك ، فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق ، وحسن النسق ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، والإيجاز : فإنه سبحانه قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة ، والتسهيم : لأن أول الآية يدل على آخرها ، والتهذيب: لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن ، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه ، والتمكين : لأن الفاصلة مستقرة في محلّها مطمئنة في مكانها ، والانسجام .
« روح المعاني » : (١٢/٦٧ ، ٦٨) باختصار .

والغي كأن نفسه عمل غير صالح ، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح لا قرابته منك بحسب الصورة فمن لا صلاح له لا نجاة له وهذا سرّ إيثار ﴿ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ على « عمل فاسد » .

وقد قرأ يعقوب والكسائي « عَمِلَ » بلفظ الماضي والباقون بلفظ المصدر بجعله نفس العمل مبالغة كما بيَّنَّا .

﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : لا تلتمس مني ملتمسا أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب .

﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياي ما لم تعلم وقد تنبَّه – عليه السلام – عند ذلك التأدُّب الإلهي والعتاب الربَّاني وتعوذ بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال الزمخشري : المعنى أن السَّلام منَّا والبركات عليك وعلى أُمَمٍ مؤمنين ينشئون ممن معك ، وممن معك أمم ممتَّعون بالدنيا منقلبون إلى النَّار ، وكان نوحٌ – عليه السلام – أبا الأنبياء ، والخلق بعدالطوفان منه وممن كان معه في السفينة[2] .

---

(١) « محاسن التأويل » : (١٣٢/٦ ، ١٣٣) باختصار .

(٢) « الكشاف » : (٤٠١/٢) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) قال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – : إن الوشيجة التي يتجمَّع عليها النَّاس في هذا الدِّين وشيجة فريدة تتميَّز بها طبيعة هذا الدِّين وتتعلَّق بآفاقٍ وآمادٍ وأبعادٍ وأهدافٍ يختصُّ بها ذلك المنهج الربَّاني الكريم .

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدَّم والنَّسب ، وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة ، إن هذه الوشائج جميعاً قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ، كما قال سبحانه وتعالى لعبده نوح – عليه السلام – ، وهو يقول : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ثم بيَّن له لماذا يكون ابنه ليس من أهله .. ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح : ﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطئ ، أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك [١] .

(٢) وقال – رحمه الله – : ثم نقفُ الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المؤمنة في ميزان الله سبحانه . إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح – عليه السلام – تذكر بعضُ الروايات أنهم اثنا عشر هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما يقرر المصدرُ الوحيد المستيقن الصحيح في هذا الشأن أن هذه الحفنة – وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل – قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء ، وكل حي

---

(١) «في ظلال القرآن» : (١٨٨٦/٤) .

في المعمور وقتها من الأرض ، وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها ، والاستخلاف من جديد [١] .

(٣) **قال القاسمي :** قال بعضهم « في تقرير عموم الطوفان مبرهناً عليه » : إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبة في طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد في أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى في قمم الجبال ، ويرى في السهول والمفاوز بقايا حيوانية ، ونباتية مختلطة بمواد بحرية بعضها ظاهر على سطحها وبعضها مدفون على مقربة منه ، واكتشف في الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بعيدة الائتلاف ، معها بقايا آلات صناعية وآثار بشرية ، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذلك المكان ، وجمعها قسراً فأبادها فتغلغلت بين طبقات الطّين ، فتحجّرت وظلّت شهادة على ما كان بأمر الخالق تعالى . انتهى [٢] .

(٤) **قال العلامة السعدي :** ينبغي الاستعانة بالله وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التّقلّبات والحركات ، وحمد الله والإكثار من ذكره عند النعم لاسيما النجاة من الكربات والمشقّات كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ وقال : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٨] وأنه أيضاً ينبغي الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة كالمنازل في إقامات السفر وغيره ، والمنازل المستقرة كالمساكن والدُّور لقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ وفي ذلك كله من استصحاب ذكر الله ومن القوة على الحركات والسكنات ، ومن قوة الثقة بالله ومن نزول بركة الله التي خير ما صحبت العبد في أحواله كلّها ما لا غنى للعبد عنه طرفة عين.

---

(١) «في ظلال القرآن» : (١٨٩٢/٤) باختصار . (٢) «محاسن التأويل» : (١٣٥/٦)

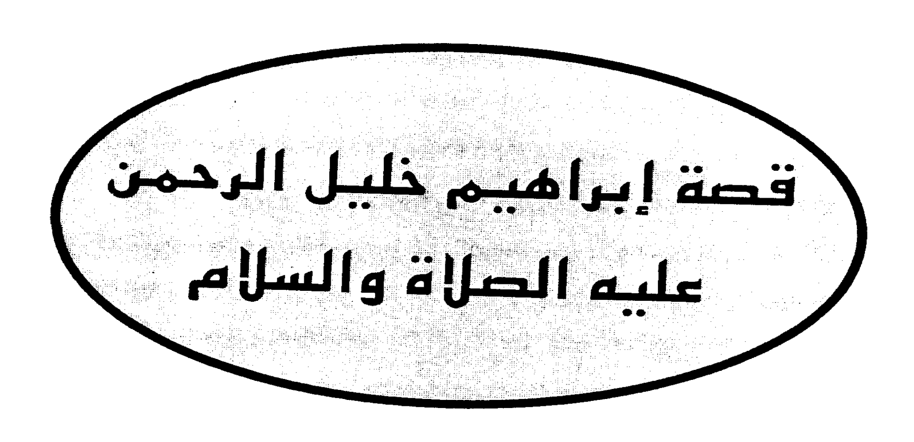
(٥) ومما يستفاد من قصة نوح : أن النَّجاةَ من العقوبات العامَّة الدنيويَّة هي للمؤمنين وهم الرسل وأتباعهم ، وأما العقوبات الدنيويَّة العامَّة فإنها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان وإن لم يكن لها ذنوب لأن الوقائع التي أوقع الله بأصناف المكذبين شملت الأطفال والبهائم ، وأما ما يذكر في بعض الإسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم ، فهذا ليس له أصل وهو مناف للأمر المعلوم ، وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥] [١] .

(٦) قال العلامة محمد رشيد رضا : إن الله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسابهم ، ولا يحابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين ، وإن من سأله من هؤلاء الآباء ما يخالف سننه في شرعه وحكمته في نظام خلقه ؛ كان مذنباً يستحق التأديب حتى يتوب وينيب [٢] .

(٧) قال القرطبي في هذه الآية : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين وفيها أيضا دليل على أن الابن من الأهل لغةً وشرعاً ومن أهل البيت فمن وصى لأهله دَخَل في ذلك ابنه ومن تضمنه منزله وهو في عياله وقال تعالى في آية أخرى :﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات:٧٥ ، ٧٦] فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله [٣] .

---

(١) « تفسير اللطيف المنان » (١١١ ، ١١٢) بتصرُّف .
(٢) « تفسير المنار » (١٢ / ٨٧)
(٣) « الجامع لأحكام القرآن » : (٤/ ٣٢٧٥) بتصرُّف .


قصة إبراهيم خليل الرحمن
عليه الصلاة والسلام

فضائل إبراهيم - صلى الله عليه وسلم -(١)

(١) ثناء الله عليه : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠-١٢٣] .

وقوله : ﴿ أُمَّةً ﴾ أي : قدوة وإماماً كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] . قال القاسمي : أو كان وحده أمةً من الأمم لاستجماعه كمالات لا توجد في غيره (٢) .

﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ أي : خاشعاً مطيعاً له قائماً بما أمره .

﴿ حَنِيفًا ﴾ أي : مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق .

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾ أي : قائماً بشكر نعم الله عليه.

﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي .

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي : من الذكر الجميل كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[الصافات : ١٠٨ ، ١٠٩]

﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : الذين لهم الدرجات العالية في الجنة

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . . . ﴾ بيان بأن أشرف ما أوتي خليل الله

(١) قال الحافظ : إبراهيم بالسريانية معناه أب راحم ، فتح الباري : (٦/٣٨٩).
(٢) «تفسير القاسمي» : (٦/١٧٤) .

إبراهيم – صلى الله عليه وسلم – من الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته.أفاده الزمخشري .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

قال ابن كثير – رحمه الله –: فبين أنه كان على دين الله الحنيف ، وهو القصد إلى الإخلاص ، والانحراف عمداً عن الباطل إلى الحق ، الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية [١] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾[النجم: ٣٧] قالوا : في جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشُعَبه .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤].

قال القرطبي : اختلف العلماء في المراد بالكلمات على أقوال : أحدها شرائع الإسلام ، وقال بعضهم : بالأمر والنهي ، وقال بعضهم : بذبح ابنه ، وقال بعضهم : بأداء الرسالة . قال: والمعنى متقارب [٢]

وقال ابن كثير –رحمه الله –: لما وفى ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة؛ جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه ، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه ، وباقية في نسبه ، وخالدة في عقبه، فأجيب إلى ما سأل ورام وسُلِّمَت إليه الإمامة بزمام ، واختص من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون [٣].

---

(١) «قصص الأنبياء» (١٧٧) (٢) «تفسير القرطبي» : (٤٨٤/١) باختصار.
(٣) «قصص الأنبياء» . (١٧٤) .

(٢) هو أحد أولي العزم من الرسل المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى :

قال ابن كثير ما ملخصه : ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ، وهو الذي وجده – عليه السلام – في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم [١] . وكذلك حديث أبي بن كعب : « **وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم** » [٢].

ولما كان إبراهيم أفضل أولي العزم من الرسل بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره قال : قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك قال : « **قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد** » [٣] . ثم هو ﷺ أشبه الأنبياء بنبينا ﷺ كما في صحيح البخاري : « **أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم** » [٤] يعني نفسه ﷺ .

(٣) ومن فضائله ﷺ أنه خليل الرحمن وقد شاركه في ذلك نبينا ﷺ قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ

---

(١) السابق : (١٨١) باختصار .

(٢) رواه مسلم : (٦/١٠٢، ١٠٣) صلاة المسافرين ، وأحمد : (٥/١٢٩).

(٣) رواه البخاري: (١١/١٥٢) الدعوات ، ومسلم : (٤/١٢٦) الصلاة ، والترمذي : (٢/٢٦٨) الصلاة ، وأبو داود : (٩٦٣) الصلاة ، والنسائي : (٣/٤٧) السهو .

(٤) « فتح الباري شرح صحيح البخاري »: (٦/٤٨٥، ٤٨٦) . وتقدم في ص (٢٥) .

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٥] .

والخلة هي غاية المحبة ، وقد قال النبي ﷺ : « **أيها الناس لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام** »[١] .

(٤) **ومن فضائله ﷺ أن الله عز وجل جعل في ذريته النبوة والكتاب :**

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤-٨٦] . وجمع في هذه الفضيلة بين نوح وإبراهيم فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد : ٢٦] .

قال ابن كثير – رحمه الله –: فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته ، وهذه خلعة سنية لا تضاهى ، ومرتبة علية لا تباهى ، وذلك أنه ولد لصلبه ولدان ذكران عظيمان : إسماعيل من هاجر ، ثم إسحاق من سارة ، وولد له يعقوب – وهو إسرائيل – الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى خُتموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل .

وأما إسماعيل – عليه السلام – فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم ،

(١) رواه البخاري : (١٢/٧) فضائل الصحابة ، ومسلم: (١٥/١٥٠ ، ١٥١) الفضائل .

وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبدالله . فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة ، والعبرة الزاهرة ، وواسطة العقد الفاخرة (١) .

(٥) ومن فضائله ﷺ أنه أول من يكسى يوم القيامة :

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال : « **إنكم مَحْشُورُونَ** حفاة عراة **غرلاً ، ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾** [الأنبياء : ١٠٤] « **وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم** » (٢) .

قال الحافظ : يقال : إن الحكمة في خصوصية إبراهيم بذلك لكونه ألقي في النار عرياناً ، وقيل : لأنه أول من لبس السراويل ، ولا يلزم من خصوصيته – عليه السلام – بذلك تفضيله على نبينا محمد ﷺ ؛ لأن المفضول قد يمتاز بشيء يخص به ولا يلزم منه الفضيلة المطلقة ، إلى أن قال : وقد ثبت لإبراهيم – عليه السلام – أوليات أخرى كثيرة : منها أول من ضاف الضيف ، وقص الشارب ، واختتن ، ورأى الشيب ، وغير ذلك (٣) .

(٦) ومن فضائله ﷺ : أنه لم يكذب إلا ثلاث كذبات ثنتين منهنَّ في ذات الله :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « **لم يكذب إبراهيم – عليه السلام – إلا ثلاث كذبات** » (٤) .

---

(١) باختصار من « قصص الأنبياء » (١٧٥) .
(٢) رواه البخاري : (٣٨٦/٦) الأنبياء ، ومسلم : (١٩٣/١٨، ١٩٤) فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، والترمذي : (٢٥٦/٩) أبواب صفة القيامة ، والنسائي : (١١٤/٤) الجنائز .
(٣) باختصار من « فتح الباري » : (٣٩٠/٦) .
(٤) رواه البخاري : (٣٨٨/٦) الأنبياء .
والعجيب من صاحب « الظلال » – رحمه الله – يقول : (فلا داعي لتسمية هذه كذبة

قال الحافظ : وقد أورد على هذا الحصر ما رواه مسلم من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل فقال في قصة إبراهيم وذكر كذباته ، ثم ساقه من طريق أخرى من هذا الوجه وقال في آخره : وزاد في قصة إبراهيم . وذكر قوله في الكوكب ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام : ٧٦] . وقوله لآلهتهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] . وقوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[الصافات : ٨٩] انتهى .

قال القرطبي : ذكر الكوكب يقتضي أنها أربع ، وقد جاء في رواية ابن سيرين بصيغة الحصر فيحتاج في ذكر الكوكب إلى تأويل .

قلت : والذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة فإنه ذكر قوله في الكوكب بدل قوله في سارة ، والذي اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب ، وكأنه لم يعد مع أنه أدخل من ذكر سارة لما نقل أنه قاله في حال الطفولية فلم يعدها لأن حال الطفولية ليست بحال تكليف ، وهذه

من إبراهيم – عليه السلام – والبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون) (٤ / ٢٣٨٧) دار العلم للطباعة .

فكيف لا داعي لتسميتها كذبة وقد سماها النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم –كذبة وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم – عليه السلام – إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله – عز وجل – : قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقال: وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال : أختي. فأتى سارة ، قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني ....» .

الحديث رواه البخاري : (٣٨٨/٦) الأنبياء ، ومسلم : (١٢٣/١٥) الفضائل .

طريقة ابن إسحاق . وقيل : إنما قال ذلك بعد البلوغ لكنه قاله على طريق الاستفهام الذي يقصد به التوبيخ ، وقيل : قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيهاً على أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية ، وهذا قول الأكثر أنه قاله توبيخاً لقومه ، أو تهكماً بهم وهو المعتمد ؛ ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات . وأما إطلاق الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً ، لكنه إذا حقق لم يكن كذباً ، لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض .

وقال ابن عقيل : دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم ، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله تعالى ، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه ، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع ، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم – عليه السلام – يعني إطلاق الكذب على ذلك – إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه ، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز وقد يجب ، لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما، وأما تسميتها كذبات فلا يريد أنها تذم ، فإن الكذب وإن كان قبيحاً مخلاً لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها [1] .

وقال النووي : وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفياً ليقتله ، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً ، وسأل عن ذلك ، وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به ، وهذا كذب جائز بل واجب ، لكونه في دفع الظالم ، فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلة في مطلق الكذب المذموم [2] .

---

(١) باختصار من « الفتح » : (٦/٣٩١ ، ٣٩٢) .

(٢) « شرح النووي على صحيح مسلم » : (١٥/١٢٤) .

(٧) ومن فضائله ﷺ ما رواه أنس بن مالك ، قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا خير البرية ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك إبراهيم » [(١)] .

قال النووي – رحمه الله –: وإنما قال ﷺ هذا تواضعاً واحتراماً لإبراهيم – صلى الله عليه وسلم – لخلته وأبوّته وإلا فنبينا ﷺ أفضل كما قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم» ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول على من تقدمه بل قاله بياناً لما أمر ببيانه وتبليغه ، ولهذا قال ﷺ : « ولا فخر » ؛ لينفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة .

وقيل: يحتمل أنه ﷺ قال : « إبراهيم خير البرية » ، قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم [(٢)] .

(٨) ومن فضائله أن الله عز وجل رفعه بالعلم واليقين وقوة الحجج .

قال جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

ومن شوقه إلى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أنه سأل ربه فقال :

﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [(٣)] [البقرة : ٢٦٠] .

---

(١) رواه مسلم : (١٥/١٢١) الفضائل .
(٢) « شرح النووي على صحيح مسلم » : (١٥/١٢٣) .
(٣) « تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن » للعلامة السعدي: (١٢٢) بتصرف .

(٩) ومن فضائله أن الله عز وجل أوجب علينا اتباع ملته ولزوم طريقته.

قال العلامة محمد بن ناصر السعدي – رحمه الله – : ليعلم أن جميع ما قصه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل ﷺ فإننا مأمورون به أمراً خاصاً، قال تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] أي : الزموها ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٣] ، ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ الآية [1] [الممتحنة : ٤] .

وهذا عدا قوله لأبيه الكافر : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

أي : فلا تقتدوا به في هذا الحال بالاستغفار للمشركين فإن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان ﴿ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[2] [التوبة : ١١٤] .

(١٠) ومن فضائله ﷺ أن الله عز وجل اصطفاه هو وولده إسماعيل لبناء البيت العتيق واستجاب الله عز وجل دعاءه وحقق في أمة المصطفى ﷺ رجاءه .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام ، ومن تمسك في هذا بقوله : ﴿ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج : ٢٦] فليس بناهض ولا ظاهر ؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم ، وقد قال

(١ ، ٢) « تيسير اللطيف المنان » للعلامة السعدي : (١٢٢) بتصرف يسير .

الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] أي : أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى ، البيت الذي ببكة ، وقيل : محل الكعبة .

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ أي : على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده ، وإمام الحنفاء من ولده ، الذين يقتدون به ، ويتمسكون بسنته ، ولهذا قال : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي : الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء .

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع ودعا لأهله بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرماً محرماً وآمنا محتماً فاستجاب الله له — وله الحمد — مسألته ولبى دعوته وآتاه طلبته فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص:٥٧] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم أي : من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية بسعادة الأولى والآخرة .

وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولاً وأي رسول ، ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله (١) .

** **

(١) باختصار من « قصص الأنبياء » للحافظ ابن كثير : (١٦٩-١٧٢) .

١- دعوة إبراهيم - عليه السلام - لأبيه :

بدأ الخليل عليه السلام دعوته إلى الله – عز وجل – بدعوة أبيه لأنه أقرب الناس إليه وأولى الناس بما عنده من خير ، وهذا ما فعله رسولنا ﷺ وقد نزل عليه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وكان في دعوته إياه مراعياً آداب النصيحة ، وحسن الأدب مع الكبير ، قوي الحجة ، صابراً محتسباً كل أذى يلقاه في سبيل تبليغ دعوته ، فليتأس الدعاة بذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم : ٤١ ، ٤٢] .

قال أبوالسعود : ولقد سلك – عليه السلام – في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل ، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل ، لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد (١) .

فإذا كان المعبود لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عابده شيئاً فما الفائدة من عبادته ، وهو أنقص وأعجز ممن عبده ، وهذا من أقوى الأدلة على بطلان هذه العبادة ، ثم لما فند عبادته وسعيه كأنه قال : وكيف الطريق إذاً؟ فقال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ٤٣] .

قال الزمخشري : ثنى – عليه السلام – بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً ،فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم ، وشيئاً منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السَّوي ، فلا تستنكف ، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك ، فاتبعني أُنْجِكَ من أن تضل وتتيه (٢) .

ثم قال :﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم : ٤٤]

---

(١) نقلاً عن « محاسن التأويل » : (١٢٨/٧ ، ١٢٩) . (٢) « الكشاف » : (١٩/٣) .

قال القاسمي : ثلث – عليه السلام – بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان [1] .

ثم قال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٥] .

قال الزمخشري : ربع عليه السلام – بتخويفه سوء العاقبة ، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب ؛ حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال: ﴿ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ ﴾ فذكر الخوف والمس ونكر العذاب ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب ، وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً [2] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[مريم: ٤٦] .

قال الشنقيطي – رحمه الله –: بيّن الله – جل وعلا – في هاتين الآيتين الكريمتين: أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ، ومن عذاب الله تعالى وولاية الشيطان ، خاطبه هذا الخطاب العنيف وسماه باسمه ، ولم يقل له يا بني في مقابلة قوله له : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ ، وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان أي : معرض عنها لا يريدها ، لأنه لا يعبد إلا الله وحده – جل وعلا – ، وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمنه قيل : بالحجارة ، وقيل : باللسان شتماً والأول أظهر ، ثم أمره بهجره ملياً أي: زماناً طويلاً ، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضاً جوابه

(١) « محاسن التأويل » : (١٣٠/٧) باختصار . (٢) « الكشاف » : (٢٠/٣) .

العنيف بغاية الرفق واللين، في قوله : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [١] .

وقال ابن كثير – رحمه الله –: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ أي : لا يصلك مني مكروه ، ولا ينالك مني أذى ، بل أنت سالم من ناحيتي ، وزاده خيراً فقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال ابن عباس وغيره أي : لطيفا ، وقد استغفر له إبراهيم – عليه السلام – كما وعده في أدعيته فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [٢] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « **يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وَغَبَرَة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار** » [٣] .

قوله : «بذيخ» والذيخ ذَكَر الضبع .

قال الحافظ : قيل : الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم ، ولئلا يبقى في النار على صورته فيكون فيه غضاضة على إبراهيم .

وقيل : الحكمة في مسخه ضبعاً أن الضبع من أحمق الحيوان ، وآزر كان من أحمق البشر ؛ لأنه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البينات أصر على الكفر حتى مات ، ولأن إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح فأبى واستكبر وأصر على الكفر ، فعومل بصفة الذل يوم القيامة [٤].

---

(١) « أضواء البيان » (٤/٢٨٧) .
(٢) « قصص الأنبياء » : (١٣١) .
(٣) رواه البخاري : (٦/٣٨٧) الأنبياء
(٤) باختصار من « فتح الباري » (٨/٥٠٠)

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) البداية في الدعوة بالأقربين .

(٢) التلطف لهم في الدعوة وخفض الجناح وخاصة مع كبارهم سناً ومقاماً.

(٣) يتحمل من الأذى مع الأقارب ما لا يتحمل من غيرهم ، وذلك لمزيد حقهم والشفقة عليهم ، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه .

(٤) مقابلة الإساءة بالإحسان مما ينبغي أن يتسلح به الداعية الراشد فلا يستعمل من الكلام إلا ما طاب وحسن كما قال إبراهيم ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾ وزاده إحساناً ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ .

(٥) إبراهيم الخليل لا ينفع أباه يوم القيامة ولم ينقذه من النار فوجب على كل عبد أن يشتري نفسه من الله – عز وجل – وأن يعمل من الأعمال الصالحة ما يكون سبباً في دخوله جنة الله – عز وجل – كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

[المؤمنون : ١٠١] .

** **

٢ -دعـوتـه - عليه السلام - لقومـه مـن عبـاد الأصنـام :

لاشك أن إبراهيم – عليه السلام – من أقوى الأنبياء حجة .

قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وهو كذلك سليم القلب كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٣ ، ٨٤] .

والداعية إذا كان سليم القلب قوي الحجة فإنه يرجى أن ينفع الله به قال الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٩–٨٣] .

قال الزمخشري : كان إبراهيم – عليه السلام– يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء إلى أن قال :

لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم : رَقُّوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم فإن التقدم والأولية لا يكون برهاناً على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ، ومعنى العداوة قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ

بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨٢] ولأن المغري على عبادتهم أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان وإنما قال : ﴿ عَدُوٌّ لِّي ﴾ [الشعراء : ٧٦] تصويراً للمسألة في نفسه على معنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة مَنْ الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولاً ، وبنى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه أولاً وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ؛ ليكون أدعى لهم إلى القبول وأبعث على الاستماع منه ، ولو قال : فإنه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ؛ لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى التقبل [1] .

** **

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) التقليد من أعظم المشاكل والعقبات التي تواجه الداعية إلى الله -عز وجل- .

قال الزمخشري : ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل ، وعفروا لها جباههم وهم معتقدون أنهم على شيء وجادون في نصرة مذهبهم ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم .

(٢) في قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ البراءة من الآلهة الباطلة وإعلان الحرب عليها وبالغ إبراهيم – عليه السلام – في البراءة من الشرك والمشركين فقال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٧] .

(١) «الكشاف» : (٣١٨/٣) .

٣ - مناظرته - عليه السلام - لقومه من عباد الكواكب :

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥-٧٩] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله - عز وجل - ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

إلى أن قال : والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران،فإنهم كانوا يعبدونها ، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب . لما كان صغيراً ، كما ذكره ابن إسحاق وغيره وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولاسيما إذا خالفت الحق [1] .

---

(١) « قصص الأنبياء » (١٣٢ ، ١٣٣) .

الفـوائـد والآثـار الإيمانيــة :

ليس قول إبراهيم - عليه السلام - للكوكب ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ على سبيل الشك أو الشـرك فـقـد نفـى الله - عـز وجل - عنه ذلك بـقـوله : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قال الشنقيطي - رحمه الله - : ونفي الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما [1] .

** **

(١) «أضواء البيان» (٢/١٨٠) .

٤- مناظرته - عليه السلام - للملك الذي ادعى الربوبية :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – : قالوا : الاستفهام في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ للتعجب من هذه المحاجة وغرور صاحبها وغباوته مع الإنكار . وقوله : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ معناه : أن الذي حمله على هذه المحاجة هو إيتاء الله تعالى الملك له فكان منشأ إسرافه في غروره وسبب كبريائه وإعجابه بقدرته ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وكأنه كان قد سأله عن ربه الذي يدعو إلى عبادته وقد كسر الأصنام التي تعبد من دونه وسفه أحلام عابديها لأجله ، فأجاب بهذا الجواب فأنكره الملك الطاغية الذي حكى عنه ادعاء الألوهية لنفسه و ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ أحيي من أحكم عليه بالإعدام بالعفو عنه وأميت مَنْ شئت إماتته بالأمر بقتله فدل جوابه هذا على أنه لم يفهم قول إبراهيم ﷺ [(١)] .

قال ابن كثير – رحمه الله – : ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ، ذكر دليلاً آخر بيِّن وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ

(١) «تفسير المنار» (٣/٤٦) .

الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ، أي : هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها ، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء ، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحدٍ أنك لا تقدر على شيء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها .

فبيَّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [١] .

** **

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) من فوائد الابتلاء أنه يذهب العُجْب والكبر فلو كان هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه فقيراً سقيماً فاقد السمع والبصر ما حاج إبراهيم في ربه وإنما حاجه في ربه كما قال تعالى : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ .

(٢) وفيها نصرة الله لأوليائه وإلهامهم الحجة لدحض أعدائهم .

** **

---

(١) « قصص الأنبياء » (١٤٣) ونقله عنه صاحب « معارج القبول » بأطول من هذا : (٦٤/١).

من مواقف الإيمان

١- قصة تكسير الأصنام وإلقاء الخليل في النيران:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

أهل الإيمان ليس لهم قضية تشغل قلوبهم وجوارحهم إلا قضية التوحيد، فهم يسعون دائماً لتكون كلمة الله هي العليا، وإن اختلفت طرقهم ومناهجهم في الإصلاح، ولكن الجميع يسعى لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فهم لا يسعون للدنيا ولا للجاه والسلطان وجمع الأموال، فهم يعبّدون قلوبهم وجوارحهم لله -عز وجل- ويحبون من الناس أن يعبّدوا قلوبهم

وجوارحهم لله – عز وجل –، وأن يخضع الجميع لله ويتحاكم إلى شرعه، ومعنى ذلك أن تتكسر كل الأصنام التي تعبد من دون الله وأن يتحرر العباد من الطاعة العمياء لغير دين الله، كما قال ربعي بن عامر – رضي الله عنه عندما دخل على رستم: إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وأعداء الله – عز وجل – لهم أهداف شتى، فهم يريدون أن يحافظوا على جاههم وسلطانهم وخضوع الناس لهم، وما يدر عليهم الجاه والسلطان من منافع دنيوية وشهوات دَنِيَّةٍ. ومن هنا ينشأ الصراع بين الحق والباطل وبين أهل الإيمان وأهل الطغيان لأن ظهور أهل الإيمان فيه انتباه الناس من غفلتهم ومطالبتهم لحكم الله عز وجل وفي ذلك زوال جاه أعداء الله وسلطانهم على الناس لذا قال الله – عز وجل –: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُواْ بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] فلا يمكن أن يلتقي أهل الحق وأهل الباطل لأن ما يهدف إليه أحدهما فيه ضياع الآخر، وهذه حلقة من حلقات هذا الصراع، وجولة من جولات الحق والباطل وقضية من قضايا الإيمان تزيد أهل الإيمان إيماناً، وتبشر أهل الطغيان بالخيبة والخسران، تحطمت آلهة الكفار وكسِّرت أصنامهم فأخذتهم الحسرة عليها، وهددوا وتوعدوا فقالوا: ﴿ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ لقد ضُربت الجاهلية في أوثانها وحُطمت الآلهة التي يدعونها من دون الله ويرجونها من دونه، ودلت تحريات القوم وتقاريرهم على أن المتهم بذلك فتى يقال له إبراهيم، ودلائل هذه التهمة أنهم قد سمعوه وهو يعلن عداوته لكل ما يعبد من دون الله فهو الذي كان يقول: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي

خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٧-٨٢] .

وهو كذلك الذي تهدد وتوعد فقال : ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧] .

قضية لم يتهم فيها إلا رجل واحد رغم خسارة الكفار الفادحة ، ولكنه إبراهيم الذي قال الله – عز وجل – فيه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢٠] وصدرت الأوامر من طاغية هذا الزمان بالقبض عليه وإحضاره إلى المحكمة وليس له جريمة إلا التوحيد ، طالما أعلن دعوة التوحيد ولكنه في هذه المرة أعلن التوحيد بيده ، وكسر آلهة القوم ، وضرب الوثنية في جبهتها ضربة قوية ، وكانت المحكمة محكمةً طاغوتية لا تحكم بشرع الله ، ولكنها تحكم بحكم الطواغيت ، وتتلقى أوامرها من ملك طغى وبغى وادعى الربوبية ، وحمله طغيانه وغروره على أن قال : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ ووجهت التهمة إلى نبي الله إبراهيم ولو أنصفوا عقولهم لاستحيوا منها ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ سبحان الله أي آلهة هذه التي لا تنفع نفسها ولا تدفع عن نفسها ، فهي أضعف وأعجز من أن تقوم بنفسها فضلاً على أن تقيم غيرها أو تنفعه أو تضره .

والتهمة موجهة لإبراهيم – عليه السلام – الذي مدحه الله – عز وجل– بقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣] ، مع أن التهمة في ذاتها باطلة عند ذوي العقول فقد زادهم إبراهيم – عليه السلام – اضطراباً وشكا فيما هم عليه من الباطل فقال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ وإنما أراد إبراهيم – عليه السلام – أن يعترفوا بنقص هذه الآلهة والاعتراف بأنها لا تنطق ولا تنفع ولا تضر ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

أفاق الناس من سكرتهم وانتبهوا من غفلتهم أمام هذه الحجة التي ألقى بها إبراهيم – عليه السلام – سبحان الله كلمة حق زلزلت صفوفهم ورجعوا على أنفسهم بالملامة والإنكار ؛ إذا كان هؤلاء لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون لماذا نعبدهم من دون الله .

قال الزمخشري : فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : أنتم الظالمون على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلتم : ﴿ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [1] [الأنبياء : ٥٩] .

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴾ ثم غلبت على القوم شقوتهم ، وأخذتهم الحمية بالباطل لآلهتهم الباطلة فقالوا : لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، وهذا ما أراد الخليل منهم أن يعترفوا به بقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ وعند ذلك ألقمهم حجراً ثانياً وأدلى لهم بالحجة الدامغة فقال : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ فالإله المعبود لابد أن يكون قادراً على جلب النفع لعابديه ودفع الضر عنهم وإلا فهو إله باطل غير مستحق للعبادة قال الله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧] .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

ولما انتصر عليهم بالحجة والبيان وغلبوا في هذا الميدان فروا منه إلى ميدان البطش والتنكيل ، وهكذا كل مبطل لا يقوى أمام أدلة الحق فإنه يلجأ إلى

---

(١) « تفسير الكشاف » : (١٢٥/٣) .

المصارعة بالقوة المادية والبطش .

فصدر الأمر من المحكمة الطاغوتية بإيقاع أقسى عقوبة بإبراهيم – عليه السلام – نصراً للباطل وغيرةً له ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] وكان الحكم الظالم حكما بالإعدام حرقاً .

يقول ابن كثير – رحمه الله – : وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم [١] .

ومما ثبت من مقالة الخليل في هذا الموقف الجليل ما رواه ابن عباس أنه قال : «حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوكيل» قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] [٢] .

بذل نفسه لله – عز وجل – وأحسن توكله بالله وعلق قلبه به والله – عز وجل – يقول : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [الزمر: ٣٦] ويقول : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق :٣] فأتى المخرج والفرج العظيم من هذا الكرب المبين ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

سبحان من أخرج هذا السيد من آزر ، ثم أعانه بالتوفيق فقصد وآزر ، ثم بعث إليه البيان فأعان ووازر ، فلما رآه الله قد رحل عن المخلوقين ولم يتزود إلا التسليم : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

عبد بذل نفسه لله فبلغه منه مناه ، ولما رُمي في النار لأجل الله قال بلسان

---

(١) « قصص الأنبياء » : (١٣٩) .

(٢) رواه البخاري : (٨/٢٢٩) التفسير .

التفهيم ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

قدم ماله إلى الضِّيفَان، وسلم ولده إلى القربان واستسلم للرمي في النيران ، فلما رآه الله مُحبًا في بيداء الوجد يهيم : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾

ابتلاه الله بكلمات فأتمهن ، وأراه قدرته يوم ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ وكسر الأصنام غيرة له منهن ، فلما أججت النيران أذهب حرارتهن وغرس شجرة الجنة في سواء الجحيم ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [١] .

قال ابن كثير – رحمه الله –: فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتَّضَعُوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغُلبوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿ الأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات:٩٨] ففازوا بالخسارة والسفال،هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً بل هي كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] [٢] .

روى البخاري بسنده عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوَزَغ وقال: «**كان ينفخ على إبراهيم – عليه السلام –** » [٣] .

---

(١) « التبصرة » : (١/١١٦ / ١١٧) بتصرف واختصار .
(٢) « قصص الأنبياء » (١٤٠) .
(٣) رواه البخاري : (٦/٣٨٩) أحاديث الأنبياء .
وروى أحمد عن سائبة مولاة للفاكه بن المغيرة قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً قلت : يا أم المؤمنين ما تصنعون بهذا الرمح ؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به فإن رسول الله ﷺ حدثنا أن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – حين ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفىء النار عنه غير الوزغ كان ينفخ عليه فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله « المسند » : (٦/٨٣) .

دروس وفوائد إيمانية :

(١) أهل الحق وإن كانوا قليلاً فهم أقوى من أهل الباطل ولو كثر عددهم وتنوعت عُدَدُهم ؛ لأن الله ناصرهم ومعينهم وملهمهم رشدهم.

(٢) من اعتصم بالله – عز وجل – واحتمى بجنابه وأحسن التوكل عليه لا يضيعه الله – عز وجل – وفيه فضل ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

(٣) اعتياد قلوب أهل الباطل على الباطل وإلفهم الشرك يجعل قلوبهم لا تستقبح القبيح ولا تنكر المنكر ، فهم مع اعتقادهم أن آلهتهم لا تنطق ولا تنفع ولا تضر يصرون على الانتصار لها ، والانتقام ممن هدمها ، مع أنه قطع حجتهم وأظهر سفاهة عقولهم .

(٤) قافلة الإيمان واحدة يتقدمها الأنبياء يربطها محبة الله – عز وجل– والدعوة إلى توحيده وموالاة الله ورسله والمؤمنين ، وأعداء الله – عز وجل –كذلك هم أعداء أوليائه في كل زمان ومكان ، ولذلك أمرنا النبي ﷺ بقتل الوَزَغ (البرص) وقال : كان ينفخ على إبراهيم ، وهذا مما يجعل المؤمن يستأنس بجميع المؤمنين من قبله ويحب جميع ملائكة الله ورسله، وذلك لعقد الإيمان ومحبة الرحمن ، ويعادي جميع أعداء الله ورسله .

(٥) أهل الباطل في شك واضطراب﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٤، ٦٥] . وأهل الحق الذي باشر الإيمان بشاشة قلوبهم أرسخ من الجبال ، وذلك لتثبيت الله – عز وجل – لهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وقوله – عز وجل – ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ

آمَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢] .

(٦) من الأدلة على أن الأسباب قد تتخلف عن مسبباتها قوله تعالى : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معانٍ مختلفة ، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رماداً من حرها في الوقت الذي هي فيه كائنة برداً وسلاماً على إبراهيم، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السماوات والأرض ، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب ، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا [1] .

*** *** ***

٢- قصة ذبح إسماعيل - عليه السلام - :

قال الله تعالى حاكياً عن إبراهيم - عليه السلام -:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ٩٩-١١٠] .

* هو إبراهيم - عليه السلام - الذي جاء ربه بقلب سليم .

* هو إبراهيم - عليه السلام - الذي ألقي في النار وهو ما يزال فتى وخرج

---

(١) « أضواء البيان » (٤ / ٢٥٠ ، ٢٥١) بتصرف يسير .

من النار سالماً غانماً لأن الله – عز وجل – جعل النار برداً وسلاماً عليه.

– هو إبراهيم – عليه السلام – الذي نجاه الله وأهله من الملك الظالم ، وقد رد الله كيد الظالم عن أهله وعرضه وأخدم هاجر .

– هو إبراهيم – عليه السلام – الذي هاجر بهاجر معلقاً قلبه بالله – عز وجل – ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : ٩٩] .

– هو إبراهيم الذي دعا الله – عز وجل – أن يؤنس وحشته فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فبشره بغلام حليم ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ . [الصافات: ١٠١] .

– هو إبراهيم – عليه السلام – الذي اصطفاه الله للخلة فقال : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] .

– هو إبراهيم – عليه السلام – الذي ترك ولده الرضيع وأمه بوادٍ قفر ، لا جليس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع ، امتثالاً لأمر الله ثم توجه إلى الله – عز وجل – بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً .

هو إبراهيم – عليه السلام – قد طعن في السن وصار شيخاً كبيراً ، وهذا الولد الحليم صار خير عون له عندما بلغ معه السعي وصار ملء السمع والبصر ، يرى الشيخ الكبير أنه يؤمر بذبح ولده وبكره ووحيده الذي جاء على فاقة ، والولد حليم إن لم تتمكن محبته من قلب الوالد بعاطفة الأبوة تتمكن المحبة لحلم الولد ونباهته ، ولكن الآمر هو الله – عز وجل – الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، الحكيم الخبير في أمره ونهيه وقضائه وقدره، والمأمور هو إبراهيم الخليل وما ضيعه الله – عز وجل– في شبابه حتى يضيعه في كبره ، وما نال خلة الله إلا بطاعته ، إبراهيم عليه السلام يبادر إلى تنفيذ أمر الله – عز وجل – لأن أوامر الله – عز وجل – لا تعرض على العقول ولا تخضع

للفكر والنظر والقياس بالعقول الناقصة ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وتنفيذ الأمر شديدٌ جداً على النفوس البشرية ، فإن العبد قد يبذل نفسه لله – عز وجل – ويضحي بنفسه ويعلم أنها لحظات ، ثم تخرج الروح إلى فاطرها وتتنعم بعد ذلك في جنة الله – عز وجل – ولا يذوق الشهيد من ألم القتل إلا كما يذوق من مس القرصة .

أما أن يأخذ سكيناً ويذبح ولده الوحيد الذي صار ملء السمع والبصر وتسيل دماء الولد على يديه وثيابه .

لله هذه النفوس التي تبتلى بمثل هذا البلاء ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وهل استحق إبراهيم الخلة بأمور يشترك فيها مع سائر المؤمنين ، إبراهيم الذي كسر الأصنام ، وألقي في النار ، وترك الرضيع وأمه بوادٍ غير ذي زرع ما تخلى الله – عز وجل – عنه لحظة ، ولا ضيّعه في شبابه وفتوته وهو في كل مرة يؤثر مراد الله ويعظم أمره .

وهذا الولد رزقه الله إياه وقد بلغ من الكبر عتياً ، فهو محضُ فضل من الله – عز وجل – ، وإن تعجب من أمر الشيخ الكبير الذي شاب في طاعة الله – عز وجل – وقويت محبته لله عز وجل واستحق من الله تعالى وصف الخلة التي هي أعلى درجات المحبة فاعجب من شأن الغلام الحليم .

عرض إبراهيم – عليه السلام – على ولده ما رأى ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ هل قال الولد الحليم : ما ذنبي وهل فعلت شيئاً

أستحق به ذلك ؟ هل قال : وهل تطاوعك نفسك أن تذبحني ؟ هل قال : كيف تتهنأ بعيش بعد أن تقتلني ؟ هل قال : ما جوابك لأمي إذا ذبحتني بيديك ؟

وعشرات الأسئلة يمكن أن تقفز إلى قلب الغلام ولسانه ولكنه غلام حليم كما وصفه الله – عز وجل – ، بل كان الجواب في غاية السداد والرشاد أعان أباه على طاعة الله وتنفيذ أمره وهون عليه مصيبته به بأنَّه لن يجزع من ذلك ، وسيصبر على ذلك إن شاء الله ، وكان صادق الوعد كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ [مريم :٥٤] .

التسليم والاستسلام لأمر الله – عز وجل – هو المطلوب من العباد ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

الواجب على العباد التسليم والخضوع واعتقاد أن الخير كل الخير في طاعة الله ، والشر والبلاء في التمرد على أوامر الله – عز وجل –.

قال الرازي : الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حين يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحدِّ العظيم ، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ، ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة ، والثناء الحسن .

وقوله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي : على الذبح أو على قضاء الله [1] ويخطو المشهد خطوة وراء الكلام والحوار إلى التنفيذ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾

قال القاسمي : أي : استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء ، واستل إبراهيم السكين ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي : صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض وهو أحد

(١) نقلاً عن : « محاسن التأويل » (١١٨/٨) .

جانبي الجبهة ﴿ وَتَلَّهُ ﴾ أصل معناه : رماه على التل وهو التراب المجتمع [١] .

وقال ابن كثير – رحمه الله – : والمعنى : ﴿ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي : ألقاه على وجهه ، قيل : أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك .

وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح ، وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض و﴿ أَسْلَمَا ﴾ اي : سمى إبراهيم وكبر وتشهد الولد للموت .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله –: فعند ذلك نودي من الله – عز وجل –: ﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ أي : حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك ، وبذلت ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ أي : الاختبار . ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه . والمشهور عند الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن [٢] .

وقال الزمخشري : كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد طوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة ، والظفر بعد الشدة واليأس [٣] .

---

(١) السابق : (١١٨/٨) .
(٢) « قصص الأنبياء » : (١٦٠) .
(٣) « الكشاف » : (٥٥/٤) .

فوائد وثمرات إيمانية :

(١) قال القاسمي – رحمه الله – : يروي المفسرون ههنا في قصة الذبح روايات منكرة لم يصح سندها ولا متنها ، بل ولم تُحَسَّن فهي معضلة تنتهي إلى السُّدِّي وكعب ، والسدي حاله معلوم في ضعف مروياته وكذلك كعب [١] .

قال ابن كثير – رحمه الله – : لما أسلم كعب الأحبار في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً فربما استمع له عمر فترخص الناس في استماع ما عنده غثها وسمينها ، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرفٍ واحدٍ مما عنده انتهى .

قال القاسمي : ولقد صدق – رحمه الله – ولذا لا نريد التزيد على أصل ما قص في التنزيل من الضروري له إلا إذا صح سنده أو اطمأن القلب به [٢] .

(٢) اختلف العلماء في الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟

قال ابن القيم – رحمه الله – : وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول : هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب ؛ مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه « بِكره » وفي لفظ « وحيده » ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذي غَرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي في أيديهم « اذبح ابنك إسحاق » قال : وهذه الزيادة في تحريفهم وكذبهم لأنها

---

(١) تقدم بيان أن « كعباً » – رحمه الله – لم يتهم بالكذب وإنما كان ما ينقله من أخبار بني إسرائيل كذب في ذاتها – وما ذكره أحد في الضعفاء والمتروكين . انظر : المقدمة : ص (٣٠) .

(٢) « محاسن التأويل » (٨/١٢٠) .

تناقض قوله « بكْرَكَ » و « وحيدك » ، ولكن يهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه لأنفسهم دون العرب ، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله ، وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : ﴿ لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾[هود: ٧٠ ، ٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه ، ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة ، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في لفظ واحد [١] .

(٣) **قال الشنقيطي – رحمه الله –** : اعلم أن قصة الذبيح هذه تؤيد أحد القولين المشهورين عند أهل الأصول في حكمة التكليف ، هل هي للامتثال فقط أو هي مترددة بين الامتثال والابتلاء ؛ لأنه بيَّن في هذه الآية الكريمة أن حكمة تكليفه لإبراهيم بذبحه ولده ليست هي امتثاله ذلك بالفعل ؛ لأنه لم يرد ذبحه كوناً وقدراً ، وإنما حكمة تكليفه بذلك مجرد الابتلاء والاختبار ، هل يصمم على امتثال ذلك أوْ لا ، كما صرح بذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ فتبين بهذا أن التحقيق ؛ أن حكمة التكليف مترددة بين الامتثال والابتلاء [٢] .

(٤) **قال السيوطي في « الإكليل »** : في هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحي ، وجواز نسخ الفعل قبل التمكن ، وتقديم المشيئة في كل قول ، واستدل

---

(١) « زاد المعاد » : (٧٢/١) وانظر كذلك تحقيق المسألة بالتفصيل في « تفسير ابن كثير » : (١٧/٤ ، ١٨) و« قصص الأنبياء » له كذلك : (١٦٢–١٦٤) و« محاسن التأويل » : (١٢١/١٤–١٢٤) ، و« أضواء البيان » (٦٩١/٦) .

(٢) « أضواء البيان » (٦٩٣/٦) .

بعضهم بهذه القصة على أن من نذر ذبح ولده لزمه ذبح شاة. ثم قال السيوطي : فُسر الذبح العظيم في الأحاديث والآثار بكبش فاستدل به المالكية على أن الغنم في التضحية أفضل من الإبل[1] . انتهى .

(٥) قال في « الظلال » : الله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام ، بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد ، ولو كانت هي النفس والحياة ، وأنت يا إبراهيم قد فعلت ، جدت بكل شيء وبأعز شيء ، وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين ، فلم يبق إلا اللحم والدم ، وهذا ينوب عنه ذبح أي ذبح من دم ولحم ، ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت ، يفديها بذبح عظيم ، قيل : إنه كبش وجده إبراهيم مهيأً بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلاً من إسماعيل ، ومضت بذلك سُنَّة النحر في الأضحى ؛ ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان وجمال الطاعة وعظمة التسليم ، والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم الذي تتبع ملته ، والذي ترث نسبه وعقيدته ، لتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم[2] .

(٦) قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥].

صار إسلام الوجه لله وإخلاص النية له علامة على الملة الإبراهيمية

(١) نقلاً عن « محاسن التأويل » : (١٢١/١٤) .

(٢) باختصار من « في ظلال القرآن » لسيد قطب – رحمه الله – : (٢٩٩٦/٥) ، دار العلم للطباعة .

التي هي أحسن الدين وأفضله بل أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتبع الملة الإبراهيمية : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣] .

(٧) الله – عز وجل – لا يستفيد من طاعات عباده شيئاً ولا يتضرر بمعاصيهم ، كما قال – عز وجل – في الحديث القدسي : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني » [١]

فالله – عز وجل – لن يستفيد شيئاً من ذبح شيخ كبير لابنه كما أنه لا يستفيد شيئاً من لحوم الهدي والأضاحي كما قال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] .

فمراد الله – عز وجل – من العباد ومطلوبه منهم تقوى قلوبهم واستسلام جوارحهم لله – عز وجل – ، وها هو ذا إبراهيم – عليه السلام – استسلم لأمر الله له بذبح ولده ، واستسلم إسماعيل – عليه السلام – للذبح ففدى الله – عز وجل – الولد بذبح عظيم .

(٨) قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي – رحمه الله – في فوائد قصة إبراهيم :

منها أن من عزم على فعل الطاعات ، وبذل مقدوره في أسبابها ، ثم حصل مانع يمنع من إكمالها ، أن أجره قد وجب على الله ، كما قال الله ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن يصل إلى مهاجره ، وكما ذكره الله في قصة الذبح وأن الله أتم الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلما لله وأذعنا لأمره ثم رفع عنهما المشقة وأوجب لهما الأجر [٢] .

** **

(١) رواه مسلم : (١٦/١٣٢ ، ١٣٣) البر ، وأحمد : (٥/١٦٠) .

(٢) « تيسير اللطيف المنان» : (١٢٢) .

قصة موسى الكليم
عليه الصلاة والتسليم

فضائل موسى - عليه السلام -

(١) ثناء الله - عز وجل - عليه :

* قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥١ - ٥٣] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة ، وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفىً كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ جمع الله له بين الوصفين فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه على سائر الأنبياء أجمعين (١) .

قوله : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ .

قال الألوسي : الطور جبل بين مصر ومدين ، والأيمن صفة لجانب لقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾[طه : ٨٠] بالنصب أي : ناديناه من ناحيته اليمنى - من اليمين المقابل لليسار - والمراد به يمين موسى - عليه السلام - أي : الناحية التي تلي يمينه إذ الجبل نفسه لا ميمنة له ولا ميسرة ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ تقريب تشريف ، مثل حاله - عليه السلام - بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ورفع الوسائط بينه وبينه أي : قربناه حال كونه مناجياً (٢) .

قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾

---

(١) باختصار من « تفسير القرآن العظيم » (١٢٤/٣) .

(٢) « تفسير روح المعاني » (١٠٣/١٦ ، ١٠٤) باختصار .

قال ابن كثير : وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً كما قال في الآية الآخرى : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[القصص:٣٤]،وقال:﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٣٦] ، ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً [١] .

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

قال القرطبي – رحمه الله –: الاصطفاء : الاجتباء أي : فضلتك ولم يقل على الخلق ، لأن من هذا الاصطفاء أنه كلمه ، وقد كلم الملائكة ، وأرسله وأرسل غيره ، فالمراد ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ المرسل إليهم [٢] .

* وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيءٌ استحياءً منه ، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما بَرصٌ وإما أدرة وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لَندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٢٥/٣) باختصار .
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٢٧١٦/٣) باختصار .

مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [١] .

قال ابن الجوزي : لما كان موسى في خلوة وخرج من الماء فلم يجد ثوبه تبع الحجر بناءً على أنه لا يصادف أحداً وهو عرياناً ، فاتفق أنه كان هناك قوم فاجتاز بهم ، كما أن جوانب الأنهار وإن خلت غالباً لا يؤمن من وجود قوم قريب منها ، فبنى الأمر على أن لا يراه أحد لأجل خلاء المكان ، فاتفق رؤية من رآه .

وقال الحافظ : والذي يظهر أنه استمر يتبع الحجر على ما في الخبر حتى وقف على مجلس لبني إسرائيل كان فيهم من قال فيه ما قال ، وبهذا تظهر الفائدة ، وإلا فلو كان الوقوف على قوم منهم في الجملة لم يقع ذلك الموقع .

وفيه أن الأنبياء في خلقهم وخُلقهم على غاية الكمال ، وأن من نسب نبيًا من الأنبياء إلى نقص في خلقته فقد آذاه ويخشى على فاعله الكفر ، وفيه معجزة ظاهرة لموسى – عليه السلام – ، وفيه ما كان في الأنبياء عليهم – الصلاة والسلام – من الصبر على الجهال واحتمال أذاهم ، وجعل الله تعالى العاقبة لهم على من آذاهم [٢] .

قال النووي : وقال القاضي وغيرهما : إن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم منزهون عن النقائص في الخَلق والخُلق ، سالمون من العاهات والمعايب ، قالوا ولا التفات إلى ما قاله من لا تحقيق له من أهل التاريخ في إضافة بعض العاهات إلى بعضهم ، بل نزههم الله تعالى من كل عيب وكل شيء يبغض العيون أو ينفر القلوب [٣] .

(٢) ومن فضائله – عليه السلام – : أن الله – عز وجل – كلمه بلا واسطة وأسمعه كلامه كما قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾

---

(١) رواه البخاري : (٦/٤٣٦) أحاديث الأنبياء ، ومسلم : (١٥/١٢٦) الفضائل .

(٢) باختصار من « الفتح » (٤/٤٣٧، ٤٣٨) .

(٣) باختصار من مسلم بشرح النووي : (١٥/١٢٧) .

[النساء: ١٦٤] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وأخبر عن كلامه لموسى فقال : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٠ ، ١١] . وفي الصحيحين من احتجاج آدم وموسى عند ربهما وفيه قول آدم لموسى : « **أنت موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه** » [(١)] .

(٣) ومن فضائله عليه السلام -: **أن الله – عز وجل – خط له التوراة بيده** كما قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف : ١٤٥] .

وفي حديث احتجاج آدم وموسى عند ربهما قال آدم : « **أنت موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وخط لك التوراة بيده** » [(١)] .

(٤) ومن فضائله عليه السلام ما رواه أبوهريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال : « **..لا تفضلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله ، قال : ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث ، أو من أول من بعث ، فإذا موسى – عليه السلام – آخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي ، ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متّى** » [(٢)] . وفي رواية : «**فإذا موسى باطش بجانب العرش**» ، أي : آخذ بشيء من العرش بقوة .

قال الحافظ : وقد استشكل كون جميع الخلق يصعقون مع أن الموتى لا إحساس لهم ، فقيل : المراد أن الذين يصعقون هم الأحياء ، وأما الموتى فهم في الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر:٦٨] أي : ممن سبق له الموت قبل ذلك فإنه لا يصعق ، وإلى هذا جنح القرطبي ، ولا

---

(١) رواه البخاري : (١٣/٤٧٧) التوحيد ، ومسلم : (١٦/٢٠٠) القدر .
(٢) تقدم تخريجه في ص (٢٤) المقدمة .

يعارضه ما ورد في هذا الحديث أن موسى ممن استثنى الله ؛ لأن الأنبياء أحياء عند الله ، وإن كانوا في صورة الأموات بالنسبة إلى أهل الدنيا ، وقد ثبت ذلك للشهداء ، ولاشك أن الأنبياء أرفع رتبة من الشهداء ، ووقع التصريح بأن الشهداء ممن استثنى الله (١) .

(٥) ومن فضائله – عليه السلام – عظم شريعته وكثرة أمته :

قال ابن كثير– رحمه الله –: وبالجملة فشريعة موسى – عليه السلام– كانت شريعة عظيمة ، وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألِبَّاءُ وملوك وأمراء وسادات وكبراء لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها (٢) .

ومن الأدلة على عظم شريعته قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٤] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٨] .

ومن الأدلة على عظم أمته وكثرتها بعد نبينا ﷺ قوله ﷺ : « **عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فقلت : هذه أمتي؟ فقيل : هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم ، ثم قيل : انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم ، فقيل : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب** » (٣) .

(١) « فتح الباري » (٦/٤٤٤) . (٢) « قصص الأنبياء » (٤٣٢) .
(٣) رواه البخاري : (١٠/٢١١) الطب ، ومسلم : (٣/٩٣ ، ٩٤) الإيمان والترمذي : (٩/٢٧٤) صفة القيامة .

(٦) ومن فضائله – عليه السلام – : ما ورد في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره . وزاد في حديث عيسى : « مررت ليلة أسري بي » [١] .

(٧) ومن فضائله – عليه السلام – : ما رواه مسلم عن أنس في قصة الإسراء وفيه « ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل –عليه السلام– قيل : مَنْ هذا ؟ قال: جبريل . قيل: ومَن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بموسى ﷺ فرحب ودعا لي بخير » . وفيه أيضاً : « فأوحى الله إليَّ ما أوحى ففرض عَليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى ﷺ فقال : ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بَلَوْتُ بني إسرائيل وخبرتهم . قال: فرجعت إلى ربي فقلت : يا رب خفف على أمتي فحط عني خمساً ، فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمساً. قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، قال : فلم أزل أرجع بين ربي – تبارك وتعالى– وبين موسى – عليه السلام – حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشرٌ ، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، قال : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فقال رسول الله ﷺ : فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه » [٢] .

---

(١) راوه مسلم : (١٣٣/١٥) الفضائل .
(٢) رواه مسلم : (٢١٣/٢ ، ٢١٤) الإيمان .

ففيه شفقة موسى عليه – الصلاة والسلام – على محمد ﷺ وأمته ونصحه لنبينا صلى الله عليهما وسائر الأنبياء وسلم .

(٨) ومن فضائله –عليه السلام–: سفره طلباً للعلم مع علو مرتبته وارتفاع قدره ، وفيه كذلك شرف العلم وآداب طلبه وبذل الجهد في تحصيله .

عن ابن عباس أنه تمارى هو والحرُّ بن قيس الفزاري في صاحب موسى قال ابن عباس : هو خَضِرٌ ، فَمَرَّ بهما أُبيُّ بن كعب فدعاهُ ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال: نعم ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال : هل تعلم أحداً أعلمَ منك ؟ قال: لا. فأوحى الله إلى موسى : بل عبدنا خَضِرٌ ، فسأل موسى السبيل إليه ، فَجُعِلَ له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه ، فكان يتبع الحوت في البحر ، فقال لموسى فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف : ٦٣] . فقال موسى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف : ٦٤] فوجدا خَضِراً ، **فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه** »[1].

وفيه تواضع موسى – عليه السلام – مع أنه ولاشك أفضل من الخضر لأنه من أولي العزم من الرسل .

(٩) ومما يدل على فضله – عليه السلام –: ما رواه أبوهريرة في قصة وفاته قال : «أرسل ملك الموت إلى موسى – عليهما السلام– فلما جاءه صكَّه فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت . قال: ارجع إليه فقل

(١) رواه البخاري : (٦/٤٣١) أحاديث الأنبياء .

له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطَّى يدُهُ بكلِّ شعرةٍ سنة قال : أي رب ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت، قال : فالآن . قال: فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر» قال أبوهريرة : فقال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» [١] .

وفي رواية عمار ما يشهد لفضله عليه – الصلاة والسلام – «فقال: يارب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لشققت عليه» .

قال ابن خزيمة : أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وقالوا إن كان موسى عرفه فقد استخف به، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتص له من فقء عينه ؟

والجواب : أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذٍ وإنما بعثه إليه اختباراً ، وإنما لطم موسى ملك الموت لأنه رأى آدمياً دخل داره بغير إذنه ولم يعلم أنه ملك الموت ، وقد أباح الشارع فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذن ، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفاهم ، ولو عرفهم إبراهيم ما قدم لهم المأكول ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه ، وعلى تقدير أن يكون عرفه فمن أين لهذا المبتدع مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر ؟ ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص من موسى فلم يقتص له ؟

وقال النووي : لا يمتنع أن يأذن الله لموسى في اللطمة امتحاناً للملطوم. وقال غيره : إنما لطمه لأنه جاء لقبض روحه من قبل أن يخبره . لما ثبت أنه لم يُقبض نبي حتى يخير ، فلهذا لما خيره في المرة الثانية أذعن [٢] .

** **

---

(١) رواه البخاري: (٦/٤٤٠، ٤٤١) أحاديث الأنبياء ، ومسلم: (١٥/١٢٨) الفضائل .

(٢) باختصار من «الفتح» : (٦/٤٤٢) .

قصة ميلاد موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم :

قال الله تعالى : ﴿ طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١-١٣] .

قال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله –: لقد كانت قصة موسى –عليه السلام– تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة لا من حلقة الميلاد حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية ، فأما هُنَا فليس هذا المعنى هو المقصود ، إنما المقصود أن الشرَّ حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته ، والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدمغه من البشر ، بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم فتنقذهم ، وتستنقذ عناصر الخير فيهم وتربيهم وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين .

وقبل أن تبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث والظروف الذي يجري فيه القصص .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون ، ويُقَدِّر غير ما يقدر الطاغية ، والطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحياتهم فينسون إرادة الله وتقديره ، ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون، ويظنون أنهم على ذا وذاك قادرون [١] .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

ولاشك في أن الله – عز وجل– قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها ، بل في طرفة عين ، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، فلا يستعجل أهل الحق موعود الله –عز وجل– لهم بالنصر والتمكين ، فلابد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية ، ولابد من الصبر على دين الله – عز وجل – ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : ٤] .

وتبدأ قصة التمكين وإنفاذ مشيئة الله – عز وجل – بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فهذا النبي الذي يعز الله به المستضعفين ويرفع شعار الدين مازال رضيعاً ، وقد كان فرعون يقتل الولدان من بني إسرائيل وهذا من غباوته ؛ لأنه إذا صدق ما قيل بأن هلاك ملكه على يد واحدٍ منهم فإن كان

---

(١) « في ظلال القرآن » (٥/٢٦٧٦) بتصرف .

هذا حقاً لا يغني عنه فعله ، وإن لم يكن حقاً فما الحكمة في أمره بذبح الأولاد ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : ٢١] .

وقوله – عز وجل –: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [1] ؛ الله – عز وجل – لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وعلى أهل الحق أن يبذلوا جهدهم ، وهو إن كان قليلاً فإن الله – عز وجل – سوف يبارك فيه ، وسوف يهيئ من الأسباب التي يمكن بها للإسلام وأهله ؛ فها هو ذا الغلام يقع في يد فرعون ولكنه في حماية الله – عز وجل – وحفظه.

قال ابن كثير – رحمه الله –: هذا والقدر يقول : يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا تخالف أقداره أن هذا المولود الذي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يحصى ولا يعد ، لا يكون مُرَبَّاه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه ، ولا تطلع على سر معناه ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحي إليه ؛ لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها [2] .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

---

(١) قال القرطبي : واختلف في هذا الوحي إلى أم موسى فقالت فرقة :كان قولاً في منامها، وقال قتادة : كان إلهاماً ، وقالت فرقة : كان بملك يمثل لها ، قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك ، فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام . وأجمع الكل على أنها لم تكن نبيَّة وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور ، خرجه البخاري ومسلم – التفسير : (٦/٤٩٦٦) .

(٢) « قصص الأنبياء » : (٢٩٨) .

وفي قول آسية امرأة فرعون : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ فضل الفأل الحسن، وقد نالها ما رجت من النفع أما في الدنيا فهداها الله به وجعل لها أحسن ثناء في الآخرين بقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم : ١١] ، فاستعملها الله –عز وجل– بطاعته وصيرها إلى فسيح جنته .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال القاسمي : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ أي : خالياً من العقل لما دهمها من فرط الجزع ، وأطار عقلها من الدهش لما بلغها وقوعه في يد فرعون ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي : بأمره وقصته وأنه ولدها ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لولا أن ألهمناها الصبر ، شُبِّهَ بربط الشيء المنفلت ليقر ويطمئن ، ومعنى ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : المصدقين لوعد الله وهو قوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ [(١)] .

قال الزمخشري : ويجوز : وأصبح فؤادها فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أنا طمأنا قلبها وسكنًا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه[(٢)].

قال ابن جرير – رحمه الله –: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال معناه : وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من كل شيء إلا من هم موسى[(٣)] .

---

(١) «محاسن التأويل» : (٩٧/١٣) .
(٢) « الكشاف » : (٣٩٦/٣) .
(٣) « جامع البيان في تفسير القرآن » (٢٤/١٠) .

﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال الزمخشري : أي : اتبعي أثره وتتبعي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[القصص : ١٢] أي : نظرت إليه مُزْوَرَّة متجانفة مخاتلة ، وهم لا يحسون بأنها أخته [١] .

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ .

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – في ظلاله : إن القدرة التي ترعاه تدبر أمره وتكيد به لفرعون وآله ، فتجعلهم يلتقطونه ، وتجعلهم يحبونه ، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وتحرم عليه المراضع لتدعهم يحتارون به ، وهو يرفض الثُّديَّ كلما عرضت عليه ، وهم يخشون عليه الموت ، أو الذبول ، حتى تبصر به أخته من بعيد فتعرفه ، وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع فتقول لهم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ فيتلقفون كلماتها وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب ، وينتهي المشهد الرابع فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير في هذه الحلقة ، وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة معافى في بدنه مرموقاً في مكانته ، يحميه فرعون وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير ، وقد صاغت القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب .

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] .

** **

(١) « الكشاف » : (٣/٣٩٦) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٥/٢٦٨٠ ، ٢٦٨١) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) الظلم إذا عمَّ وطَمَّ فإنه يؤذن بزواله وهلاك الظالم ودولته ، وقد قال شيخ الإسلام : (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة) .

فمع أن فرعون قد جمع الموبقات ، وادعى الألوهية وأنكر رب البرية إلا أن الله – عز وجل – علل زوال ملكه ونصر المستضعفين بقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

(٢) في قوله – عز وجل – : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بيان عناية الله عز وجل بالمؤمنين .

قال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – : فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب، يربيهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج، ويشق لهم الطريق، وهذا القصص المتلو في السورة مقصود به أولئك المؤمنون وهم به ينتفعون .

وهذه التلاوة المباشرة من الله تلقى ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ، وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة ، وكيف؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ولهم ، بصفتهم هذه التي تؤهلهم لتلك العناية الكريمة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١] .

(٣) كم بين قول الله – عز وجل– : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ وبين انتصار موسى على فرعون وهلاك فرعون وجنوده . فالأمور تسير بالسنن الكونية والشرعية

(١) «في ظلال القرآن» (٥/٢٦٧٦) .

و﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[البقرة : ٢٨٦] فعلى أهل الإيمان أن يأخذوا بالأسباب المتاحة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ، ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ فهذا مبلغ جهد أم موسى في حماية موسى الرضيع ، والذي تولى حمايته ونصره في الحقيقة هو الله – عز وجل – ذو الجلال والإكرام وكان يمكن أن تحصل الحماية والرعاية دون أسباب .

ويقول السعدي – رحمه الله –: إن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة [1] .

(٤) **الله – عز وجل – يلهم أهل الإيمان الصواب والرشاد فما أخبر الله – عز وجل –** أنه أمر أم موسى أن تقول لأخته ﴿ قُصِّيهِ ﴾ مع أن ذلك كان من أسباب نجاته وانتصار حزب الإيمان ، وفرعون – عليه لعنة الملك الديان – ربّى موسى في بيته وقام بقضاء مصالحه ، كما يقولون :حفر قبره بظلفه ، فالكفار والفجار يعملون من الأعمال التي يظنون أنه فيها منفعتهم وصلاحهم وتكون من أعظم أسباب خيبتهم وخسارتهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال : ٣٦] .

(٥) **في هذه القصة تثبيت لأهل الإيمان وإن ضعفت شوكتهم وقَلَّتْ حيلتهم** ، وإن طغى وبغى أهل الباطل وملكوا من أسباب البطش والتنكيل ما ملكوا ، فعلى أهل الإيمان أن يستبشروا بنصر الله وينتظروا فرجه وتمكينه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بوعد الله ونصره ، وقد بيّن الله – عز و جل– في آيات أخر ما يتسلح به أهل الإيمان حتى يجعلهم الله – عز وجل– أئمة

---

(١) « تيسير اللطيف المنان » (١٣٠) .

فقال تعالى في سورة السجدة : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة : ٢٤] قال سفيان بن عيينة : لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً .

(٦) **قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي :**

ومنها - أي : من الفوائد المستنبطة -: لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها ، ثم تلك البشارة من الله لها برده إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها ، ثم رده إليها بإلجائه إليها قدراً بتحريم المراضع عليه ، وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول ، ولا تعبر عنها العبارات، وتأمل موقع هذه البشارة وأنه أتاها ابنها ترضعه جهراً ، وتسمى أمه شرعاً وقدراً ، وبذلك اطمأن قلبها ، وازداد إيمانها ، وفي هذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة : ٢١٦] فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون ، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة ، وآثاره الطيبة .

(٧) **ومنها : أن الإيمان يزيد وينقص لقوله :** ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ والمراد بالإيمان هنا زيادته وطمأنينته .

(٨) **ومنها : أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المُقْلِقَاتِ والمخاوف** ، فإنه كما يزداد به إيمانه وثوابه ، فإنه يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب ، ويبقى رأيه وأفكاره ثابتة ، وأما من لم يحصل له هذا الثبات فإنه لقلقه وروعه يضيع فكره ويذهل عقله ، ولا ينتفع بنفسه في تلك الحال (١) .

** **

---

(١) «خلاصة تيسير اللطيف المنان في تفسير القرآن» (١٣٠ ، ١٣١) .

شبابه - عليه السلام - وهجرته إلى مدين :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص : ١٤-٢٢] .

قال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – : وَيسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى – عليه السلام – والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله ، فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه ، ولا كيف تربى في قصر فرعون .

يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى فقد آتاه الحكمة والعلم ، وجزاه جزاء المحسنين .

وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية ، والاستواء اكتمال النضوج العضوى والعقلي ، وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين ، فهل ظل موسى في قصر فرعون رَبيباً ومتبنى لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن، أم أنه افترق عنهما ،

واعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة كنفس موسى –عليه السلام –؟ ليس لدينا من دليل ، ولكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئاً من هذا كما سيجيء والتعقيب على إتيانه العلم والحكمة : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ يشي كذلك بأنه أحسن ، فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

قال ابن كثير : قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي: وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشائين .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ ﴾ أي : يتضاربان ويتهارشان ﴿ هَذَا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي : إسرائيلي ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي : قبطي.قال ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ وذلك أن موسى – عليه السلام –كانت له بديار مصر صولة ، بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته له في بيته ، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله أي : من الرضاعة ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى –عليه السلام – على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُ ﴾ قال مجاهد : أي : طعنه بجمع كفه ، وقال قتادة : بعصاً كانت معه ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أي : فمات منها . وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ولم يُرِدْ موسى قتله بالكلية ، وإنما أراد زجره ، ومع هذا قال موسى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [2] .

قال القرطبي – رحمه الله – : ندم موسى – عليه السلام – على هذا الوكز

---

(١) « في ظلال القرآن » (٥/٢٦٨١) باختصار .

(٢) « قصص الأنبياء » : (٣٠٣) .

الذي كان فيه ذهاب النفس فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه .

قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ، ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه في القيامة يقول : «إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها» وإنما عدده على نفسه ذنباً وقال : ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم (١) .

عن سالم بن عبدالله أنه قال : «يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة ! سمعت أبي عبدالله بن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الفتنة تجيء من ها هنا** – وأومأ بيده نحو المشرق – **من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله – عز وجل –** : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ (٢) [طه : ٤٠] .

قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

قال الألوسي – رحمه الله – : احتج أهل العلم بهذه الآية على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم ، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد الله ابن الوليد الرصافي أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن أخ له كاتب فقال له : إن أخي ليس له من أمور السلطان شيء ، إلا أنه يكتب له بقلم ما يدخل وما يخرج، فإن ترك قلمه صار عليه دين واحتاج ، وإن أخذ به كان له فيه غنى ، قال : لمن يكتب قال : لخالد بن عبدالله القسري قال ألم تسمع إلى ما قال العبدُ الصالح ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فلا يهتم أخوك بشيء

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤٩٧٦/٦ ، ٤٩٧٧) .

(٢) رواه البخاري : (٤٥/١٣) الفتن ، ومسلم : (٣١/١٨) الفتن وأشراط الساعة ، والترمذي : (١٢٢/٩) أبواب الفتن ، ومالك في «الموطأ» (٩٧٥/٢) الاستئذان ، وأحمد : (٢٣/٢) .

وليرم بقلمه فإن الله تعالى سيأتيه برزق. فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم ، ويا حسرتا على من باع دينه بدنياه ، واشترى رضا الظلمة بغضب مولاه ، هذا وقد بلغ السيل الزبى وجرى الوادي فطم على القرى [1] .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله –: يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً – أي : من فرعون وملئه – أن يعلموا هذا القتيل الذي رفع إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم ، فصار يسير في المدينة صبيحة ذلك اليوم ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي : يتلفت ، فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، أي : يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي ، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي : ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [2] .

قال الألوسي : والذي في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم ما هو صريح في أن هذين الرجلين كانا من بني إسرائيل ، وأما الرجلان اللذان رآهما بالأمس فأحدهما إسرائيلي والآخر مصري .

قال : وأنت تعلم أن هذه التوراة لا يلتفت إليها فيما يكذب القرآن والسنة الصحيحة ، وهي فيما عدا ذلك كسائر أخبار بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب ، نعم قد يستأنس بها لبعض الأمور ، ثم إن ما فيها من قصة موسى –عليه السلام– مخالف لما قصه الله تعالى منها هنا ، وفي سائر المواضع زيادة

---

(١) « روح المعاني » (٥٦/٢٠) .
(٢) « قصص الأنبياء » (٣٠٣ ، ٣٠٤) .

ونقصاً وهو ظاهر لمن وقف عليها ولا يخفى الحكم في ذلك [١] .

قوله : ﴿ إن تُرِيدُ إلاَّ أن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾.

قال الأستاذ سيد قطب -رحمه الله -: فتلهم أن موسى كان قد اتخذ في الحياة مسلكاً يعرف به أنه رجل صالح مصلح لا يحب البغي والتجبر ، فهذا القبطي يذكره بهذا ويورى به، ويتهمه بأنه يخالف عما عرفه عنه ، ويريد أن يكون جباراً لا مصلحاً [٢] .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

قال الألوسي : وكون هذا الرجل الجائى مؤمن آل فرعون هو المشهور ، وقيل غيره ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ بمعنى : يُسرع في المشي ، وإنما أسرع لبعد محله ومزيد اهتمامه بإخبار موسى - عليه السلام -ونصحه .

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ ﴾ وهم وجوه أهل فرعون ﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي : يتشاورون بسببك ، وإنما سمي التشاور ائتماراً ؛ لأن كلاًّ من المتشاورين يأمر الآخر [٣] .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

قال الزمخشري : ﴿ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ قصدها ونحوها ، ومدين قرية شعيب - عليه السلام - سميت بمدين بن إبراهيم ، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان ، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه [٤] .

---

(١) « روح المعاني » باختصار : (٢٠/٥٧ ، ٥٨) .
(٢) باختصار من « في ظلال القرآن » (٥/٢٦٨٤) .
(٣) باختصار من « روح المعاني » (٢٠/٥٨) .
(٤) « الكشاف » : (٣/٤٠٠) .

الفـوائـد والآثـار الإيمانيـة :

(١) قال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله –: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ غويٌّ بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكاته التي لا تثمر ، إلا أن تثير الثائرة على بني إسرائيل ، وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعفاء، فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تفيد.

(٢) وفي قوله – عز وجل – : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ بركة الدعاء وحسن الظن والتوكل على الله عز وجل فقد خرج موسى – عليه السلام – خائفاً طريداً فريداً ، لم يتجهز لسفر ولم يأخذ ما يدله على الطريق ، ولكنه توجه إلى الله – عز وجل – بالدعاء أولاً بالنجاة من القوم الظالمين ، ثم طلب الهداية إلى سواء السبيل وهكذا المؤمن دائماً يعلق قلبه بالله عز وجل ويرجو الخير من عنده ، ويهرع إلى دعائه ورجائه عند الشدائد وهذا التوكل وحسن الظن يعوض أهل الإيمان قلة الأسباب ويفتح لهم مغاليق الأبواب .

(٣) استدل القرطبي وغيره بقوله : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ على جواز النميمة لمصلحة دينية .

(٤) قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي – عليه رحمة ربنا العليّ–: إذا خاف التلف بالقتل بغير حق في إقامته في موضع فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك بل يفر من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى .

(٥) وقال – رحمه الله – : إذا كان لابد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعيّن ارتكاب الأخف منهما الأسلم دفعاً لما هو أعظم وأخطر ؛ فإن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة

التي لا يعرف الطريق إليها ، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه ، ومعلوم أنها أرجى للسلامة لا جرم آثرها موسى [١] .

(٦) **وقال – رحمه الله –:** فيه تنبيه لطيف على أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به إذا لم يترجح عنده أحد القولين فإنه يستهدي ربه ويسأله أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه ، فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله ، كما جرى لموسى لما قصد تلقاء مدين ، ولا يدري الطريق المعين إليها قال : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ وقد هداه الله وأعطاه ما رجاه وتمناه [٢] .

(٧) **قال الشيخ أبوبكر الجزائري في « هداية الآيات » :**

* **شكر النعم** فموسى لما غفر الله تعالى له ، شكره بأن تعهد له أن لا يقف إلى جنب مجرم أبداً .
* **سوء صحبة الأحمق الغويّ ،** فإن الإسرائيلي لغوايته وحمقه هو الذي سبب متاعب موسى .
* **الخوف الطبيعي لا يلام عليه ،** فموسى – عليه السلام – قد خاف خوفاً أدى به إلى الالتجاء إلى ربه بالدعاء فدعاه فاستجاب له ولله الحمد والمنّة .

---

(١) «خلاصة تفسير اللطيف المنان» (١٣١ ، ١٣٢) .
(٢) باختصار من « أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير » : (٣٨٩/٣) .

مكثه - عليه السلام - بمدين وزواجه بها :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٣-٢٨] .

قال سيد قطب –رحمه الله–: لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين ، وصل إليه وهو مجهود مكدود ، وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة كنفس موسى – عليه السلام – وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فأخبرتاه عن سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظٍ وحَرٍّ ، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر .

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٍ ﴾ .

قال الألوسي : أي : لأيِّ شيء تنزله من خزائن كرمك إليَّ ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ جَلَّ أو قل ﴿ فَقِيرٌ ﴾ أي : محتاج ، وإلى كون الكلام تعريضاً لذلك ذهب مجاهد وابن جبير وأكثر المفسرين [١] .

وقال الزمخشري : ويحتمل أن يريد إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليَّ من خير الدين ، وهو النجاة من الظالمين ؛ لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، قال ذلك رضا بالبدل السني وفرحاً به وشكراً له [٢] .

والأول أظهر وأليق بالسياق والله أعلم .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال الزمخشري : ﴿ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أي : مستحيية متخفرة ، وقيل : قد استترت بكم درعها [٢] .

وقال القرطبي : قال عمرو بن ميمون : ولم تكن سلفعاً من النساء خَرَّاجَةً وَلاجَةً [٣] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير –رحمه الله–: وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل : هو شعيب – عليه السلام – وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس وجاء مصرحاً به في حديث ولكن في إسناده نظر [٤] .

وقال سيد قطب – رحمه الله – : سبق أن قلت مرة في الظلال : إن هذا الرجل هو شعيب ، وقلت مرة : إنه قد يكون النبي شعيباً أو لا يكون ، وأنا الآن

---

(١) « روح المعاني » : (٢٠/٦٤) .
(٢) « الكشاف » : (٣/٤٠٢) .
(٣) « الجامع لأحكام القرآن » : (٦/٤٩٨٦) .
(٤) « قصص الأنبياء » : (٣٠٦) .

أميل إلى ترجيح أنه ليس هو ، وإنما هو شيخ آخر من مدين ، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير ، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له ، ولم يبق معه إلا المؤمنون به ، فلو كان هو شعيب النبي بين بقية قومه المؤمنين ما سَقَوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير ، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل ، يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره ، ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات (١) .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ .

قال القرطبي : دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة ، وكذلك كانت في كل ملة ، وهي من ضرورة الخليقة ومصلحة الخلطة بين الناس ، خلافاً للأصم حيث كان عن سماعها أصم (٢) .

قال الزمخشري : وقولها : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته (٣) .

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ... ﴾ :

قال القرطبي : فيه عرض الولي ابنته على الرجل ، وهذه سنة قائمة ، عرض صالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل ، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة

---

(١) «في ظلال القرآن» هامش : (٥/٢٦٨٧) .
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» : (٦/٤٩٨٧) .
(٣) «الكشاف» (٣/٤٠٤) .

على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على رسول الله ﷺ .

– وفي هذه الآية دليل على أن النكاح للولي لا حظّ للمرأة فيه ، لأن صالح مدين تولاه ، وبه قال فقهاء الأمصار وخالف في ذلك أبو حنيفة ، وقد مضى .

– هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار، وبه قال مالك واحتج بهذه الآية ، وقال أبو حنيفة إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها إلا برضاها ؛ لأنها بلغت حد التكليف ، فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوجها بغير رضاها ، لأنه لا إذن لها ولا رضا بغير خلاف .

قوله : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله –: يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ ، والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل عليّ وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : سألني يهود من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل [1] .

(١) « قصص الأنبياء» (٣٠٨) بتصرف .

الفـوائـد والآثـار الإيمـانيـة :

(١) قال القرطبي : استدل أصحاب الشافعي بقوله : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح ، وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبوعبيد وداود ومالك على اختلاف عنه ، وقال علماؤنا في المشهور : ينعقد النكاح بكل لفظ ، وقال أبوحنيفة ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد [١] .

(٢) قال القرطبي : وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمرٌ قد قرره شرعنا وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ، رواه الأئمة ، وفي بعض طرقه فقال له رسول الله ﷺ : «مَا تَحْفَظُ مِنَ القُرْآنِ؟ فقال: سورة البقرة والتي تليها، فقال: فعلّمها عشرين آية وهي امرأتك» [٢] .

(٣) قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقاً . وقال مالك : إنه جائز ويحمل على العرف فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر في قصة موسى ، فإنه ذكر إجارة مطلقة ، وقال أبوحنيفة والشافعي : لا يجوز حتى يسمي فإنه مجهول ، وقد ترجم البخاري : (مَنْ اسْتَأْجَرَ أجيراً فبين له الأجل ولم يبين له العمل لقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾) [٣] .

(٤) اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح على قولين :

أحدهما : أنه لا ينعقد إلا بشاهدين ، وبه قال أبوحنيفة والشافعي، وقال مالك : إنه ينعقد دون شهود لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق بين النكاح والسفاح الدف [٣] .

---

(١) «تفسير القرطبي» : (٤٩٨٨/٦) باختصار .

(٢) السابق : (٤٩٨٩/٦) باختصار ، والحديث رواه البخاري وغيره وهو الذي يسمى بحديث الواهبة .

(٣) «تفسير القرطبي» : (٤٩٩١/٦) باختصار .

(٥) **قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر** : العبد إذا عمل العمل لله خالصاً ثم حصل به مكافأة عليه بغير قصده فإنه لا يلام على ذلك ، ولا يخل بإخلاصه وأجره ، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يطلبه ولم يستشرف له على معاوضة .

(٦) **وقال – رحمه الله –** : من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومُعَامِل وغيرهم ، ومن ذلك تخفيف العمل على العامل لقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وفيه أنه لا بأس أن يُرَغِّبَ المعامل في معاملته بالمعاوضات والإجارات بأن يصف نفسه بحسن المعاملة ، بشرط أن يكون صادقاً في ذلك [١] .

(٧) **قال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله –**: وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبنى بيوته ويقيم كيانه في غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء .

وهكذا صنع الشيخ الكبير – صاحب موسى – فعرض على موسى ذلك العرض واعداً إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل ، راجياً بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله فهو لا يزكي نفسه ولا يجزم بأنه من الصالحين ولكن يرجو أن يكون كذلك ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله .

وقبل موسى العرض وأمضى العقد في وضوح كذلك ودقة [٢] .

** **

---

(١) « خلاصة تفسير اللطيف المنان » (١٣٢ ، ١٣٣) .

(٢) « في ظلال القرآن » : (٥/٢٦٨٨) .

قصة ذهابه - عليه السلام - بأهله ، ومناداة الله - عز وجل - له وتكليفه بالرسالة ﷺ :

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ✽ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ✽ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ✽ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ✽ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ✽ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ✽ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص : ٢٩-٣٥] .

قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله –: اتفق ذلك في ليلة باردة ، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف ، وجعل يوري زناده فلا يورى شيئاً واشتدَّ الظلام والبرد .

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعدٍ ناراً تأجج في جانب الطور وهو الجبل الغربي منه عن يمينه فـ ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم ، لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي : لَعَلِّي أستعلم من عندها عن الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة مظلمة[1].

---

(١) « قصص الأنبياء » (٣١١) .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَامُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير : أي : الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

وقوله : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي : التي في يدك ، كما قرره على ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ١٧ ، ١٨] .

والمعنى : أما هذه عصاك التي تعرفها ؟ ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٩ ، ٢٠] فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون .

﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ أي : تضطرب كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ، أي:لم يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ، فلما قال الله له : ﴿ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال الله : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي : إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق ، ولهذا قال : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي : من غير برص ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ قال مجاهد:من الفزع .

قوله : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني : إلقاء العصا وجعلها حية تسعى وإدخال يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ولدينه[1].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ .

قال الألوسي : المراد بهذا الخبر طلب الحفظ والتأييد ؛ لإبلاغ الرسالة على أكمل وجه لا الاستعفاء عن الإرسال ، وزعمت اليهود أنه – عليه السلام – استعفى ربه – سبحانه – من ذلك ، وأكد طلب التأييد بقوله : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ أي : عوناً .

وفي قوله : ﴿ أَفْصَحُ مِنِّي ﴾ دلالة على أن فيه – عليه السلام – فصاحة ، ولكن فصاحة أخيه أزيد من فصاحته[2] .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ .

قال سيد قطب – رحمه الله –: لقد استجاب ربه رجاءه وشد عضده بأخيه، وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار ، إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان ، ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار : ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ وحولكما من سلطان الله سياج ولكما منه حصن وملاذ .

ولا تقف البشارة عند هذا الحدّ ولكنها الغلبة للحق ، الغلبة لآيات الله يجبهان بها الطغاة ، فإذا هي وحدها السلاح والقوة وأداة النصر والغلبة ﴿ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾[3] .

** **

(١) « تفسير القرآن العظيم» : (٣/٣٨٨) باختصار .

(٢) «روح المعاني» (٢٠/٧٧) باختصار .

(٣) « في ظلال القرآن» : (٥/٢٦٩٣) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) **في هذه الآيات الكريمات فضيلة ظاهرة لموسى – عليه السلام – وكيف اختصه الله –عز وجل– برسالاته وبكلامه فناداه وناجاه بلا واسطة.**

قال الألوسي : وقال الحسن : إنه سبحانه نادى موسى – عليه السلام– نداء الوحي لا نداء الكلام ، ولم يرتض ذلك العلماء الأعلام لما فيه من مخالفة الظاهر ، وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم بين الأنبياء – عليهم السلام – [1] .

(٢) **قال القرطبي** : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل : فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ، لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة، إلا أن يلتزم لها أمراً فالمؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج [2] .

(٣) **قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر** : آيات الأنبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه الله من الآيات ومن تغيير الأسباب أو منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب أخر ، أو وجود موانع تعوقها هي من البراهين العظيمة على وحدانية الله وأنه على كل شيء قدير ، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير ، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل الله في هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة والنظامات المعهودة ، وإنك لا تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً [3] .

---

(١) « روح المعاني » (٧٤/٢٠) .
(٢) « الجامع لأحكام القرآن » (٤٩٩٧/٦) .
(٣) « خلاصة تيسير اللطيف المنان » : (١٣٣) .

(٤) وقال الشيخ أبوبكر الجزائري في « هداية الآيات » :

بيان أن القصاص كان معروفاً معمولاً به عند أقدم الأمم ، وجاءت الحضارة الغربية فأنكرته ، فتجرأ الناس على سفك الدماء وإزهاق الأرواح بصورة لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخ البشرية ، ولذلك صحَّ أن تسمى الخسارة البشرية بدلاً من الحضارة الغربية [1] .

(٥) ومن الآثار الإيمانية :

اليقين بأن رحمة الله – عز وجل – بعباده أعظم من رحمتهم لأنفسهم ، فقد قال موسى – عليه السلام –: ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فهذه رحمته بنفسه، وانظر إلى رحمة الله – عز وجل – به حيث عاد بالرسالة وشرف المناجاة ، فالله – عز وجل – أرحم بالعبد من نفسه ، وأعلم به من نفسه فهو– عز وجل – أرحم الراحمين نسأل الله أن يفتح علينا خزائن رحمته .

** **

(١) «أيسر التفاسير» (٣/٣٩٩) .

لقاء موسى - عليه السلام - وفرعون وإيمان السحرة :

قال تعالى في سورة الأعراف :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠٣-١٢٦] .

قوله : ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ .

قال العلامة محمد رشيد رضا : أي : فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها

كِبْراً وجحوداً ، فكان عليهم إثم ذلك ، وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم كما كان يكون لهم مثل أجورهم لو آمنوا بالتبع لهم، وجملة القول أن موسى – عليه السلام –كان مرسلاً إلى قومه بني إسرائيل بالذات ، وإلى فرعون وملئه بالتبع (١) .

قوله : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ .

قال الألوسي : هو علم شخص ثم صار لقباً لكل من مَلِك مصر من العمالقة، كما أن كسرى لقب من مَلِك فارس ، وقيصر لقب من مَلِك الروم ، والنجاشي لقب من مَلِك الحبشة ، وتُبَّع لقب من مَلِك اليمن (٢) .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

قال الألوسي : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ أي : جدير بذلك وحري به لما علمت من حالي (٢) .

﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

قال ابن الجوزي: أي : أَطْلِق عنهم، وكان قد استخدمهم في الأعمال الشاقة (٣).

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

قال الزمخشري : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : عالم بالسحر ما هو فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه حتى خيل إليهم العصى حية والآدم أبيض، فإن قلتَ : قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة « الشعراء » وأنه قال للملأ ، وعزى ههنا إليهم قلتُ : قد قاله هو وقالوه هم ، فحكي قوله ثم

(١) « تفسير المنار» : (٣٩/٩ ، ٤٠) .
(٢) « روح المعاني » : (١٧/٧) .
(٣) « زاد المسير » : (٢٣٧/٣) .

قولهم ، أو قاله ابتداءً فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم [(١)] .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ .

قال القاسمي : أي أخر أمرهما ، وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما ، وتدبر شأنهما ، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح .

وقال أبومنصور : والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو الهم بقتله ، فقالوا : أخره ليتبين حاله للناس ، وأصل ﴿ أَرْجِهْ ﴾ : « أرجئه »[(٢)].

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

قال القاسمي : ولما توثقوا من فرعون .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ .

قيل : خيروا موسى إظهاراً للجلادة ، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره [(٣)] .

وقال الزمخشري : تخييرهم إياه أدب حسن ، راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع [(٤)] .

وقال القرطبي : تأدبوا مع موسى فكان ذلك بسبب إيمانهم [(٥)] .

﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.

قال القاسمي : وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءً لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهي ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً [(٦)] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ *

---

(١) « الكشاف » : (٢/١٣٩) .
(٢) « محاسن التأويل » : (٧/٢٢٨) .
(٣) « محاسن التأويل » (٧/٢٣٠) .
(٤) « الكشاف » : (٢/١٤٠) .
(٥) « الجامع لأحكام القرآن » : (٣/٢٦٩٥) .
(٦) « محاسن التأويل » : (٧/٢٣٠) .

فوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ .

يقول صاحب «الظلال» – عليه رحمة الكبير المتعال –: (إنه الباطل ينتفش ويسحر العيون ويسترهب القلوب ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف، وأنه محيق ! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفقئ كالفقاعة ، وينكمش كالقنفذ ، وينطفئ كشعلة الهشيم ، وإذا الحق راجح الوزن ثابت القواعد عميق الجذور ، والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ وثبت واستقر وذهب ماعداه فلم يعد له وجود ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ وغلب الباطل والمبطلون ، وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون .

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِين ﴾ .

ولكن المفاجأة لم تختم بعد والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة كبرى ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُون ﴾ .

إنها صولة الحق في الضمائر ، ونور الحق في المشاعر ، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين ..

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنِّهم ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه ، وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى ، إن كان من السحر والبشر أو من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر ، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تنكشف له ؛ لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور ، ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق ، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين .

ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر، ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان، ولا كيف تلمسها حرارة اليقين، فهم لطول ما

استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب)[1] .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قال صاحب الظلال – رحمه الله – ما ملخصه : هكذا ﴿ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق ،وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها ، أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً ؛ ولكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس ، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور .

ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز .

﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ وفي نصٍّ آخر : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١] .

والمسألة واضحة المعالم إنها دعوة موسى إلى ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هي التي تزعج وتخيف ، إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين ، وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يُشرعون للناس ما يشاءون ، ويُعبِّدون الناس لما يشرعون ، إنهما منهجان لا يجتمعان أو هما دينان لا يجتمعان أو هما ربان لا يجتمعان .

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق ، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان ، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح .

ولكن النفسَ البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلي على قوة

(١) « في ظلال القرآن » : (٣/١٣٥٠) .

الأرض ، وتستهين ببأس الطغاة ، وتنصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم ، إنها لا تقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع ، ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق .

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع ، كما أنه لا يخضع ولا يخنع ، الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ، ويستقين من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره .

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ .

والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت .. وأنها معركة العقيدة في الصميم لا يداهن ولا يناور ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة .

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ .

والذي يعرف أين يتجه في المعركة وإلى من يتجه لا يطلب من خصمه السلامة والعافية ، وإنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام .

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز ، وتمنى بالقرب من السلطان هي ذاتها التي تستعلي على فرعون ، وتستهين بالتهديد والوعيد .

ويذهب التهديد ، ويتلاشى الوعيد ويمضي الإيمان في طريقه لا يلتفت ولا يتردد ولا يحيد [1] .

---

(١) باختصار من «في ظلال القرآن» (١٣٥١/٣ ، ١٣٥٢) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) قال الجشمي : ينبغي في المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع في القوم ، ويتعذر عليهم مثله ، وكان الطب هو الغالب في زمن عيسى فجاء بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وليس ذلك في وسع طبيب ، وكان الغالب في زمن نبيّنا - عليه السلام - الفصاحة والخطب والشعر، فجاء القرآن وتحداهم به وتدل الآيات على أنهم بالحيل جعلوا الحبال والعصي متحركة ، حتى أوهموا أنها أحياء ، ولكن لما وقف على أصل ما فعلوه وعُلِم وكان مثله مقدوراً لكل من يتعاطى صناعتهم علم أنه شعبذة ، ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة ، أنه يوقف على أصلها ويمكن إتيان مثلها ويخفى أمرها بخلاف المعجزة .

ثم قال: وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف حيث استغاث بهم وبمهنتهم لدفع مكروه (١) .

(٢) قال العلامة محمد رشيد رضا - رحمه الله -: وقد ختم تعالى ما قصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أي : ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتفرغه علينا إفراغاً بتثبيتك إيانا على الإيمان ، وتأييدنا بروحك فيه ، كما يفرغ الماء من القِرَب حتى لا يُبقي في قلوبنا شيئاً من خوف غيرك ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك ، وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك ، غير مفتونين بتهديد فرعون وغير مطيعين له في قول ولا فعل . جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإيمان والإسلام .

يدل على ما قررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر ، تنكيره والتعبير عن

(١) بتصرف من « محاسن التأويل » : (٧/٢٣١) .

إيتائه بالإفراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه ، وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الإيمان فمأخذه من العقل والتجارب أن الصبر من صفات النفس ، وهو عبارة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شيء كالإيمان بالله والخوف منه والرجاء فيه يقوي هذه الصفة في النفس ، ومأخذه من النقل آيات كقوله تعالى في بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٤٢] وقوله فيهم : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ٣] ومما يناسب المقام قوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. [آل عمران : ١٧٥] .

ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك ، وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعللها وفلسفتها أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبراً على مشاق الحرب من غيرهم ، ولذلك يحرص أوسع الناس علماً بسنن الخلق وأشدهم عناية بفنون الحرب كالشعب الألماني بالمحافظة على الدين في جيشهم(١) .

(٣) قال الشيخ أبوبكر الجزائري في «هداية الآيات» :

- بيان سنته تعالى في أن الحق والباطل إذا التقيا في أي ميدان فالغلبة للحق دائماً .
- بطلان السحر وعدم فلاح أهله ولقوله : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٩] (٢) .

** **

(١) « تفسير المنار » : (٧٧/٩) باختصار .
(٢) « أيسر التفاسير » : (٦٤/٢ ، ٦٥) .

هلاك فرعون اللعين ونجاة موسى الكليم ومن معه من المؤمنين :

قال تعالى في [سورة الشعراء : ٥٢-٦٨] :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قال القرطبي – رحمه الله –: قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه ، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه ، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى ، ومعنى ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي : يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم ، وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم فخرج موسى – عليه السلام – ببني إسرائيل سَحَراً [1] .

قال ابن كثير : فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً

(١) باختصار من « الجامع لأحكام القرآن » : (٦/٤٨١٦) .

في بلاده حاشرين أي : من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ ﴾ يعني : بني إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أي : لطائفة قليلة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أي : كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أي : نحن في كل وقت نحذر من غائلتهم ، وقرأ طائفة من السلف ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ أي : مستعدون بالسلاح ، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم ، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أي: فخرجوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ، أي : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ الآية [الأعراف : ١٣٧] . وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [١] [القصص: ٥].

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

قال الألوسي: ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ أي: داخلين في وقت شروق الشمس أي: طلوعها ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أي : تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر [٢] .

قال ابن كثير - رحمه الله -: والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ، ولم يبق ثمَّ ريب ولا لبس ، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » : (٣/٣٣٥ ، ٣٣٦) .
(٢) « روح المعاني » (١٩/٨٤) باختصار .

والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه ، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه .

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه ، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده في جَدّهم وحدّهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ، رب العرش الكريم إلى موسى الكليم ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فلما ضربه يقال إنه قال له : انفلق بإذن الله ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال ، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٧-٧٩] .

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المِحال، أمر موسى أن يجوزه ببني إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين فلما جاوزه وجاوزوه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون [١] .

قوله : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾ .

قال ابن كثير- رحمه الله -: أي : قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه.

---

(١) « قصص الأنبياء » : (٣٥٢ ، ٣٥٣) .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي : أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

** **

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) الرسل هم أوثق الناس بنصر الله – عز وجل – ووعده فلو ضاقت الأمور، وشك الناس في وعد الله بالنصر والفرج فإن الرسل هم أوثق الناس بنصر الله ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

(٢) أجيب في فرعون وقومه دعوة موسى – عليه السلام – أن يطمس الله على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم أي : حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال الله تعالى لهما – أي : لموسى وهارون – حين دعوا بهذا ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾[يونس : ٨٩] فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون –عليهما السلام–(٢).

(٣) المداومة على الأعمال الصالحة في الرخاء سبب للنجاة من الشدائد كما قال بعض السلف : أكثروا من ذكر الله في الرخاء فإن يونس –عليه

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/٣٣٧) .

(٢) بتصرف من « قصص الأنبياء » لابن كثير (٣٥٥) .

السلام – لما وقع في بطن الحوت قال الله – عز وجل – ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣ ، ١٤٤] ولما كان فرعون جاحدا كافراً تاركاً لذكر الله – عز وجل – لما وقع في البحر قال : ﴿ءامَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس : ٩٠] فقال الله تعالى : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١] .

(٤) أهل الإسلام هم أولى الناس بأنبياء الله ورسله.عن ابن عباس قال : قدم النَّبيُّ ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون.قال النبى ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » [1] .

ويشهد له كذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ [آل عمران : ٦٨] .

** **

(١) البخاري رقم : (٩٨٢) مختصره للألباني ، ومسلم رقم : (٦١٣) مختصره للمنذري وغيرهم .

قصة عيسى العبد الرسول
ابن مريم العذراء البتول

فضائل عيسى[1] ابن مريم – صلى الله عليه وسلم –:

(١) من فضائله ما بشر الله به مريم العذراء البتول بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥–٤٦].

قال ابن كثير – رحمه الله –: هذه بشارة من الملائكة لمريم – عليها السلام – بأنه سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير، ويكون وجوده بكلمة من الله أي: يقول له كن فيكون ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم – صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين – وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره معجزة وآية،وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: في قوله وعمله له علم صحيح وعمل صالح[2].

(٢) ومن فضائله أن الله – عزوجل – طهره ورفعه إليه،قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ

---

(١) قال ابن كثير: قيل سمي المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له في ذلك الزمان وافترائهم عليه وعلى أمه «قصص الأنبياء»: (٦٢٣) وقيل: سمي المسيح لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: (٣٦٣/١، ٣٦٤) باختصار.

الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

قال القرطبي : المعنى إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء كقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[طه : ١٢٩] والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمى لكان لزاماً (١) .

وقال ابن كثير – رحمه الله – : وقال الأكثرون المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ الآية [الأنعام: ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ الآية [الزمر: ٤٢] ، وكان ﷺ يقول إذا قام من النوم : « **الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا** » (٢) الحديث .

وقوله : ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

قال الزمخشري : يعلّونهم بالحجة ، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف ، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام ، وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى (٣) .

(٣) ومن فضائله أنه ينزل في آخر الزمان حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « **والذي**

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » : (١٣٤١/٢) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٣٦٦/١) باختصار .

والحديث رواه البخاري : (١٣٠/١١) الدعوات، ومسلم: (٣٥/١٧) الدعوات والتعوذ.

(٣) «الكشاف» : (٣٦٧/١) .

نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبوهريرة : واقرءوا إن شئتم : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ [1] .

قال الحافظ : « **لَيُوشِكَنّ** » أي : ليقربن ، أي : لابُدَّ من ذلك سريعاً.

قوله : « **أن ينزل فيكم** » أي : في هذه الأمة .

قوله : « **حكماً** » أي : حاكماً ، والمعنى أنه ينزل حاكماً بهذه الشريعة ، فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ ، بل يكون عيسى حاكماً من حكام هذه الأمة .

قوله : « **فيكسر الصليب ويقتل الخنزير** » أي : يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة ، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه ، ويستفاد منه تحريم اقتناء الخنزير ، وتحريم أكله ، وأنه نجس ؛ لأن الشيء المنتفع به لا يشرع إتلافه.

قوله : « **ويضع الحرب** » في رواية الكُشْمِيهَنِي « **الجزية** » والمعنى أن الدين يصير واحداً فلا يبقى أحدٌ من أهل الذمة يؤدي الجزية .

قال النووي : ومعنى وضع عيسى الجزية مع أنها مشروعة في هذه الشريعة أن مشروعيتها مقيدة بنزول عيسى لما دل عليه هذا الخبر ، وليس عيسى بناسخ لحكم الجزية بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ بقوله هذا .

قال ابن بطال : وإنما قبلناها قبل نزول عيسى للحاجة إلى المال بخلاف زمن عيسى فإنه لا يحتاج فيه إلى المال ، فإن المال في زمنه يكثر حتى لا يقبله أحد .

قال الحافظ: ويحتمل أن يقال : إن مشروعية قبولها من اليهود والنصارى لما في أيديهم من شبهة الكتاب وتعلقهم بشرع قديم بزعمهم ، فإذا نزل عيسى – عليه السلام – زالت الشبهة بحصول معاينته فيصيرون كعبدة

---

(١) رواه البخاري : (٤٩٠/٦) أحاديث الأنبياء ، ومسلم : (١٨٩/٢ ، ١٩٠) الإيمان .

الأوثان في انقطاع حجتهم وانكشاف أمرهم ، فناسب أن يعاملوا معاملتهم في عدم قبول الجزية منهم؛ هكذا ذكره بعض مشايخنا احتمالاً.

وقوله في الآية ﴿ وَإِنْ ﴾ بمعنى : ما ، أي : لا يبقى أحد من أهل الكتاب اليهود والنصاري إذا نزل عيسى إلا آمن به ، وبذلك جزم ابن عباس .

وعن الحسن قال : قبل موت عيسى ، والله إنه الآن لحي ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون . ونقله عن أكثر أهل العلم .

قال العلماء : الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه ، فبين الله تعالى كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض (١) .

وقال ابن كثير : وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين : تقدم يا روح الله فصلّ. فيقول : لا ، بعضكم على بعض أمراء . مكرمة الله هذه الأمة .

وفي رواية فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك ، فيصلي خلفه ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لُدٍّ فيقتله بيده الكريمة (٢) .

(٤) ومن فضائله وصف الله عز وجل له بأنه كلمته وروح منه :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] .

وعن عبادة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « **من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى**

---

(١) باختصار من « فتح الباري » : (١/٤٩١ ، ٤٩٢) .

(٢) « قصص الأنبياء » : (٦٢٨) والحديث أخرجه أحمد (٣ / ٣٦٧) وغيره ، وقال الألباني : إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح ، إلا أن أبا الزبير مدلس...(انظر قصة الدجال ١/٧٣للألباني) والرواية الأخرى رواها تمام في فوائده (١/١١٨).

عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حقٌّ والنار حقٌّ ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » [١].

قال القرطبي : مقصود هذا حديث التنبيه على ما وقع للنصارى من الضلال في عيسى وأمه ، ويستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم.

وقال النووي : هذا حديث عظيم الموقع وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد ، فإنه جمع فيه ما يخرج عنه جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم .

قال الحافظ : وقوله : ﴿وَكَلِمَتُه﴾ إشارة إلى أنه حجة الله على عباده ، أبدعه من غير أب ، وأنطقه من غير أوانه ، وأحيى الموتى على يده وقيل : سمي كلمة الله لأنه أوجده بقوله كن ، فلما كان بكلامه سمي به كما يقال : سيف الله ، وأسد الله . وأما تسميته بالروح فلما كان أقدره عليه من إحياء الموتى على يده ، وقيل: لكونه ذا روح ، وجد من غير جزء من ذي روح [٢] .

(٥) ومن فضائله قوله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعَلاّت أمهاتهم شتى ودينهم واحد » [٣] .

قال الحافظ : أي : أخص الناس به وأقربهم إليه ؛ لأنه بَشَّر بأنه يأتي من بعده. وقوله : « **الأنبياء أولاد عَلاّت** » وهنا : « **إخوة لعلات** » والعلات الضرائر ، وأولاد العلات الإخوة من أب وأمهاتهم شتى . ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع [٤] .

---

(١) رواه البخاري : (٤٧٤/٦) أحاديث الأنبياء ، ومسلم : (٢٢٧/١) الإيمان .

(٢) باختصار من « فتح الباري » : (٤٧٤/٦) .

(٣) رواه البخاري : (٤٧٨/٦) أحاديث الأنبياء ، ومسلم : (١١٩/١٥) الفضائل بلفظ : **« أنا أولى الناس بابن مريم الأنبياء أولاد علات وليس بيني وبينه نبي »** .

(٤) باختصار من « فتح الباري » : (٤٨٩/٦) .

(٦) ومن فضائله ما رواه أبوهريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه » ثم قال أبوهريرة ، اقرءوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [١] [آل عمران: ٣٦] .

قال النووي : هذه فضيلة ظاهرة وظاهر الحديث اختصاصها بعيسى وأمه، واختار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يتشاركون فيها [٢] .

(٧) ومن فضائله ما رواه أبوهريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : «رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له : أسرقت ؟ قال : كلا والله الذي لا إله إلا هو ، فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عيني » [٣] .

قال النووي : قال القاضي : ظاهر الكلام صَدَّقْتُ من حلف بالله تعالى وكَذَّبْتُ ما ظهر لي من ظاهر سرقته ، فلعله أخذ ما لَهُ فيه حق، أو بإذن صاحبه ، أو لم يقصد الغصب والاستيلاء ، أو ظهر له من مد يده أنه أخذ شيئاً ، فلما حلف له أسقط ظنه ورجع عنه [٤].

وقد تعقبه ابن القيم في كتابه « إغاثة اللهفان » – كما قال الحافظ – فقال : هذا تأويل متكلف ، والحق أن الله كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذباً ، فدار الأمر بين تهمة الحالف وتهمة بصره ، فرد التهمة إلى بصره ، كما ظن آدم صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح [٥].

*** *** ***

---

(١) رواه البخاري : (٢١٢/٨) التفسير ، ورواه مسلم : (١٢٠/١٥) الفضائل .
(٢) « شرح النووي على صحيح مسلم » : (١٢٠/١٥) .
(٣) رواه البخاري : (٤٧٨/٦) أحاديث الأنبياء ، ومسلم : (١٢١/١٥) الفضائل .
(٤) « شرح النووي على صحيح مسلم » : (١٢١/١٥) .
(٥) « فتح الباري » : (٤٩٠/٦) ، وهو في الإغاثة : (١١٥/١) ط. دار المعرفة .

قصة ميلاد عيسى العبد
الرسول من مريم العذراء البتول

قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم : ١٦-٣٥] .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ .

قال القاسمي : أي : اعتزلت وانفردت ﴿ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أي : شرقي بيت المقدس لئلا يشغلوها عن العبادة .

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .

أي : جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا لغاية كماله لينفخ فيها ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أي : فتصور لرؤيتها ﴿ بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أي : سوي الخلق كامل الصورة.

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ .

إنما خافته لانفرادها في خلوتها وظنها أنه يريدها على نفسها وفي ذلك من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه ﴿ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أي : تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به فخوفته أولاً بالله – عز وجل – .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ .

أي : لا تخافي ولا تتوقعي ما توهمت فإني رسول ربك الذي استعذت به، بعثني إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ أي : لأكون سبباً في هبته و«الزكيّ» الطاهر من الذنوب أو النامي على الخير (١) .

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ .

قال الزمخشري : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه كقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [النساء: ٤٣] والزنا ليس كذلك(٢) .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾.

قال ابن كثير : فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت:إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة ، فإنه على ما يشاء قدير ، ولهذا قال : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي : دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم ، الذي نوع في خلقهم فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا

---

(١) « محاسن التأويل » : (١١/ ١١٥ ، ١١٦) باختصار .

(٢) « الكشاف » : (٣/ ١٠) .

أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، فلا إله غيره ولا رب سواه.

﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي : إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد [١].

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

قال القرطبي : ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أي : تنحت بالحمل إلى مكان بعيد ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي : اضطرها ، كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ تمنت مريم – عليها السلام – الموت من جهة الدين لوجهين :

أحدهما : أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها ، وتعيّر فيفتنها ذلك.

الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى، وذلك مهلك [٢].

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ .

قال الشنقيطي : أظهر القولين أن الذي ناداها هو ابنها عيسى ، وتدل على ذلك قرينتان :

الأولى : أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه ، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى .

والقرينة الثانية : أنها لما جاءت به قومها تحمله وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه ، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عند وضعها .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » : (١١٥/٢) .
(٢) « الجامع لأحكام القرآن » : (٤١٣١/٥) .

قال : واختلف العلماء في المراد بالسري هنا فقال بعض العلماء : هو الجدول وهو النهر الصغير لأن الله أجرى لها تحتها نهراً وعليه فقوله تعالى ﴿ فَكُلِي ﴾ أي: من الرطب المذكور في قوله : ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ واشربي من النهر المذكور في قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وإطلاق السري على الجدول مشهور في كلام العرب .

وقال بعض أهل العلم : السري هو عيسى والسري هو الرجل الذي له شرف ومروءة كما قال الأفوه الأودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سُراة لهم ولا سراة إذا جُهَّالُهم سادوا

قال الشنقيطي – رحمه الله –: وأظهر القولين عندي أن السري في الآية النهر الصغير .

قوله تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ .

قال الشنقيطي : والذي يفهم من سياق القرآن أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة ووجه الدلالة قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمنت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسيا لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر . وقد نصَّ الله – جل وعلا – في «آل عمران» ، على خرقه لها العادة في قوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

قال العلماء : كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في

الصيف [١] .

قوله : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ . **قال ابن كثير – رحمه الله –** : وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها ، وقوله : ﴿ فَقُولِي ﴾ أي : بلسان الحال والإشارة ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أي : صمتا ، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام ، فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل [٢] .

قوله : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ .

قال القاسمي: ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي : عظيماً منكراً . ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ استئناف لتجديد التعبير وتأكيد التوبيخ وتقريره لكون ما جاءت به فريًّا و﴿ هَارُونَ ﴾ هو النبي الشهير – صلوات الله عليه– يعنون أنها مثله في الصلاح [٣] .

قال الشنقيطي : إنما هو رجل صالح من بني إسرائيل يسمى هارون ، والدليل على أنه ليس هارون أخا موسى ما رواه مسلم في «صحيحه» عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران سألوني فقالوا : إنكم تقرءون ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال : « **إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم** » [٤] هذا لفظ مسلم في « الصحيح » ، وهو دليل على أنه رجل آخر غير هارون أخي موسى ،

---

(١) « أضواء البيان » : (٤/٢٤٥ – ٢٥٠) باختصار .

(٢) « قصص الأنبياء » : (٥٧٥) باختصار ، وكراهة صمت الصائم إلى الليل ورد فيه الحديث الصحيح في سنن أبي داود ، وانظر صحيح أبو داود للألباني (٢٤٩٧).

(٣) « محاسن التأويل » : (٧/١١٩ ، ١٢٠) باختصار .

(٤) رواه مسلم : (١٤/١١٦ ، ١١٧) الآداب ، والترمذي : (١٢/١٣، ١٤) التفسير . قال النووي: استدل به جماعة على جواز التسمية بأسماء الأنبياء وأجمع عليه العلماء=

ومعلوم أن هارون أخا موسى كان قبل مريم بزمن طويل (١) .

قال ابن كثير – رحمه الله –: فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال، عظم التوكل على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي : خاطبوه وكلموه ، فإن جوابكم عليه ، وما تبغون من الكلام لديه ، فعندها ﴿ قَالُوا ﴾ من كان منهم جباراً شقيا ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أي : كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين محض وزبدة وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء إذ لا تردين علينا قولاً نطيقاً بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبياً .

فعندها :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠-٣٣] .

قال ابن كثير – رحمه الله –: هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم ، فكان أول ما تكلم به أن ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية ، وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين ، في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه، بقوله : ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا – لعنهم الله وقبحهم – كما قال تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا

= إلا ما قدمناه عن عمر قال القاضي : وقدكره بعض العلماء التسمي بأسماء الملائكة وهو قول الحارث بن مسكين قال وكره مالك التسمي بجبريل وياسين .

(١) « أضواء البيان » : (٤/٢٧١) باختصار .

عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٦] ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة – تعالى وتقدس– ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد ، بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة ، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة ، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف ، وقري الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات .

ثم قال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي : وجعلني برا بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها .

فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي : لست بفظ ولا غليظ ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته [1] .

﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

قال القرطبي : أي : السلامة عليّ من الله تعالى ﴿ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ يعني في الدنيا وقيل : من همز الشيطان كما تقدم في [آل عمران] ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ يعني في القبر ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ يعني في الآخرة لأن له أحوالاً ثلاثة وهو معنى قول الكلبي ، ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان [2] .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

قال الألوسي : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة ، وفيه إشارة

---

(١) « قصص الأنبياء » : (٥٧٧ ، ٥٧٨) باختصار .
(٢) « الجامع لأحكام القرآن » : (٤/٤١٤٣ ، ٤١٤٤) .

إلى علو رتبته وبُعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ، ونزوله منزلة المحسوس المشاهد ؛ وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ عِيسَى ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ صفة عيسى ، والمراد : ذلك هو عيسى ابن مريم لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني، حيث جعل موصوفاً بأضداد ما يصفونه كالعبودية لخالقه سبحانه المضادة لكونه -عليه السلام- إلهاً وابنا لله -عز وجل- ، فالحصر مستفاد من فحوى الكلام . ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ نصب على المدح ، والمراد بالحق:الله تعالى؛وبالقول:كلمته تعالى ، وأطلقت عليه – عليه السلام – بمعنى أنه خلق بقول كن من غير أب .

﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي : يشكون أو يتنازعون . ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾ أي : ما صح وما استقام له – جل شأنه – اتخاذ ذلك ، وهو تكذيب للنصارى وتنزيه له – عز وجل – عما افتروه عليه – تبارك وتعالى – .

وقوله – جل وعلا – : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ تبكيت له ببيان أن شأنه تعالى إذا قضى أمراً من الأمور أن يوجد بأسرع وقت فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد، وهو من أمارات الاحتياج والنَّقص[1].

---

(١) « روح المعاني » : (١٦/٩١ ، ٩٢) .

الفـوائـد والآثـار الإيمـانيـة :

(١) **قال الشنقيطي – رحمه الله –:** أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعاً ، وأنه لا ينافي التوكل على الله –جلا وعلا – وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة ، أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعاً لا ينافي التوكل على الله بحال لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه ، فهو متوكل على الله ، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها [١] .

(٢) **وقال رحمه الله :** اعلم أنه على هذا القول الذي اختاره ابن كثير أن المراد بقوله : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أي : قولي ذلك بالإشارة يدل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ؛ لأنها في هذه الآية سميت قولاً على هذا الوجه من التفسير ، وسمع في كلام العرب كثيراً إطلاق الكلام على الإشارة كقوله :

إِذَا كَلَّمَتْنِي بِالعُيُونِ الفَوَاتِرِ ... رَدَدْتُ عَلَيْهَا بِالدُّمُوعِ البَوَادِرِ

فمن الأدلة على قيام الإشارة مقام الكلام :

قصة الأَمَة السوداء التي قال لها رسول الله ﷺ : « **أين الله؟** » فأشارت

---

(١) « أضواء البيان » : (٤/٢٥٠ ، ٢٥١) .

وقال القاسمي : استدل بقوله تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ على التسبب في الرزق وتكلف الكسب وإليه أشار القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَرْيَمٍ ... وَهُزِّي إِلَيْكِ الجِذْعَ يَسَّاقَطُ الرُّطَبْ

وَلَوْ شَاءَ أَحْنَى الجِذْعَ مِنْ غَيْرِ هَزَّةٍ ... إِلَيْهَا وَلَكِنْ كُلُّ شَيءٍ لَهُ سَبَبْ

إلى السماء . فقال رسول الله ﷺ : « أعتقها فإنها مؤمنة » (١) فجعل إشارتها كنطقها في الإيمان الذي هو أصل الديانات .

وروى ابن القاسم عن مالك : أن الأخرس إذا أشار بالطلاق أنه يلزمه.

وقال الشافعي في الرجل يمرض فيختل لسانه : فهو كالأخرس في الرجعة والطلاق . وقال أبوحنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف ، وإن شك فيه فهذا باطل (٢) .

(٣) **قال القرطبي** : قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ولذلك قالوا : التمر عادة للنفساء في ذلك الوقت ، وكذلك التحنيك ، وقيل : إذا عسر ولادتها لم يكن لها خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ذكره الزمخشري (٣) .

(٤) **وقال – رحمه الله –** : من التزم بالنذر ألا يكلم أحداً من الآدميين فيحتمل أن يقال : إنه قربة فيلزم بالنذر ، ويحتمل أن يقال : ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس ونحوه ، وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا قال : ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح قال – عليه الصلاة والسلام – : **« إذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً فَلا يَرْفُثْ ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم »** (٤) .

---

(١) رواه مسلم : (٥/٢٣،٢٤) المساجد ، ومالك في « الموطأ » : (٢/٧٧٦، ٧٧٧)، وأبوداود : (٣٢٦٠) الأيمان والنذور ، والنسائي : (٦/٢٥٢) الوصايا.

(٢) باختصار من « الأضواء » : (٤/٢٥٥،٢٥٦) . وراجع المسألة بالتفصيل : (٤/٢٥٥-٢٦٦) « أضواء البيان » ، و« الجامع لأحكام القرآن » (٥/٤١٤٣،٤١٤٤) .

(٣) « الجامع لأحكام القرآن » : (٥/٤١٣٥) .

(٤) رواه البخاري : (٤/١٠٣) الصوم ، ومسلم : (٨/٣٢) الصيام .

وقال – عليه الصلاة والسلام –: « **من لم يدع قول الزور والعملَ به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه** » (١) .

(٥) **قال القاسمي** : نقل الرازي عن القاضي في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ﴾ إلخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله يحيى ولابد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة ، وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة ، وهي يوم الولادة، ويوم الموت ، ويوم البعث ، فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى ، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات في كل الأحوال (٢) .

(٦) **قال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله –**: لقد جرت بسنة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء جرت هذه السنة أحقاباً طويلة ، حتى استقر في تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة ونسوا الحادث الأول حادث وجود الإنسان ، لأنه خارج عن القياس فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم – عليه السلام – ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها ولم يتكرر حادث عيسي لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله وأن ينفذ الناموس الذي اختاره ، وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية مَعْلَماً بارزاً على حرية المشيئة وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾(٣) [مريم : ٢١] .

** **

---

(١) رواه مسلم : (٥/٤١٣٧) ، والحديث رواه البخاري : (٤/١١٦) الصوم ، وأبوداود : (٦/٤٨٨) الصوم ، والترمذي : (٣/٢٢٦) الصوم .

(٢) « محاسن التأويل » : (١١/١٢٣) .

(٣) « في ظلال القرآن » : (٤/٢٣٠٥) .

معجزاته ﷺ وخبر نزول المائدة وبراءة عيسى من افتراء النصارى :

قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ * وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٠-١١٨] .

قال القاسمي – رحمه الله –: ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أي : منّتي عليك ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ بما طهرها واصطفاها على نساء العالمين ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ أي:

قوّيتك ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي : بجبريل - عليه السلام - لتثبيت الحجة أو نجعل روحك طاهرة عن العلائق الظلمانية ؛ بحيث يعلم أنه ليس بواسطة البشر فيشهد ببراءتك وبراءة أمك ، ومن ذلك التأييد قويت نفسك الناطقة لذلك ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي : في أضعف الأحوال وأقواها بكلام واحد ، في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد [١] .

وقال ابن كثير : أي : جعلتك نبيًا داعياً إلى الله في صغرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ، ودعوتك إلى عبادتي ؛ ولهذا قال : ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي : تدعو إلى الله الناسَ في صغرك وكبرك ، وضمَّن ﴿ تُكَلِّمُ ﴾ تدعو ؛ لأن كلامه إلى الناس في كهولته ليس بأمر عجيب [٢] .

وقال الألوسي : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي : جنسهما وقيل الكتاب : الخط ، والحكمة : الكلام المحكم الصواب ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ خصهما بالذكر إظهاراً لشرفهما . ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ أي : تصور ﴿ مِنَ الطِّينِ ﴾ أي : جنسه ﴿ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ أي : هيئته مثل هيئته ﴿ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ أي : في تلك الهيئة المشبهة ﴿ فَتَكُونُ ﴾ بعد نفخك من غير تراخٍ ﴿ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أي : حيواناً يطير كسائر الطيور . ﴿ وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ عطف على ﴿ تَخْلُقُ ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ عطف على ﴿ إِذْ تَخْلُقُ ﴾ وأعيدت فيه ﴿ وَإِذْ ﴾ لكون إخراج الموتى من قبورهم بعد ما صاروا رميماً معجزة باهرة حرية بتذكير وقتها صريحاً .

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ ﴾ يعني : اليهود حين هموا بقتله ولم يتمكنوا منه . ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : المعجزات الواضحة [٣].

---

(١) « محاسن التأويل » : (٦/٤٢٥) . (٢) « تفسير القرآن العظيم » : (٢/١١٥) .
(٣) « روح المعاني » : (٧/٥٧ ، ٥٨) باختصار وتصرف يسير.

﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قال القاسمي : إن قيل : إن السياق في تعديد نعمة الله تعالى على عيسى – عليه السلام – وقول الكفار في حقه ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس من النعم بحسب الظاهر فما السر في ذلك ؟ فالجواب : أن من الأمثال المشهورة : إن كل ذي نعمة محسود ، فطعن اليهود بهذا الكلام يدل على أن نعم الله تعالى في حقه كانت عظيمة ، فحسن ذكره عند تعديد النعم[1] .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله – : وهذا أيضاً من الامتنان عليه – عليه السلام – بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً ، ثم قيل : المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[القصص : ٧] وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية : أي : ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا . قال الحسن البصري : ألهمهم الله – عز وجل – ذلك .

قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون المراد : وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك فقالوا : ﴿ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [2] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

قال الزمخشري : وقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ، وكذلك قول عيسى – عليه السلام – لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ، ولا تتحكموا ما تشتهون من

(١) « محاسن التأويل » : (٦/٤٢٧) . لكن مَثَل «كل ذي نعمة محسود » جاء في حديث صحيح عن النبي ﷺ رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٩٤) وغيره ، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٥٣) وصحيح الجامع (٩٤٣) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » : (٢/١١٥) .

الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة ، وقرئ ﴿ هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ ﴾ أي : هل تستطيع سؤال ربك والمعنى : هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله ، والمائدة : الخوان إذا كان عليه الطعام [1] . ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

قال العلامة محمد رشيد رضا : أي : نطلبها لأربع فوائد :

إحداها : أننا نريد أن نأكل منها لأننا في حاجة إلى الطعام ولا نجد ما يسد حاجتنا ، وقيل : المراد أكل التبرك .

الثانية : نريد أن تطمئن قلوبنا بما نؤمن به من قدرة الله بمشاهدة خرقه للعادة ، أي بضم علم المشاهدة واللمس والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال .

الثالثة : أن نعلم هذا النوع من العلم – أي : علم المشاهدة – أي : الحال والشأن معك هو أنك قد صدقتنا ما وعدتنا من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات .

الرابعة : أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل فيؤمن المستعد للإيمان ويزداد الذين آمنوا إيماناً . فهذا ما نراه في توجيه أقوالهم على المختار من صحة إيمانهم .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

أي : لما علم عيسى – عليه السلام – صحة قصدهم ، وأنهم لا يريدون تعجيزاً ولا تجربة ، دعا الله تعالى بهذا الدعاء ، فناداه باسم الذات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة والحكمة والرحمة وغير ذلك فقال : ﴿اللَّهُمَّ﴾ ومعناه يا الله ، ثم باسم

---

(١) «الكشاف» : (٦٩٣/١) .

الرب الدال على معنى الملك والتدبير والتربية والإحسان خاصة ، فقال : ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي : يا ربنا ومالكنا كلنا ومتولي أمورنا ومربينا أنزل علينا مائدة سماوية جثمانية أو ملكوتية ، يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم وتتغذى بها أبدانهم أو أرواحهم ، ولم يقل من السماء لشمل الطلب إعطاءهم مائدة من الأرض ولو بطريقة عادية .

ثم وصف عيسى – عليه السلام – هذه المائدة بما أحب أن يستفاد من إنزالها فقال في وصفها : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ أي : عيداً خالصاً بنا معشر المؤمنين دون غيرنا ، أو تكون كرامة ومتاعاً لنا في عيدنا .

وكلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور ، وبمعنى الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين أو أيام معينة من السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا .

وقوله : ﴿ وَآيَةً مِّنكَ ﴾ معناه : وتكون آية وعلامة منك على صحة نبوتي ودعوتي [1] .

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال القرطبي – رحمه الله – : هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين ، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق ، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير ، قال ابن عمر : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون .

قال : واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا ؟ فالذي عليه الجمهور – وهو الحق– نزولها لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ [2] .

---

(١) « تفسير المنار » : (٢٥٢/٧–٢٥٣) باختصار .
(٢) « الجامع لأحكام القرآن » : (٢٣٦٦/٣) باختصار .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله – : يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم – عليه السلام – يوم القيامة على سبيل الإكرام له ، والتقريع والتوبيخ لعابديه ، ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه تعالى الله عما يقولون . فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ، ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أي : تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي : ليس هذا يستحقه أحدٌ سواك . ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ أي : ما قلت غير ما أمرتني به حين أرسلتني إليهم وأنزلت عليَّ الكتاب الذي كان يتلى عليهم ، ثم فسر ما قاله لهم بقوله : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي : خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي : رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه، فلما كان ذلك ﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب – عز وجل – والتبري من أهل النصرانية ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أي : وهم يستحقون ذلك .

﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم [1] .

**** **** ****

(١) « قصص الأنبياء » : (٥٨٦ ، ٥٨٧) .

فوائد وآثار إيمانية :

(١) **قال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله –** : يكشف لنا هذا الحوار – حوار طلب المائدة – عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم – وهم الحواريون – فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد .

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم ، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا يطلبون خارقة جديدة تطمئن بها نفوسهم ، ويعلمون منها أنه صدقهم ويشهدون بها لمن وراءهم .

فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان ، ولقد صدّقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان ، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن [1] .

(٢) **يقول العلامة محمد رشيد رضا** : إن هذه العبادة التي توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح – عليهما السلام – منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء واستغاثة واستشفاع ، ومنها صيام ينسب إليها ويسمى باسمها ، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها وتماثيلها واعتقاد السلطة الغيبية لها التي يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها ، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها ، ولكن لا نعرف عن فرقة من فرقهم إطلاق كلمة (إله) عليها بل يسمونها (والدة الإله) ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لا مجاز . والقرآن يقول هنا إنهم اتخذوها وابنها إلهين ، والاتخاذ غير التسمية ، فهو يصدق

---

(١) «في ظلال القرآن» : (٢/٩٩٨) بتصرف .

بالعبادة وهي واقعة قطعاً ، وبين في آية أخرى أنهم قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٧] وذلك معنى آخر ، وقد فسر النبي ﷺ قوله تعالى في أهل الكتاب ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] أنهم اتبعوهم فيما يحلون ويحرمون لا أنهم سموهم أرباباً [(١)] .

(٣) **الغلو في المخلوق سبب شرك الأمم** : فالنصارى لعنهم الله غلوا في عيسى – عليه السلام – حتى جعلوه ابن الله أو ثالث ثلاثة ، وقد رد الله عز وجل عليهم ذلك بقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٣-٧٥] .

قال ابن كثير – رحمه الله – : بين حال المسيح وأمه ، وأنه عبد رسول ، وأمه صديقة ، أي : ليست بفاجرة كما يقول اليهود – لعنهم الله – وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا ، وقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما ؛ أي : من كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً ؟!! ، تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً [(٢)] . أ . هـ .

ولما كان الإطراء والغلو في المخلوق من أعظم أسباب شرك الأمم نهى النبي ﷺ عن إطرائه فقال ﷺ : « **لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله** » [(٣)] .

---

(١) « تفسير المنار » : (٧/٢٦٢ ، ٢٦٣) . (٢) « قصص الأنبياء » : (٥٨٥ ، ٥٨٦) .

(٣) رواه البخاري : (٦/٤٧٨) الأنبياء ، وهذا الحديث طرف من حديث السقيفة . ورواه البغوي في « شرح السنة » : (١٣/٢٤٦) الفضائل .

رفع عيسى - عليه السلام -
وكذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى في سورة آل عمران :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٥] . وقد تقدم شرح الآية في الفضائل .

وقال تعالى في سورة النساء [١٥٥-١٥٩] :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

قال ابن كثير - رحمه الله -: وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات ، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيى الموتى - بإذن الله - ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشهد طيرانه بإذن الله - عز وجل - إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها ، وأجراها على يديه ، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم ، حتى جعل نبي الله عيسى لا يساكنهم في بلدة ، بل يكثر السياحة هو وأمه - عليهما السلام - ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان ، وكان رجلاً مشركاً من عبَدة

الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه ، فغضب الملك من هذا وكتب لنائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس ، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى – عليه السلام – وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر ، وقيل سبعة عشر نفراً ، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحصروه هنالك ، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيكم يلقى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب ، فقال : أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو ، وفتحت روزنة من سقف البيت ، وأخذت عيسى – عليه السلام – سنة من النوم فرفع إلى السماء ، وهو كذلك ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ الآية فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ أي : وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [1] .

انتهى بحمد الله ما جمعناه ،
والله الموفق لما يحبه ويرضاه ، ويمنّ علينا بإتمام ما بدأناه ،
ويرزقنا بره وذخره يوم نلقاه .

---

(١) باختصار من « تفسير القرآن العظيم » : (١/٥٧٣ ، ٥٧٤) .



مقدمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مُباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، والشكر له على ما أَوْلَى من نعمٍ سابغةٍ وأسْدَى ، نحمده سبحانه وهو الوليُّ الحميدُ، ونتوب إليه – جل شأنه – وهو التواب الرشيد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة نستجلب بها نِعَمه ونستدفع بها نقمه ، وندخرها عدة لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله، ﷺ وعلى سائر النبيين ورضي الله عن صحابته الأبرار الذين قاموا بحق صحبته وحفظ شريعته وتبليغ دينه إلى سائر أمته ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ...

فإنَّ أصدقَ الحديث كتاب الله، وخيرَ الهَدي هَدْي محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكلَّ محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

وبعد أيضاً ...

فهذا الجزء الثاني من كتاب : « **تَيْسِيرُ المَنَّانِ فِي قَصَصِ القُرآنِ** » أقدمه إلى إخواننا الكرام بعد أن قَرَّت أعينهم برؤية الجزء الأول الذي تضمن قصص أولي العزم من الرسل ، وفي هذا الجزء الثاني المبارك قصص بقية مشاهير الأنبياء والرسل الكرام ، قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠] وذلك من أجل إحياء ذكرى الأنبياء الكرام ، وزيادة الإيمان بهم ، فمن أركان الإيمان الستة الإيمان بالرسل ، ثم هم القدوة الحسنة للبشرية ، وهم قادة ركب الإيمان إلى السعادة الأخروية ، يتأسى بهم المؤمنون ، وينسج على منوالهم الدُّعَاة المخلصون ، ويكون حبهم واتباعهم سبباً في الاجتماع بهم يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون .

وقد أفْصَحْتُ عن طريقتي في البحث في الجزء الأول بما يغني عن إعادته ، ولكن أشير إشارة سريعة إلى ذلك ، وهو أنني قصدت تجريد القصص من الأخبار الضعيفة والموضوعة ، وكذلك الإسرائيليات التي يثق بها المتهوكون ، ويكثر من نقلها من هو في بضاعة الكتاب والسنة مَغْبُونٌ، فإن الله – عز وجل – أغنانا بكتابه وسنة رسوله المعصوم ، عن أن نحتاج إلى كتب أهل الكتاب التي عبثت بها أيدي التحريف والتبديل ، فلا يدري من ينقل شيئاً منها هل هو من الصحيح المنزل أم من المحرف أو المبدل ، ولذا أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نصدقهم ولا نكذبهم ، وقد رأيت بعض من وثق بكتب أهل الكتاب وأشبع نفسه ومصنفه منها فوقع في نسبة الشنائع بالأنبياء الكرام . فأردت أن يكون هذا الكتاب عَسلاً مصفى ، خالياً من الضعيف والموضوع والإسرائيليات ، وكذلك الأسماء والزيادات التي ليس عليها دليل من الكتاب أو السنة الصحيحة ، ثم إلقاء الضوء على الآيات الكريمات التي تبين كيف تكون الدعوة إلى الله – عز وجل – وكيف يكون الصبر على دين الله ، والثقة بنصر الله – عز وجل – والوقوف على مواطن العبرة والعظة من الأمم السالفة ، والفوائد الفقهية ، والآثار الإيمانية ، ولا يضيرني كثرة النقل ، وحسبي أنني أقرب لإخواننا ما في بطون

الكتب الكبار فيقفون على ما فيها من فوائد وحكم ومُلَح وآثار حتى يفتح الله - عز وجل - وهو الفتاح العليم بشيء فأثبته بعد دراسة الآيات ومعرفة أقوال أهل العلم فيها ، وأنا على يقين بفضل الله - عز وجل - أني في ذلك على سبيلٍ وسنةٍ ، كما حاولت أن أرتب الأنبياء الكرام المذكورين في هذا الجزء ترتيباً زمانياً وأسوتي في ذلك كتاب الله - عز وجل - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكما في سورة الأعراف وهود والشعراء يأتي ذكر هود ثم صالح ثم لوط ثم شعيب - صلى الله عليهم وسلم - فاتبعته في ذلك ، أما عن أنبياء بني إسرائيل فبحسب الاجتهاد والاتباع لبعض علماء السنة والتاريخ ، ذكرت يوسف - عليه السلام - ثم أيوب ، ثم يونس ، ثم داود ، ثم سليمان - عليهم الصلاة والسلام - هذا وقد بدأت بذكر أبي الأنبياء وأبي البشر آدم - عليه السلام - .

وبعد لا أطيل على القارئ الكريم مقدمتي فأحرمه من صحبة الأنبياء الكرام، وما ذكره الملك العلام في حقهم ، وما صح من سنة خير الأنام في فضلهم وشرفهم ، وكل ذلك - بحمد الله - بتفسير العلماء الأثبات الذين فتح الله عليهم في الدين ، وكانت لهم اليد البيضاء على الأمة إلى أن يقوم الناس لله رب العالمين .

وذلك كما أشرت في الجزء الأول من باب « التصفية » حتى يتربى إخواننا الكرام على ما تربى عليه صحابة النبي - عليه الصلاة والسلام - .

وأسأل الله العظيم أن يغفر لي تقصيري وزللي ، وأن ينفعني يوم القيامة بصالح عملي ، والله يعلم ما قصدت ، وما بجمعه وترتيبه أردت ، فهو عند قصد كل عبدٍ ونيته ، وهو المطلع على ما ظهر من عمله ، وما خفي من سريرته .

والحمد لله على كل نعمة وله وحده الحمد والمنة ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

* * *

قصة آدم – عليه السلام –

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠ – ٣٩].

وقبل أن نبدأ في شرح هذه الآيات الكريمات التي تبين لنا كيف خلق الله آدم – عليه السلام – وهذا لا شك من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله لأن الغيب يشمل الماضي والمستقبل : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن : ٢٦، ٢٧] نبدأ بالتعرف على آدم – عليه السلام – وهو أيضاً من الغيب ، ولا سبيل إلى معرفة الغيب إلا الكتاب والسنة الصحيحة .

كيف خلق آدم - عليه السلام - :

آدم – عليه السلام – هو أبو البشر ، وأول الأنبياء ، خلافاً لما يزعمه الفلاسفة من أن البشرية كانت على الشرك في ابتداء أمرها ، فعبدت الشمس والقمر والشجر والبقر باجتهادها ، ويدل على بطلان هذا القول كذلك قول ابن عباس – رضي الله عنهما – وهو في حكم الرفع : « **كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على الإسلام** » (1) .

وخلافاً لما يزعمه اليهودي دارون في نظريته التي ألقيت في مزبلة التاريخ ، حيث شهد الشرع والعقل ببطلانها ، وهو أن الإنسان إنما هو حيوانٌ متطور عن قردٍ وإنما نشأ لهم هذا الضلال المبين ، والإفك المشين ، لأنهم عَمِيَتْ أعينهم عن وحي السماء ، وطمست قلوبهم فلم تع ما جاء به الأنبياء ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور : ٤٠] .

وهذا الوحي الصادق القرآن والسنة الصحيحة يبين له كيف خُلِقَ آدم – عليه السلام – وما هي صفته ، وكيف خلقت منه زوجته .

قال الله تعالى :﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها مِن جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب والسهل والحَزَنُ وبين ذلك** » (2) .

---

(1) رواه الحاكم (٢/٤٤٢) عن ابن عباس موقوفاً وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

(2) رواه الترمذي (١١/١٦ ، ١٧) عارضة التفسير ، وأبو داود (٤٦٦٨) السنة ، باب القدر . وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح . وصححه الألباني في الصحيحة ١٦٣٠ وقوله ﷺ : « **فجاء بنو آدم على قدر الأرض** » .

قال شمس الحق أبادي قال في النهاية : أي : مبلغها من الألوان والطباع جاء منهم =

وعن أنس رفعه : « **لما خلق الله آدم تركه ما شاء الله أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك** » (١).

قال الحافظ : وآدم اسم سرياني وهو عند أهل الكتاب آدَام بإشباع فتحة الدال بوزن خاتام ، وزنه فاعال ، وامتنع صرفه للعُجمة والعلمية .

وقال الثعلبي : التراب بالعبرانية آدام فسمي آدم به وحذفت الألف الثانية وقيل : هو عربي جزم به الجوهري والجواليقي ، وقيل : هو بوزن أفعل من الأدمة وقيل : من الأديم لأنه خلق من أديم الأرض وهذا عن ابن عباس (٢) .

أما عن صفته - عليه السلام - :

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « **خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال : اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يجيبونك ، تحيتك وتحية ذريتك . فقال : السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن** » (٣)

== الأحمر والأبيض والأسود بحسب ترابهم وهذه الثلاثة هي أصول الألوان وما عداها مركب منها وهو المراد بقوله ﷺ « **وبين ذلك** » أي : بين الأحمر والأبيض والأسود باعتبار أجزاء أرضه قاله القاري ، « **والسهل** » أي : منهم السهل أي : اللين المنقاد « **والحزن** » أي : الغليظ الطبع « **والخبيث** » أي : خبيث الخصال « **والطيب** » - عون المعبود (١٢-٤٥٦ ، ٤٥٧) .

(١) رواه مسلم (١٦/١٦٤) البر ، وأحمد (٣/١٥٢، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٥٤) .
قال النووي : ومعنى : لا يتمالك ، لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه ، وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب والمراد جنس بني آدم - شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٦٤) .

(٢) فتح الباري (٦/٣٦٤) .

(٣) رواه البخاري (٦ / ٣٦٢) أحاديث الأنبياء ، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير .

وقال ﷺ : « **إنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته** » (١) .

قال العلامة حمود بن عبد الله بن حمود التويجري : قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في رده على الرازي : إن هذا الحديث مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة – رضي الله عنهم – وأنه لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير عائد إلى الله تعالى ، وأن سياق الأحاديث كلها تدل على ذلك : **وقال أيضاً** : « إن الأمة قد اتفقت على تبليغه وتصديقه ، ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفة الضمير فيه عائداً إلى غير الله تعالى ، وسيأتي كلامه في الرد على هذه الطائفة مستوفى إن شاء الله تعالى (٢).

أما عن زوج آدم فلم يحدثنا القرآن عن اسمها ، ولا عن كيفية خلقها ، بل أشار إلى ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] .

وأكثر المفسرين يذهبون إلى أن الله – عز وجل – خلقها من ضلع آدم وربما يستأنسون لذلك بقوله ﷺ : « **استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه** » (٣) .

وذهب بعضهم إلى أن معنى قوله : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي : خلقها من جنسه ؛ حتى لا يكون بينهم تنافر (٤) .

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٢٣) وصحح الألباني في الصحيحة (١٠٧٧) الحديث بطرقه .

(٢) عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم عليه السلام على صورة الرحمن ص (٥) دار اللواء .

(٣) رواه البخاري (٦/٣٦٣) الأنبياء ، قال القرطبي : قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع وقال الشاعر :

هِيَ الضِّلَعُ العَوْجَاءُ لَسْتَ تُقِيمُهَا ... ألاَ إنَّ تَقْوِيمَ الضُّلُوعِ انْكِسَارُهَا

أَتَجْمَعُ ضَعْفاً وَاقْتِدَاراً عَلَى الفَتَى ... أَلَيْسَ عَجِيباً ضَعْفُهَا وَاقْتِدَارُهَا

(٤) انظر « القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته » للدكتور:فضل حسن عباس ص (٦٢) دارالفرقان.

ولنبدأ في شرح الآيات الكريمات في القصة ثم نردف ذلك بالفوائد والآثار الإيمانية .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة : ٣٠].

قال القاسمي : أي : قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وقال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل :٦٢] .

وقال : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُون ﴾ [1] [الزخرف:٦٠].

وقال الشنقيطي – رحمه الله –: وقوله :﴿خَلِيفَةً﴾ وجهان في التفسير للعلماء :

أحدهما : أن المراد بالخليفة أبونا آدم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره . وقيل : لأنه صار خلفاً من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله .

الثاني : أن قوله : ﴿ خَلِيفَةً ﴾ مفردٌ أريد به الجمع ، أي : خلائف . وهو اختيار ابن كثير ، والمفرد إذا كان اسم جنس يكثر في كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر:٥٤] يعني وأنهار ، بدليل قوله : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [محمد : ١٥] وإذا كانت هذه الآية الكريمة تحتمل الوجهين المذكورين ، فاعلم أنه قد دلت آياتٌ أُخَر على الوجه الثاني ، وهو أن المراد بالخليفة الخلائف ، من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة:٣٠] الآية والمعلوم أن آدم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – ليس ممن يفسد فيها ، ولا ممن يسفك الدماء ، وكقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٣٩]

---

(١) محاسن التأويل (١/٩٤ – ٩٥) .

الآية|وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] الآية ، وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ الآية [النمل : ٦٢] ونحو ذلك من الآيات [١] .

قوله : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

قال الزمخشري : فإن قلتَ : لأي غرض أخبرهم بذلك ؟ قلتُ : ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به ، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم ، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم ، وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم ، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة [٢] .

و قال القاسمي : هذا تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها ، واستعلام عن الحكمة في ذلك ، أي : كيف تستخلف هؤلاء ، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك – أي لا يصدر عنا شيء من ذلك – وهلا وقع الاقتصار علينا ...؟ فقال تعالى مجيباً لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إن لي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها [٣] .

ثم بين الله تعالى لهم شيئاً من حكمته في تفضيل آدم وذريته واستخلافهم في الأرض فقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣١ – ٣٢] .

(١) أضواء البيان (٤٨/١ – ٤٩) باختصار .
(٢) الكشاف (١٢٤/١) الريان .
(٣) محاسن التأويل (٩٥/٢، ٩٦) .

قال القاسمي : ولما بين سبحانه وتعالى لهم أولاً على وجه الإجمال والإبهام أن في الخليفة فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها ، أبرز لهم طرفاً منها ليعاينوه جهرة ، ويظهر لهم بديعُ صُنعِهِ وحكمته ، وتنزاح شبهتهم بالكلية ، فقال : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ﴾ الآية (١) .

قال ابن كثير – رحمه الله –: ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ قال ابن عباس : هي الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها (٢) .

قال الشنقيطي : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ ﴾ يعني : مسميات الأسماء لا الأسماء كما يتوهم من ظاهر الآية ، وقد أشار إلى أنها المسميات بقوله : ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾ الآية كما هو ظاهر (٣) .

قوله : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قال القاسمي : تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ، واعتراف منهم بالعجز والقصور عما كُلِّفُوهُ ، وأنه العالم بكل المعلومات ، التي من جملتها استعداد آدم – عليه السلام – لما نحن بمعزل عن الاستعداد له ، من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات التي عليها يدور فلك خلافة الحكيم ، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم آدم – عليه السلام – ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على ما

(١) محاسن التأويل (٢/٩٨) .
(٢) قصص الأنبياء (٩) .
(٣) أضواء البيان (١/٦١) .

في الأرض وبناء الخلافة عليها [١] اهـ .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة :٣٣] .

قال أبو جعفر بن جرير الطبري : إن الله – جل ثناؤه – عرف ملائكته الذين سألوه أن يجعلهم الخلفاء في الأرض ، ووصفوا أنفسهم بطاعته والخضوع لأمره دون غيرهم الذين يفسدون فيها ويسفكون الدماء ، أنهم من الجهل بمواقع تدبيره ومحل قضائه قبل إطلاعه عليه على نحو جهلهم بأسماء الذين عرضهم عليهم إذ كان ذلك عالم يعلمهم فيعلموه ، وأنهم وغيرهم من العباد لا يعلمون من العلم إلا ما علّمهم إياه ربهم ، وأنه يخص بما شاء من العلم من شاء من الخلق ويمنعه منهم من شاء ، كما علم آدم أسماء ما عرض على الملائكة ومنعهم علمها إلا بعد تعليمه إياهم [٢] .

وبعد أن أظهر الله – عز وجل – مزية آدم – عليه السلام – واستحقاقه للخلافة تمنن عليه بكرامة عظيمة فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة : ٣٤] .

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته ، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم ، وحديث موسى – عليه السلام –: **« رب أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة ، فلما اجتمع به قال : أنت آدم الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته »** [٣] .

---

(١) محاسن التأويل (٩٩/٢ ، ١٠٠) .

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن (١٧٥/١) – دار المعرفة .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧٥/١) – دار المعرفة – بيروت .

وقال – رحمه الله – في القصص : فهذه أربع تشريفات ، خَلْقُه بيده الكريمة ، ونَفْخُهُ من روحه ، وأَمْرُهُ الملائكة بالسجود له ، وتعليمه أسماء الأشياء ، ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا كما سيأتي : « **أنت آدم أبو البشر ، الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء** » وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم [1] .

قال القاسمي : للناس في هذا السجود أقوال : أحدها أنه تكريم لآدم وطاعة لله ولم يكن عبادة لآدم ، وقيل : السجود لله وآدمُ قِبلةٌ أو السجود لآدم تحية ، أو السجود لآدم عبادة بأمر الله وفرضه عليهم ، وذكر ابن الأنباري عن الفراء وجماعة من الأئمة أن سجود الملائكة لآدم كان تحية ولم يكن عبادة ، وكان سجود تعظيم وتسليم وتحية لا سجود صلاة وعبادة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال أهل العلم : السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه وعلى هذا إجماع كل من يُسْمَع قوله ، فإن الله تعالى قال : ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ ولم يقل إلى آدم وكل صرف له معنى ، وفرق بين « سَجَدتُ له » وبين « سجدتُ إليه » قال الله تعالى : ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ [فصلت : ٣٧] ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٥] أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشجار والدواب محرم ، وأما الكعبة فيقال : كان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس ثم صلى إلى الكعبة ، ولا يقال صلى لبيت المقدس ولا للكعبة ، والصواب : أن الخضوع بالقلوب والاعتراف بالعبودية لا يصلح على الإطلاق إلا لله سبحانه، وأما السجود فشريعة من الشرائع يتبع الأمر . فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحدٍ من خلقه لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره ، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة

(١) قصص الأنبياء (١١) .

يتقربون بها إليه ، وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم ، وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام ، ولم يأت أن آدم سجد للملائكة ، بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين وبالجملة أهل السنة قالوا : إنه سجود تعظيم وتكريم وتحية له . وقالت المعتزلة : كان آدم كالقبلة يسجد إليه ولم يسجدوا له . اهـ . ملخصاً [١] .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٣٤].

قال الشنقيطي – رحمه الله –: لم يبين هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٣٣] .

تنبيـه : مثل قياس إبليس نفسه على عنصره الذي هو النار ، وقياسه آدم على عُنصرِهِ الذي هو الطين ، واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم ؛ ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه ، مع وجود النص الصريح الذي هو قوله تعالى : ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود :

«والخلص [٢] للنص أو إجماع دعا

فساد الاعتبار كل من وعى»

فكل من رد نصوص الوحي بالأقيسة فسلفه في ذلك إبليس [٣] ، وقياس

---

(١) محاسن التأويل (٢/١٠١–١٠٢) .

(٢) لعلها والخُلْفُ .

(٣) أحب أن أنبه هنا إلى خطأ صاحب المنار – رحمه الله وغفر لناوله – حيث إنه جزم بأن إبليس من الملائكة فيقول – رحمه الله – ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ أي : سجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس وهو فرد من أفراد الملائكة كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة إلا آية الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجن : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ =

إبليس هذا – لعنه الله – باطل من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه فاسد الاعتبار لمخالفة النّص الصريح كما تقدم قريباً .

= إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف:٥٠] (المنار: ٢٦٥/١) ولو أنصف – رحمه الله – لقال هذه الآية في سورة الكهف نص في محل النزاع أما قوله ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ فيجوز في اللغة أن يكون المستثنى خلاف المستثنى منه كما تقول مثلا : خرج التلاميذ إلا المدرس ثم قال – رحمه الله –: « وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر» وهذا أيضاً مردود بقول النبي ﷺ : « **خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم** » الحديث رواه مسلم (١٢٣/١٨نووي) والمارج لهب النار المختلط بسوادها . والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؛ أما الجن فكما قال الله تعالى في سورة الجن : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٤ ، ١٥] ثم قال – رحمه الله – بعد ذلك : « فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة» مع أنه – رحمه الله – سمى وازع الإيمان في نفس العبد ملكاً حيث قال في موضع آخر (المنار : ٢٦٨) : «يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعاً كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى فهذا يورد وذاك يدفع وأحد يقول : افعل ، وآخر يقول : لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً . وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه وروح لا تكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً (أو يسمى أسبابه ملائكة) أو ما شاء من الأسماء فإن التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع . وهذا الكلام فساده يغني عن توجيه النقد إليه فإن الملائكة مخلوقات نورانية وصفهم الله تعالى بأن لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع إلى غير ذلك من صفاتهم والواجب على المسلم أن يتعرف عليهم وأن يؤمن بما ورد في الكتاب والسنة من صفاتهم ووظائفهم لأن ذلك من أصول الإيمان الستة .

الثاني : أنا لا نسلم أن النار خير من الطين ، بل الطين خير من النار لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق ، وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة ، والنواة فيعطيكها نخلة . وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة وما فيها من الثمار اللذيذة والأزهار الجميلة ، والروائح الطيبة ، تعلم أن الطين خير من النار .

الثالث : أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين ، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم ؛ لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع ، بل قد يكون الأصل رفيعاً والفرع وضيعاً ، كما قال الشاعر :

وَإِذَا افْتَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ

قُلْنَا صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا (١)

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

اختلف العلماء في الجنة التي أدخلها آدم هل هي في السماء أو في الأرض .

قال ابن كثير – رحمه الله –: والجمهور على أنها هي التي في السماء ، وهي جنة المأوى ، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] والألف واللام ليست للعموم ، ولا لمعهود لفظي ، وإنما تعود على معهود ذهني ، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى ، وكقول موسى – عليه السلام –: « **علام أخرجتنا ونفسك من الجنة** » (٢) .

---

(١) أضواء البيان (١/٦٢ – ٦٣) .

(٢) رواه البخاري (١١/٥٠٥) القدر ، ومسلم (١٦/٢٠٢) القدر ، وأبو داود (٤٦٧٦) والترمذي (٨/٢٩٨) القدر .

وعن أبي هريرة وحذيفة قالا : قال رسول الله ﷺ : «يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا .. استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟» وذكر الحديث بطوله [١].

هذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنَّة المأوى ، وليست تخلو عن نظر [٢] .

وقال آخرون : بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد ، لأنه كُلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولأنه نام فيها وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى [٣] .

قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦]

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله –: ويا للتعبير المصور ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾ إنه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها، وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوي [٤].

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري : أخبر تعالى أن الشيطان أوقع آدم وزوجه في الخطيئة حيث زين لهما الأكل من الشجرة فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما فلم يصبحا أهلاً للبقاء في الجنة ، فأهبطا إلى الأرض مع عدوهما إبليس ليعيشوا بها بعضهم لبعض عدو ، إلى نهاية الحياة [٥] .

---

(١) الحديث رواه مسلم (٦٩/٣ – ٧٠) الشفاعة .
(٢) انظر تحقيق المسألة في حادي الأرواح لابن القيم – رحمه الله – .
(٣) قصص الأنبياء (١٦) .
(٤) في ظلال القرآن (٥٢/١) .
(٥) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (٣٩/١) .

قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧] . **قال الزمخشري** : معنى تلقي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها ، وقُرئ بنصب آدم ورفع الكلمات ، على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به ، فإن قلتَ : ما هن ؟ قلتُ : قوله تعالى: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ الآية [الأعراف : ٢٣] (١) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

قال ابن كثير – رحمه الله – : يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته حين أهبطهم من الجنة والمراد الذرية ، أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل كما قال أبو العالية : الهُدَى : الأنبياء والرسل والبينات والبيان . وقال مقاتل بن حيان : الهُدَى : محمد ﷺ . وقال الحسن : الهُدَى : القرآن . وهذان القولان صحيحان وقول أبي العالية أعم . ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ أي : من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا كما في سورة طه: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] .

قال ابن عباس : فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] كما قال ههنا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي : مخلدون لا محيد لهم عنها ولا محيص (٢) .

---

(١) الكشاف (١٢٨/١) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨٢/١) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) قال القرطبي : هذه الآية – أي : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾ أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة ، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة ، إلا ما روي عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه،قال : إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك ، وإن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم وتناصفوا فيما بينهم وبذلوا الحق من أنفسهم وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها وأقاموا الحدود على من وجبت عليه أجزأهم ذلك ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك . ودليلنا قول الله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ [ص : ٢٦] وقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [النور : ٥٥] أي : يجعل منهم خلفاء إلى غير ذلك من الآي. وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين ، حتى قالت الأنصار : منّا أمير ومنكم أمير ، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش ، ورووا لهم الخبر في ذلك ، فرجعوا وأطاعوا لقريش ، فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم ، لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولقال قائل : إنها ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم فما لتنازعكم وجه ، ولا فائدة في أمر ليس بواجب ، ثم إن الصديق – رضي الله عنه – لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر في الإمامة ولم يقل له أحد هذا أمر غير واجب علينا ولا عليك ، فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين ، والحمد لله رب العالمين [١] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٢٦) ط الشعب .

(٢) **قال العلامة السعدي** : ومنها – أي : من فوائد هذه القصة – أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً ، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد ، فكبر إبليس وحسده لآدم صيره إلى ما ترى ، وحرص آدم وزوجته حملهما على تناول الشجرة ، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك ، ولكن رحمة الله تكمل الناقص ، وتجبر الكسير وتنجي الهالك وترفع الساقط.

(٣) **وقال – رحمه الله –**: ومنها أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف ، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص وإنابة صادقة، فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما فنفوز بالسعادة وننجو من الهلكة ، وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعدنا وعزمه الأكيد على إغوائنا بكل طريق إلا لنستعد لهذا العدو، الذي تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة ، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته ، وفعل الأسباب التي يخشى فيها الوقوع في شباكه ، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة والأذكار القلبية والتعوذات المتنوعة ومن السلاح المهلك له من صدق الإيمان ، وقوة التوكل على الله ، ومراغمته في أعمال الخير ، ومقاومة وساوسه ، والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة [١] .

(٤) **قال القاسمي – رحمه الله –** في وجوه فوائد من الآية؛ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾**الأول** : دلت الآية على أن الله تعالى ـ في عظمته وجلاله ـ يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه، لا سيما عند الحيرة . والسؤال يكون بالمقال، ويكون بالحال والتوجه إلى الله تعالى في إفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سنته تعالى بأن

(١) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٠٦ – ١٠٧) .

يفيض منها – كالبحث العلمي والاستدلال العقلي ، والإلهام الإلهي .

الثاني : إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة، فنحن أولى بأن يخفى علينا ، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها ؛ لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا ..!

الثالث : أن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم بإقامة الدليل – بعد الإرشاد – إلى الخضوع والتسليم. وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون ﴿ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ ﴾ [البقرة : ٣١] [١] .

(٥) **وقال – رحمه الله –**: في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ قولان : **أحدهما**: أنه وقت العبادة كان منافقاً ، **والثاني** : أنه كان مؤمناً ثم كفر، وهذا قول الأكثرين . فقيل في معنى الآية : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ في علم الله، أي : كان عالماً في الأزل أنه سيكفر والذي عليه الأكثرون : أن إبليس أول كافر بالله . أو يقال : معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك . واختلف السلف بأي سبب كفر إبليس – لعنه الله – فقالت الخوارج : إنما كفر بمعصية الله وكل معصية كفر ، وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ؛ وقال آخرون : كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله ؛ وقال آخرون : كفر لأنه خالف الأمر الشفاهي من الله فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود ومخالفة الأمر الشفاهي أشد قبحاً .

وقال جمهور الناس : كفر إبليس لأنه أبى السجودَ ، واستكبر وعاند، وطعن[٢] ، واعتقد أنه محق في تمرده . واستدل بـ ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ كما يأتي فكأنه ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته ، وهذا الكبر عبر

(١) محاسن التأويل (٢/٩٧) .

(٢) كذا ولعله « وطغى » .

عنه رسول الله ﷺ بقوله : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** »[١] .

(٦) **قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله –:** اعلم أن في هذه الآية – وهي قوله تعالى : ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾ – تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه (الأول) إنما يتصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي قال الشاعر :

يَا نَاظِراً يَرْنُو بِعَيْنَي رَاقِدِ ... وَمُشَاهِداً لِلأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلى الذُّنُوبِ وتَرْتَجِي ... دَرجَ الجِنَانِ وَنَيْلَ فَوزِ العَابِدِ
أَنَسِيتَ رَبَّكَ حِيْنَ أَخْرَجَ آدَمَا ... مِنْهَا إِلى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

قال ابن القاسم :

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تُرَى ... نَعُودُ إِلى أَوْطَانِنَا وَنُسلمُ

قال الرازي عن فتح الموصلي أنه قال : كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها[٢] .

(٧) **وقال – رحمه الله –:** فإن قيل فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقول الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طرداً قدرياً ، والقدري لا يُخَالف ولا يُمَانع ؟ فالجواب : أن هذا بعينه استدل به من يقول : إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء . وأجاب الجمهور بأجوبة : أحدها : أنه منع من دخول الجنة مكرماً ، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع ، ولهذا قال بعضهم كما جاء في التوراة : أنه دخل في فم الحية إلى الجنة .

وقد قال بعضهم : أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة .

---

(١) محاسن التأويل (٢/١٠٤ – ١٠٥) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٨١) .

وقال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض وهما في السماء ذكرها الزمخشري وغيره [١] .

(٨) **يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله –**: وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة ، إنها بين عهد الله وغواية الشيطان ، بين الإيمان والكفر ، بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال . . والإنسان هو نفسه ميدان المعركة، وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها ، وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان ، وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان .

(٩) **وقال – رحمه الله –** : وأخيراً تجيء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة.. إن الخطيئة فردية والتوبة فردية في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض ، ليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده كما تقول نظرية الكنيسة – وليس هناك تكفير لاهوتي ، كالذي تقول الكنيسة : إن عيسى – عليه السلام – (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه ، تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم !!... كلا خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة ، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة تصور مريح صريح يحمل كل إنسان وزره ، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط . . ﴿ **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾[٢] .

(١٠) **قال الشنقيطي – رحمه الله –** : إن الله تعالى عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاظم والتكبر فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة ، وذلك في قوله : ﴿ **إِنَّكَ**

---

(١) السابق (٨١/١) بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن (٥٥/١) .

مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣] والصَّغَار أشد الذل والهوان ، وقوله : ﴿ .. اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف : ١٨] ونحو ذلك من الآيات ، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة ، وإنما يحصل له نقيض ذلك وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله : ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ (١) [غافر : ٥٦] .

(١١) أشار قوله – عز وجل – : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] إلى أن ظهور السوءات وبُدُو العورات إنما هو عقوبة من عقوبات الذنوب والمعاصي وليس علامة على المدنية والتحضر ، وإنما هو ارتكاس وبُعدٌ عن الفطرة ، وقد تمنن الله – عز وجل – على بني آدم باللباس الذي يواري السوءات والرياش التي يتجمل بها فقال تعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

(١٢) قوله تعالى لآدم وزوجه بعد المعصية ﴿ اهْبِطُوا ﴾ يدل على أن المعصية تكون سبباً في الحرمان من أسباب السعادة ، كذلك من كان له حال مع الله – عز وجل – يجد بها حلاوة الإيمان والعمل الصالح ، إذا عصى الله – عز وجل – فإنه يحرم من هذه السعادة ويهبط عن هذه الدرجة كما قيل لبعض الصالحين : أيجد لذة الطاعة من يعصي ؟ قال : لا ، ولا من يهم .

* * *

(١) أضواء البيان (٢/٢٦٣) .

قصة هود عليه السلام

قبيلة عاد قوم هود عليه السلام من أقدم الأمم ، قال الله تعالى حاكياً عن هود عليه السلام أنه قال لهم : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف : ٦٩] وكانت بالأحقاف باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا عمالقة عظام الأجسام كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ [الفجر : ٦ : ٨] .

وهم عاد الأولى ؛ **قال ابن كثير** : كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، فبعث الله عز وجل إليهم هوداً عليه السلام . وسوف نذكر إن شاء الله تعالى دعوته كما جاءت في سورة الأعراف حيث فصلت السورة دعوة هود عليه السلام ، وأجملت قصة عذاب قومه وهلاكهم ، ثم نذكر ما جاء في سورة فصلت والحاقة حيث بين الله عز وجل كيف أهلكهم ، ثم نردف ذلك بالفوائد والآثار الإيمانية للقصة .

دعوة هود - عليه السلام - :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٥ - ٧٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

قال القاسمي : أي : أخاهم في النسب لأنه منهم في قول النسابين .

وقيل : الناس كلهم إخوة في النسب ، لأنهم ولد آدم وحواء ، فالمراد صاحبهم وواحد من جملتهم كما يقال : (أخا العرب) للواحد منهم ، وإنما أرسل منهم لأنهم أفهم لقوله من قول غيره وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله ، وأرغب في اقتفائه [١] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[الأعراف : ٦٦].

قال ابن كثير : المقصود أن عاداً كانوا جفاة كافرين ، عتاة متمردين في عبادة الأصنام ، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له ، فكذبوه وخالفوه ، وتنقصوه ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ أي : هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : ليس الأمر

---

(١) محاسن التأويل (٧/١٦٤) .

كما تظنون ولا كما تعتقدون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم ، ولا يبتغي منهم أجراً ، ولا يطلب منهم جعلاً ، بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه ، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله ، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه ، وأمره إليه ، ولهذا قال : ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [1] [هود : ٥١] .

قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٦٩] .

قال الشنقيطي – رحمه الله – : أنكر تعالى في هذه السورة الكريمة على قوم نوح وقوم هود عجبهم من إرسال رجل ، وبين في مواضع أخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك ، قال في عجب قوم نبينا ﷺ من ذلك : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس : ٢] وقال : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق : ٢] وقال عن الأمم السابقة : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : ٦] .
وصرح بأن هذا العجب من إرسال بشر مانع للناس من الإيمان بقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : ٩٤] ورد عليهم ذلك في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ [2] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ

---

(١) قصص القرآن (٩٩) .
(٢) أضواء البيان (٢/٢٨٩ – ٢٩٠) .

بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] .

قال العلامة محمد رشيد رضا : أي : واذكروا فضل الله عليكم ونعمه إذ جعلكم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح ، وزادكم في المخلوقات بسطة ، وسعة في الملك والحضارة ، أو زادكم بسطة في خلق أبدانكم ، إذ كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان ، فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعدّه للشاكرين [1] .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] .

قال القرطبي – رحمه الله – : طلبوا العذاب الذي خوفهم به وحذرهم منه فقال لهم : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم ﴾ ومعنى وقع أي : وجب ، والرجس العذاب [2].
وهو قوله تعالى : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٧١] .

قال الشنقيطي – رحمه الله – : لم يبين هنا شيئاً من هذا الجدال الواقع بين هود – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – وبين عاد ولكنه أشار إليه في مواضع أخر كقوله : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [3] .[هود : ٥٢ – ٥٦] .

(١) باختصار وتصرف من تفسير المنار (٤٩٨/٨) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٦٧٣/٣) .
(٣) أضواء البيان (٢٩٠/٢) .

وقال ابن كثير - رحمه الله - : أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهي لا تضر ولا تنفع ، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً ! ولهذا قال : ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ، ولهذا عقبه بقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) [الأعراف : ٧٢] .

هلاك عاد قوم هود :

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت : ١٥ - ١٦] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بغوا وعتوا وعصوا ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أي : منُّوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي : أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ، فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وأن بطشه شديد ، كما قال - عز وجل - : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ فبارزوا الجبار بالعداوة ، وجحدوا بآياته وعصوا رسله ، فلهذا قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ قال

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢٥) .

بعضهم : هي الشديدة الهبوب ، وقيل : الباردة ، وقيل : هي التي لها صوت ، والحق أنها متصفة بجميع ذلك ، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جدًا كقوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أي : باردة شديدة البرد ، وكانت ذات صوت مزعج اهـ (١) .

ووصف الله – عز وجل – حالهم بعد هذه الريح الشديدة فقال تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧ – ٨] .

قال القرطبي: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا ﴾ أي : في تلك الليالي والأيام ﴿ صَرْعَى ﴾ جمع صريع ، يعني موتى وقيل : ﴿ فِيهَا ﴾ أي : في الريح ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ أي : أصول ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ أي: بالية . قاله أبو الطفيل . وقيل : خالية الأجواف لا شيء فيها ، وقال ابن شجرة : كانت الريح تدخل في أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم ، فصاروا كالنخل الخاوية . ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أي : من فرقة باقية ، أو نفس باقية .

وقال ابن جريج : كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله من الريح ، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر ، فذلك قوله – عز وجل – : ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ وقوله – عز وجل – : ﴿ فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ (٢) [الأحقاف : ٢٥] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٩٤ – ٩٥) .

(٢) تفسير القرطبي (٨/٦٧٤٠) بتصرف واختصار .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) **قال القاسمي** : قال الزمخشري : في إجابة الأنبياء – عليهم السلام – من نسبهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ، أدب حسن وخلق عظيم ، وحكاية الله – عز وجل – ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ، ويسبلون أزيالهم على ما يكون منهم اهـ .

وزاد القاضي : إن في ذلك كمال النصح والشفقة ، وهضم النفس ، وحسن المجادلة ، قال : وهكذا ينبغي لكل ناصح .

(٢) **وقال – رحمه الله –** : لا يعتمد على ما يذكره بعض المؤرخين من المبالغة في طول قوم عادٍ وضخامة أجسامهم ، وأن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً ، فإن ذلك لم يقم عليه دليل عقلي ولا نقلي وهو وهم ، وأما قوله – جل شأنه – مخاطباً لقوم عاد : ﴿ **وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً** ﴾ فإنه لا يدل على ما أرادوا ، وإنما يدل على عظم أجسادهم وقوتها وشدتها ، وهذا من الأمور المعتادة، فإن الأمم ليست متساوية في ضخامة الجسم وطوله وقوته ، بل تتفاوت لكن تفاوتاً قريباً ، ومما يدل على أن أجسام من سلف كأجسامنا لا تتفاوت عنها تفاوتاً كبيراً مساكن

ثمود قوم صالح الباقية ، وآثارهم البادية [1] .

(٣) **وقال – رحمه الله – في موضع آخر : قال الرازي :** استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية ﴿ **فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ** ﴾ على أن بعض الأيام قد يكون نحساً ، وبعضها قد يكون سعداً ، لأن النحس يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافي ، ثم أطال الرازي في الجواب والإيراد ، ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافي لا ذاتي ، وإلا لكان اليوم الذي يراه المنجمون نحساً مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس ، وكذا ما يرونه سعداً والواقع بخلاف ذلك ، إذ اليوم النحس عند زيد قد يكون سعداً عند بكر ، بل الساعة بل الدقيقة فأين تلك الدعوى ! والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع ومن لطائفهم تسمية وقت الشدة والبؤس بالنحس ، ومقابلتها بالسعد ، فالنحس نحس على صاحبه ، والسعد سعد على صاحبه[2] .

(٤) **يقول الدكتور فضل حسن عباس : إن هوداً – عليه السلام – أراد أن لا** يحارب مشاعر قومه وينال من عواطفهم بادئ ذي بدء ، بل جاراهم

---

(١) محاسن التأويل (٧/١٦٧، ١٦٨) .

والدليل أن آدم – عليه السلام – كان طوله ستين ذراعاً ثم تناقص الخلق ، وكذلك وصف الله – عز وجل – لهم بعد هلاكهم أنهم ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] ووصف ثمود بقوله سبحانه : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩] فالظاهر والله أعلم أن هناك تفاوتاً ليس قريباً كما قال الشيخ – رحمه الله – إلا أن المبالغة الزائدة كذلك مردودة.

(٢) السابق (١٤ / ٢٦١ – ٢٦٢) .

وتلطف معهم ، قد نجد قوماً ما طغت عليهم عاطفة حب المال فإذا جئنا لنسفه هذه العواطف في نفوسهم وننال منها فإن ذلك سيحدث ردة فعل لا تنتج إلا عكس ما نريده ونقيض ما نبتغيه ، لكن الطريقة المثلى إذا أردنا أن نستأصل هذه العاطفة ونبعدها أن نقوي عاطفة أخرى من العواطف الخيرة كالإنفاق في سبيل الله وبذل الخير ، فإن أراد الله بهم خيراً فإن ما يحدث هو أن تتصارع العاطفتان فتقوى إحداهما على الأخرى ، وهذا النَّهجُ الذي كان من هود – عليه السلام – فلقد أراد أن يشذب هذا الذي في نفوسهم ويهذب تلك العواطف فها هو يقول لهم : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [1] [هود : ٥٢] .

(٥) الجزاء من جنس العمل ، فلما كانت عاد قد مَنَّ الله عليهم بالقوة الجسدية وبالأسباب المادية ، وكان عندهم من الكبر والطغيان حتى قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ كانت عقوبتهم بأن سلط الله عليهم ريحاً هي أشد منهم قوة ، فكانت تحمل الواحد منهم على ضخامته وقوته إلى السماء ثم تقذف به ظاهر الأرض فتتكسر رأسه ويصير بدنه كأنه جذع نخلة ، فكان هذا جزاء كبرهم وقوة بطشهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

* * *

---

(١) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته (١٠٥) .

قصة صالح – عليه السلام –

قبيلة ثمود قوم صالح – عليه السلام – كانوا يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك ، وقد مر النبي ﷺ عليهم وهو ذاهب إلى تبوك ، روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور ، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبلَ ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال : « **إني أخشى أن يصيبكم ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم** » [1] وعنه قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : «**لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم** » [2] .

وفي بعض الروايات أنه – عليه الصلاة والسلام – لما مر بمنازلهم قنعَ رأسه وأسرع راحلته ، ونهى عن دخول منازلهم ، إلا أن يكونوا باكين .

أما زمانهم فدل القرآن على أنهم بعد قوم عاد كما قال تعالى حاكياً عن نبيه صالح : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ** ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

وكثيراً ما يقرن الله – عز وجل – بين ذكر عاد وثمود ، ويأتي غالباً ذكر ثمود بعد عاد ، وقال العلامة السعدي : وهي عاد الثانية [3] . وكانوا أهل مواشٍ كثيرة وأهل حروث وزروع ، وتواصلت عليهم النعم ولكنهم كفروا بنعم الله

---

(١) رواه البخاري (٦/٣٧٨) الأنبياء .
(٢) رواه البخاري (٦/٣٧٩) الأنبياء.
(٣) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١١٤) .

عز وجل فأرسل الله عز وجل لهم رسولاً منهم يعرفون صدقه وأمانته وهو صالح – عليه السلام – فكان مما قصه الله عز وجل علينا في القرآن .

قال الله تعالى في [سورة الأعراف : ٧٢ – ٧٩] : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾.

أي : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب والوطن صالحاً ، فدعاهم بدعوة الأنبياء قبله وبعده ، وهي قوله : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ ثم ذكرهم بالآية وهي المعجزة العظيمة التي أجراها الله – عز وجل – على يده ، فبعد أن قال لهم : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فصل هذه البينة فقال: ﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله – : وقد ذكر المفسرون أن ثموداً اجتمعوا يوماً في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة – وأشاروا إلى صخرة هناك – ناقة من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافاً سموها

ونعتوها وتعنتوا فيها ، وأن تكون عُشَرَاء طويلة من صفتها كذا وكذا . فقال لهم النبي صالح – عليه السلام – : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله – عز وجل – ما قدر له ثم دعا ربه – عز وجل – أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشَرَاء على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا . فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ، ومنظراً هائلاً ، وقدرة باهرة ، ودليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً ، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم . ولهذا قال : ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي : جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها ، أي : أكثرهم[1] .

وقال محمد رشيد رضا – رحمه الله – : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ هذا بيان مستأنف للبينة – أي : هذه ناقة الله تعالى – أضافها إلى اسمه الكريم تعظيماً لشأنها ، وقيل : لأنه خلقها على خلاف سنته في خلق الإبل وصفاتها ، وقيل : لأنه ليس لها مالك . قوله: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال : فدل مجموع الآيات على أن آية الله تعالى في الناقة أن لا يتعرض لها أحد من القوم بسوءٍ في نفسها ، ولا في أكلها ولا في شربها ، وأن ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة ؛ إذ كان ماءً قليلاً ، فكانوا يشربونه يوماً وتشربه هي يوماً ، وورد أنهم كانوا يستعيضون في يومها بلبنها ، روي هذا عن ابن عباس وقتادة[2] .

---

(١) قصص القرآن (١١٧) .

(٢) بتصرف واختصار من تفسير المنار (٨/٥٠٢) .

ثم ذكرهم بنعم الله – عز وجل – عليهم ، وكيف أن الواجب عليهم إزاء هذه النعم الشكر وإفراده – عز وجل – وحده بالعبادة .

فقال – عليه السلام – : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

قال القاسمي : قال الشهاب : لم يقل (خلفاء عاد) إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : أنزلكم في أرض الحجر ، والمَبَاءة : المنزل ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أي : تبنون في سهولها قصوراً لتسكنوها أيام الصيف ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ أي : لتسكنوها أيام الشتاء (١) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف :٧٥ – ٧٦] .

قال القاسمي : عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى) مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر ، الذي تنبئ عنه الجملة الاسمية ، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه ، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به ، أفاده أبو السعود . فهذا من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقي السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب تنبيها على أنه هو الذي ينبغي أن يسأل عنه .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

---

(١) محاسن التأويل (٧/١٨٠) بتصرف واختصار .

وإنما لم يقولوا : (إنا بما أرسل به كافرون) إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم ، قال في (الانتصاف) : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، ولكن أبَوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم كما قال فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون ﴾ [الشعراء : ٢٧] فأثبت إرساله تهكماً وليس هذا موضع التهكم ، فإن الغرض إخبار كل واحدٍ من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله ، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر ، وغلواً في الإصرار . انتهى .

ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه في إصابة العذاب عَن مسها بالسوء كما قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِين ﴾[1] [الأعراف : ٧٧] .

قال الزمخشري : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَة ﴾ أسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحدٌ منهم ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين ، وأمْرُ ربهم ما أَمَرَ به على لسان صالح – عليه السلام – من قوله ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّه ﴾ أو شأن ربهم ، وهو دينه[2] .

وقال محمد رشيد رضا : ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : تمردوا مستكبرين عن امتثال أمر ربهم . ضمن العتو معنى الاستكبار، والعتو في اللغة التمرد والامتناع ، ويكون عن ضعف وعجز ، ومنه (عتا الشيخ وبلغ من الكبر عتيا) :

(١) محاسن التأويل (١٨٣/٧) بتصرف .
(٢) الكشاف (١٢٣/٢) .

إذا أسن فامتنع من المواتاة على ما يراد منه . وعن قوة وعتو ، كوصف الريح الشديدة بالعاتية ، ومنه عتو الجبارين والمستكبرين ، وتوصف النخلة العالية بالعاتية لامتناعها على من يريد جناها إلا بمشقة التسلق والصعود [١] .

روى أحمد والحاكم بإسنادٍ حسنه الحافظ ابن حجر عن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « **لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، وكانت تشرب يوماً ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله – وهو أبو رغال – فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه** » [٢] .

﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي – عليه رحمة ربنا العلي – : وكان في المدينة تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة ، يصدون عن سبيل الله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وكان صالح قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كبرهم وردهم الحق ، فأول ما فعل أولئك الملأ الأشرار أن عقدوا مجلساً عامًّا ليتفقوا على عقر الناقة فاتفقوا ، فانتدب لذلك أشقى القبيلة ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾[الشمس : ١٧] أي : بعد اتفاقهم وندبهم إياه بعثوه لذلك ، فانبعث واستعد وتكفل لهم بعقرها وهم جميعاً راضون بل آمرون ، فعقرها ، فكان هذا العقر مؤذناً بهلاك القبيلة

---

(١) المنار (٨/٥٠٥ – ٥٠٦) .

(٢) أحمد (٣/٢٩٦) ، والحاكم (٢/٣٥١) وغيرهما ، وضعفه الألباني (الضعيفة ٤٣٣٤) ، وانظر الحافظ في الفتح (٦ / ٣٨٠) عند شرح الحديث رقم (٣٣٨١) .

بأسرها ، فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظراً فظيعاً علم أن العذاب قد تحتم لا محالة ، لأن الجريمة قد تفاقمت ولم يبق حالة يرجى فيها لهم تقويم ، فقال لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] ونبه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم ، ففي أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة ، على قتل نبيهم صالح ، وتعاهدوا وتعاقدوا وحلفوا الأيمان المغلظة ، وكتموا أمرهم خشية من منع أهل بيته ؛ لأنه في بيت عزٍّ وشرفٍ ، وقالوا : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ ثم إذا ظُنَّ بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائه أننا ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [النمل : ٤٩] فدبروا هذا المكر العظيم ولكنهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح ، فحين كمنوا في أصل الجبل لينظروا الفرصة في صالح بدأ الله بعقوبتهم ، فكانوا سلفاً مقدماً لقومهم إلى نار جهنم ، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم وقتلوا أشنع قتلة ، ثم لما تمت ثلاثة هذه الأيام جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من أسفل منهم فأصبحوا خامدين ، ونجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين وقال : ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [1] [الأعراف : ٧٩] .

وقال ابن كثير – رحمه الله – : أي : جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ﴿ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي : لم تكن سجاياكم تقبل الحق ، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد ، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان ، والذي وجب علي من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد [2] .

---

(١) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١١٥) .

(٢) قصص الأنبياء (١٢٤) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) **قال القاسمي : قال الرازي** : زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت ، وهي: الرجفة والطاغية والصيحة ، والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده سواءٌ كان حيواناً أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة ، فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت . وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد ، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها . وأما الصيحة فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة . وأما الصاعقة فالغالب أنها الزلزلة ، وكذلك الزجرة ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾[1] [النازعات : ١٣ – ١٤] .

(٢) **قال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله** : مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم وإلى كل دعوة إصلاح ؛ لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم ، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون والأغنياء المترفون ، لأنه يشق عليهم أن يكونوا مرءوسين ، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الإسراف الضار وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال ، وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم صالح عن قولهم للمؤمنين منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قيل : إن السؤال للتهكم والاستهزاء ، ولا مانع من جعله استفهاماً حقيقيا إن سألوهم عن العلم بأنه مرسل لارتيابهم في اتباعهم إياه عن علم برهاني ، وتجويزهم أن يكون عن استحسان ما وتفضيل له عليهم واختيار لرياسته على رياستهم[2] .

(٣) أهل الباطل يبغضون من يدعوهم إلى الحق ويحاول أن يحملهم عليه ، فصالح عليه السلام كان محبوباً عندهم قبل أن يدعوهم إلى التوحيد ونبذ

---

(١) محاسن التأويل (١٩٣/٧) باختصار .

(٢) تفسير المنار (٥٠٤/٨) .

الشرك، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًا قَبْلَ هَذَا ﴾ ثم تغير الحال بعد دعـوته إياهم حتى صار من أبغض الناس إليهم مع أنه تلطف معهم في الدعـوة وصبر عليـهم ، وأجاب طلبتهـم من سؤال ربه الناقـة التي طلبـوها ، ولكن الحق الذي عليه هو الذي بغضه إليـهم ، كمـا قال تعـالى عن أصحاب الأخدود: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُم إلا أنْ يُؤمِنُوا بالله العَزِيْزِ الحَمِيْدِ ﴾ [البروج : ٨] فأهل الحق ليس لهم أهداف دنيوية ، ولا ينافسـون أهل الدنيا على مناصبها والغلوّ فيها ، ولكنه الصراع بين الحق والباطل ، والعاقبة للمتقين .

(٤) أهل الإيمان كما يتـفاضلون في الإيمان كما هو معتقد أهل السنة والجماعة ، فإيمان الصديق رضي الله عنه ليس كـإيمان فسـاق الأمة ، كـذلك أهل الـشر والفسـاد يتفاضلون في الشر والفساد ، وبعـض الشر أهون من بعض ، فمع أن أكثر قوم صالح كانوا كافـرين مفسدين إلا أن تسعة منهم كانوا أكثـرهم شراً وفساداً ، ولذا قـال الله عــز وجل : ﴿ وَكَـانَ فِي الْمَـدِينَـةِ تِسْعَـةُ رَهْطٍ يُفْسِـدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُـونَ ﴾ [النـمل : ٤٨] وقـد عجل الله عـز وجل لهـم العقـوبة والهلاك قـبل بقية قومـهم ، وإلى ذلك كذلك الإشارة بقـوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَـنَّ مِن كُلِّ شِيعَـةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَـلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُـمْ أَوْلَىٰ بِهَـا صِلِيـًّا ﴾ [مريم :٦٩ –٧٠] .

(٥) ينبغي للحِفْنَة المؤمنة أن تثق بنصر الله عز وجل وأن لا يهـولها مكر الماكرين من المفسـدين والذين يصـدون عن سبيـل رب العـالمين ، فـإن الله من ورائهم محـيط ، وإن كـانـوا يمكرون بأهل الإيمان فـإن الله يمكر بهـم من فـوق سبـع سماوات ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون ﴾ [النمل : ٥٠ – ٥٣].

* * *

قصة لوط – عليه السلام –

لوط – عليه السلام – كان معاصراً لإبراهيم وقد ذكر كثير من المفسرين أنه كان ابن أخيه [١] وقال السعدي بأنه تلميذه ، وكان له بمنزلة الابن ، فنبأه الله بحياة الخليل وأرسله إلى قرى سدوم من غور فلسطين .

قال ابن كثير رحمه الله : وكان لوط قد نزح عن محلة عَمِّه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه ، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر ، وكان أمَّ تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية ، وأردئهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيلَ ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم ، وهي إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين [٢]

دعوة لوط عليه السلام :

قال الله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠ – ٨٤] .

قال القاسمي رحمه الله : ﴿ وَلُوطًا ﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ما

(١) وهذا مأخوذ من التوراة المحرفة التي لا نصدق ما فيها ولا نكذبه ولكن القرآن بين أنه ممن آمن بدعوة إبراهيم قال الله عز وجل : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ فالأولى ما ذكره السعدي رحمه الله.
(٢) قصص الأنبياء (١٩٢) .

سبق ، أي : وأرسلنا لوطاً . وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم – عليهما السلام – وهاجر معه إلى الشام وتوطنا بلد الكنعانيين من فلسطين وهي الأرض المقدسة ، ثم حدثت مشاجرة بين رعاتهما فنزح لوط إلى وادي الأردن وسكن مدينة سدوم فبعثه الله إلى أهلها [١] .

ثم بين تعالى إنكار لوط عليهم بقوله سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ أي : الفعلة المتناهية في القبح ، وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال أبو السعود : والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع ، فإن مباشرة القبح قبيح ، واختراعه أقبح ، فأنكر تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة ، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها ، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيداً للإنكار السابق وتشديداً للتوبيخ بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

قال الألوسي : ﴿ الرِّجَالَ ﴾ دون الغلمان والمردان ونحوهما ،كما قال شيخ الإسلام : مبالغة في التوبيخ ، كأنه قال لتأتون أمثالكم ﴿ شَهْوَةً ﴾ نصب على مفعول له أو لأجل الاشتهاء لا غير ، أو على الحالية بتأويل مشتهين ، وجوز أن يكون منصوباً على المصدرية ، وناصبه ﴿ لَتَأْتُونَ ﴾ لأنه بمعنى تشتهون ، وفي تقييد الجماع الذي لا ينفك عن الشهوة بها إيذاناً بوضعهم على المصدرية بالبهيمية الصرفة ، وأن ليس غرضهم إلا قضاء الشهوة ، وفيه تنبيه على أنه ينبغي للعاقل أن يكون الداعي إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الشهوة ، وجوز أن يكون الإنكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة القذرة الخبيثة ، كما ينبئ عليه قوله تعالى ﴿ مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أي : متجاوزين النساء اللاتي هن محل الاشتهاء عند ذوى الطباع السليمة ، كما يؤذن به قوله سبحانه: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [٢].

---

(١) محاسن التأويل (٧/١٩٥ – ١٩٦) .

(٢) روح المعاني (٨/١٧٠) .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون ﴾ .

قال الشوكاني : ما كان لهم جواب إلا هذا القول المباين للإنصاف المخالف لما طلبه منهم وأنكره عليه ، وجملة ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون ﴾ تعليل لما أمروا به من الإخراج ، ووصفهم بالتطهر يمكن أن يكون على حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة فلا يساكنونا في قريتنا ، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء [١] .

وقال الزمخشري : يعني ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله ، ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجراً بهم وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم، وقوله ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الشُّطَّارُ من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد [٢] .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِين ﴾ فأَجْمَلَ هنا في سورة الأعراف كيف أنجاه الله – عز وجل – وأهله إلا امرأته وكيف أهلك الظالمين ، وما أُجْمِلَ هنا فصِّلَ في مواضع أخر ، ومن ذلك سورة هود .

قصة هلاك قوم لوط :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا

(١) فتح القدير (٢/٢٢٢) .

(٢) الكشاف (٢/١٢٥– ١٢٩) .

يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٧٧ – ٨٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : ٧٧] .

قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً – عليه السلام – وهو على ما قيل في أرض له ، وقيل : في منزله ، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاءً من الله وله الحكمة والحجة البالغة ، فساءه شأنهم، وضاقت نفسه بسببهم ،وخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم أحدٌ من قومه فينالهم بسوء ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] .

قال الشوكاني رحمه الله : المعنى أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا إليه ، كأنما يُدْفَعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ،

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٥٣) .

﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي : ومن قبل مجيء الرسل في هذا الوقت كانوا يعملون السيئات ؛ وقيل : ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات ، أي : كانت عادتهم إتيان الرجال ، فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا أضيافه لذلك العمل قام إليهم لوط مدافعاً ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم ﴾ أي : تزوجوهن ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي ، وقد كان له ثلاث بنات وقيل : اثنان ، وكانوا يطلبون أن يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهن ، وكان لهم سيدان مطاعان ، فأراد أن يزوجهما بنتيه ، وقيل : أراد بقوله ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي ﴾ النساء جملة ؛ لأن نبي القوم أبٌ لهم . وقالت طائفة : إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة، ومعنى ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم ﴾ أي : أحلُّ وأنزه ، والتطهر التنزه عما لا يحل ، وليس في صيغة أطهر دلالة على التفضيل ، بل هي مثل « الله أكبر » [1] .

قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] .

قال القاسمي : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : أن تعصوه بما هو أشد من الزنا خبثاً. ﴿ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي : ولا تهينوني وتفضحوني في شأنهم ؛ فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل ، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة .

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أي : فيرعوي عن القبيح ويهتدي إلى الصواب [2] .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود :٧٩] .

قال العلامة محمد رشيد رضا : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ فإنهن محرمات علينا في دينك ، أو يعنون أن الحق عندهم نكاح الذكور مستشهدين بعلمه به تهكماً ، أو الحق هنا الحاجة والأرب ، والمعنى : لقد علمت من قبل ليس لنا في بناتك من حاجة أو رغبة في تزوجهن فتصرفنا بعرضهن علينا

(١) فتح القدير : (٢/٥١٤) .

(٢) محاسن التأويل (٩/١٥٥) .

عما نريده ، أو : لقد علمت الذي لنا في نسائنا اللواتي تسميهن بناتك من حق الاستمتاع وما نحن عليه معهن ، فلا معنى لعرضك إياهن علينا لصرفنا عما نريده ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ من الاستمتاع بالذكران وأننا لا نؤثر عليه شيئاً ، أي : تعرف ذلك حق المعرفة لا ترتاب فيه فلم تحاول صدنا عنه (١) .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطاً – عليه السلام – جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[هود :٨٠] لأحللت بكم النكال قالت الملائكة : ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود :٨١] وذكروا أن جبريل – عليه السلام – خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم. قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (٢)[القمر :٣٧ – ٣٨] .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨٢] .

قال الشنقيطي رحمه الله : ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر نبيه لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل ، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل أو وسطه أو أوله ، ولكن بين في القمر أن ذلك من آخر الليل وقت السحر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : ٣٤] ولم يبين هنا أنه أمر أن يكون

(١) تفسير المنار (١٢/١٣٥) .
(٢) باختصار من قصص القرآن (٢٠٠) .

من ورائهم وهم أمامه ، ولكنه بين ذلك في الحجر بقوله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر : ٦٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ قرأه جمهور القراء ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب ، وعليه فالأمر واضح لأنه استثناء من الأهل ، أي : أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها واتركها في قومها فإنها هالكة معهم .

ويدل لهذا الوجه قوله فيها في مواضع ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ والغابر : الباقي أي : من الباقين في الهلاك .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير : ﴿ إِلَّا امْرَأَتُكَ ﴾ بالرفع على أنه بدل من ﴿ أَحَدٌ ﴾ فالمعنى أنه أمر لوطاً أن ينهى جميع أهله عن الالتفات إلا امرأته فإنه أوحي إليه أنها هالكة لا محالة ، ولا فائدة في نهيها عن الالتفات ، لكونها من جملة الهالكين [١] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

قال القاسمي رحمه الله : أي : موعدهم بالهلاك الصبح ، والجملة كالتعليل للأمر بالإسراء ، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب ، أو ذكرت ليتعجل في السير فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء للتباعد عن موقع العذاب [٢] .

وقال الشوكاني : والمعنى أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة . والاستفهام في﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ للإنكار التقريري ، والجملة تأكيد للتعليل [٣] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ . قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ .

قال الشوكاني : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي : الوقت المضروب لوقوع العذاب

---

(١) أضواء البيان (٣/٢٩ – ٣٠) . (٢) محاسن التأويل (٩/١٥٨) .
(٣) فتح القدير (٢/٥١٥) .

فيه ، أو المراد بالأمر نفس العذاب ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي : عَالِي قُرى لُوطٍ سَافِلَهَا ، والمعنى : أنه قلبها على هذه الهيئة وهي كون عاليها صار سافلها ، وسافلها صار عاليها ، وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم [١] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ .

قال الشنقيطي : اختلف العلماء في المراد بحجارة السجيل اختلافاً كثيراً ، والظاهر أنها حجارة من طين في غاية الشدة والقوة ، والدليل على أن المراد بالسجيل الطين قوله تعالى في الذاريات في القصة بعينها : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات : ٣٣] وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

والدليل على قوتها وشدتها أن الله ما عذبهم بها في حالة غضبه عليهم إلا لأن النكال بها بالغ شديد ، وأيضاً فإن بعض العلماء قالوا : السجيل والسجين أختان كلاهما الشديد من الحجارة والضَّرب [٢] .

قوله تعالى : ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

قال الشوكاني : المسومة أي : التي لها علامة ؛ قيل : كان عليها أمثال الخواتيم ؛ وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من رُمِيَ به .

ومعنى ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ في خزائنه .

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أي : وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد ، أو : ما هي من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد ، فهم لظلمهم مستحقون لها [٣] .

(١) السابق (٢/٥١٥) . (٢) أضواء البيان (٣/٣٤) .
(٣) فتح القدير (٢/٥١٦) باختصار .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله : في هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح ، وأنها توجب العقاب الشديد ، وأن من ابتلي بهذه الفاحشة – والعياذ بالله – فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح ، فاستحسن ما كان قبيحاً ونفر من الطيب ، وذلك دليل على انحراف الأخلاق (١) .

(٢) قال العلامة محمد رشيد رضا : جملة القول في هذه الفاحشة أنها :

١– جناية على الفطرة البشرية .

٢– مفسدة للشبان بالإسراف في الشهوة لأنها تنال بسهولة .

٣– مذلة للرجال بما تحدثه فيهم من داء الأُبْنة ، وقد أشرنا آنفاً إلى ما فيه من خزي ومهانةٍ .

٤– مفسدة للنساء اللاتي تصرف أزواجهن عنهن ، حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصانهن .

٥– قلة النسل بفشوها ، فإن من لوازمها الرغبة عن الزواج ، والرغبة في إتيان الأزواج في غير مأتى الحرث ، ولعن فاعل ذلك .

٦– أنها ذريعة للاستمناء ولإتيان البهائم ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن رسوله لوط – عليه السلام – ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ [الأعراف :٨١] فقصد الشهوة لذاتها يفضي إلى وضعها في غير موضعها، وإنما موضعها الزوجة الشرعية (٢) .

(٣) قال القرطبي رحمه الله : واختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه ، فقال مالك : يُرْجم أُحصن أو لم يحصن، وكذلك

---

(١) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٢٥).

(٢) تفسير المنار (٨/٥٢١، ٥٢٢) باختصار.

يرجم المفعول به إن كان محتلماً ، وروى عنه أيضاً : يرجم إن كان محصناً ، ويحبس ويؤدب إن كان غير محصن ، وهو مذهب عطاء والنخعي وابن المسيب وغيرهم . **وقال أبو حنيفة** : يُعَزَّر المحصن وغيره ، وروي عن مالك .
وقال الشافعي : يُحَدُّ حد الزنا قياساً عليه .

واحتج مالك بقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر:٧٤] فكان ذلك عقوبة لهم ، وجزاء على فعلهم . فإن قيل : لا حجة فيه لوجهين : أحدهما : أن قوم لوط إنما عوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم .

الثاني : أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها، فدل على خروجها من باب الحدود.

قيل : أما الأول فغلط ، فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصٍ فأخذهم بها ، منها هذه ، وأما الثاني : فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ، فعوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه ، وهي حكمة الله وسنته في عباده ، وبقي أمر العقوبة على الفاعلين مستمراً والله أعلم ، وقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي والدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** »[1] لفظ أبي داود وابن ماجه ، وعند الترمذي : « **أحصنا أو لم يحصنا** »[2] .

(٤) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « **نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي** »[3] .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٦٧٩–٢٦٨٠) باختصار ، والحديث رواه الترمذي (٦/٢٤٠) الحدود، وأبو داود (٤٤٣٨) الحدود وصححه الألباني .
(٢) الترمذي (٦/٤١) الحدود .
(٣) رواه البخاري (٦/٤١١) أحاديث الأنبياء ، ومسلم (١٥/١٢٣) الفضائل .

وفي رواية عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : « **يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد** »[١] .

قال الحافظ : قوله : « **يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد** » أي : إلى الله سبحانه وتعالى ، ويشير ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ويقال إن قوم لوط لم يكن منهم أحدٌ يجتمع معه في نسبه ؛ لأنهم من سدوم وهي من الشام ، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر عنه لوط فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم ، فقال : لو أن لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت أستنصر بهم عليكم ليدافعوا عن ضيفاني ، ولهذا جاء في بعض طرق هذا الحديث كما أخرجه أحمد من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **قال لوط : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، قال فإنه كان يأوي إلى ركن شديد ، ولكنه عنى عشيرته فما بعث الله نبيًا إلا في ذروة من قومه** »[٢] وزاد ابن مردويه من هذا الوجه : « **ألم تر إلى قول قوم شعيب** : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ » [هود : ٩١].

وقيل معنى قوله : « **لقد كان يأوي إلى ركن شديد** » أي: إلى عشيرته ، لكنه لم يأو إليهم وأوى إلى الله . انتهى ، والأول أظهر لما بيناه ، وقال النووي : يجوز أنه لما اندهش بحال الأضياف قال ذلك ، أو أنه التجأ إلى الله في باطنه وأظهر هذا القول للأضياف اعتذاراً ، وسمى العشيرة ركناً لأن الركن يستند إليه ويمتنع به فشبههم بالركن من الجبل لشدتهم ومنعتهم[٣] .

* * *

(١) رواه البخاري (٦/٤١٥) أحاديث الأنبياء .
(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/٥٣٢) والترمذي (٢١١٦) .
(٣) فتح الباري (٦/٤١٥–٤١٦) .

قصة شعيب عليه السلام

أرسل الله – سبحانه وتعالى – شعيباً إلى قوم مدين ، وهي قرية من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز ، وهي القرية التي توجه إليها موسى –عليه السلام – بعد أن قتل المصري ، واختلف هل هو صهر موسى – عليه السلام – أم لا ، والراجح أنه غيره وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين منهم [١] .

وكان أهل مدين كفاراً يعبدون الأيكة ، وهي كما قال ابن كثير – رحمه الله – شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها ، وكانوا مع كفرهم بالله – عز وجل – يبخسون الناس أشياءهم ، ويطففون المكيال والميزان ، فدعاهم شعيب – عليه السلام – بدعوة جميع الأنبياء قبله من عبادة الله – عز وجل – ثم نبههم على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات وحذرهم بأس الله – عز وجل – وعقوبته ، فكان ما كان مما قصه الله – عز وجل– في غير مكان، والظاهر أنهم كانوا بعد قوم لوط لقوله عليه السلام : ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٩] ويبدو أن هذا القرب كان قرباً زمانياً ومكانياً .

---

(١) ومن الدليل على أن شعيباً لم يكن معاصراً لموسى عليه السلام أن الله عز وجل لما ذكر نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً قال :﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [الأعراف : ١٠٣] ومثل ذلك في سورة يونس وهود والحج . وثم تفيد تراخي ما بعدها عما قبلها فهو ظاهر والله أعلم في أن زمن موسى عليه السلام كان بعد زمن شعيب بفترة .

وانظر قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (١٨٥) وانظر كذلك ما ذكر في قصة موسى في الجزء الأول من هذا الكتاب المبارك .

دعوة شعيب عليه السلام :

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ٨٥ - ٩٣: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

لا شك أن أنبياء الله عز وجل ورسله هم أنصح الناس للناس ، وهم قدوة الدعاة إلى الله عز وجل في دعوة أقوامهم ، كيف يخاطبونهم ويتلطفون معهم ويصبرون على جهلهم وغباوتهم وإيذائهم . وقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال: « ذاك خطيب الأنبياء »[1] .

ويظهر من دعوة شعيب عليه السلام أن البيئة التي كانت فيها قد دب الفساد

(١) أخرجه الحاكم (٢/٦٢٠) .

من الشرك ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ، مع أنهم كانوا في نعمة وعافية ، فبدأ شعيب عليه السلام دعوته كما بدأها جميع الأنبياء وهي دعوة الناس إلى التوحيد ، لأن وظيفة الرسل وأتباعهم تعبيد الناس لله عز وجل كما قال ربعي بن عامر : « إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ».

فوظيفة الداعية تطويع الناس وتعبيدهم لله ، فالناس إما عبيد حجر ، أو عبيد شجر، أو عبيد بقر ، أو عبيد للطواغيت الذين يحكمونهم بغير الشرع ، ويسوسونهم بغير حكم الله عز وجل فالداعية يحرر الناس من عبادة غير الله ، ثم يُعَبِّدُهم لله عز وجل فيجعلهم يكفرون بالطاغوت ويؤمنون بالله ، ويكون في دعوته متأسياً بالأنبياء الكرام لأنهم أئمة الدعوة إلى الله ، هم أعلم الناس بها ، وأقوم الناس فيها ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وسوف نجد بإذن الله تعالى ذلك واضحاً جليًا في شعيب عليه السلام كيف أنه كان يعمل بما يعلمه للناس ، ولا يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، وكيف نَوَّعَ معهم أساليب الدعوة فتارة ينهاهم عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وغيره ، وتارة يحذرهم من العقوبة التي لحقت بالمكذبين من الأمم السابقين كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ، وتارة يذكرهم بنعم الله عليهم ، وكيف أنهم يحافظون عليها بطاعة الله عز وجل وتارة يتوجه الداعية إذا وجد القلوب القاسية وفقد الآذان الواعية ، يتوجه إلى الله عز وجل الذي أرسله بأن يفتح بينه وبين قومه بالحق ، ولذلك كان خاتمة دعوته بعد أن أهلك الله عز وجل الظالمين المكذبين ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِين ﴾[الأعراف :٩٣].

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا

تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف :٨٥] .

قال الزمخشري : كان يقال لشعيب – عليه السلام – خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ معجزة شاهدة بصحة نبوتي ، أوجب عليكم الإيمان بي والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه ، فأوفوا ولا تبخسوا . فإن قلت : ما كانت معجزته؟ قلتُ : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ولأنه لابد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه [١] وكان متنبئاً لا نبيًا غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ [٢] .

قوله : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ .

قال صاحب المنار : كان قوم شعيب من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه ، وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أي : ينقصونه ، فيبخسونهم أشياءهم ، وينقصونهم حقوقهم ، والبخس أعم من نقص المكيل والموزون فإنه يشمل غيرهما من المبيعات كالمواشي والمعدودات ، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق ، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل [٣] .

وقال القرطبي رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس النقص ، وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها ، أو المخادعة عن

(١) ومن الأدلة كذلك قوله ﷺ : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة » رواه البخاري (٤٩٨١) فضائل القرآن ، ومسلم (١٥٢) الإيمان .

(٢) الكشاف (٢/١٢٧) . (٣) تفسير المنار (٨/٥٢٥) .

القيمة والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه ، وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قوله تعالى : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ .

قال القرطبي : وهو لفظ يعم دقيق الفساد وجليله ، قال ابن عباس : كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً يعمل فيها بالمعاصي ، وتستحل فيها المحارم وتسفك فيها الدماء ، فذلك فسادها ، فلما بعث الله شعيباً ودعاهم إلى الله صلحت الأرض ، وكل نبي بعث إلى قومه فهو صلاحهم (١) .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

قال صاحب المنار : الإشارة إلى كل ما تقدم من أمر ونهي ، أي : هو خير لكم في دينكم ودنياكم لا تكليف إعنات ، فربكم لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم ، ولا ينهاكم إلا عما هو ضار بكم ، وهو على كل حال غني عنكم ولو شاء لأعنتكم ، ولكنه رحيم بكم لا يفعل ذلك (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

قال الشوكاني : الصراط الطريق ، أي : لا تقعدوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب ، قيل : كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه ، كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ . قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وغيرهم ، وقيل : المراد

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٦٨٤/٣) بتصرف .   (٢) تفسير المنار (٥٢٥/٨) .

القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها ، وليس المراد به القعود على الطرق الحقيقية ، ويؤيده : ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ . وقيل : المراد بالآية النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب ، وقيل : إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطريق من أموال الناس فنهوا عن ذلك . والقول الأول أقربها للصواب مع أنه لا مانع من حمل النهي على جميع هذه الأقوال المذكورة . وجملة ﴿ تُوعِدُون ﴾ في محل نصب على الحال وكذلك ما عطف عليها . أي : لا تقعدوا بكل طريق ، موعدين لأهله صادِّينَ عن سبيل الله باغين لها عوجا [1] .

وقال الزمخشري : ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً ، أي : تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها ، أو يكون تهكماً بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال لأن طريق الله لا يعوج [2] .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قال صاحب المنار : أي : وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد فكثركم الله تعالى بما بارك في نسلكم ، فاشكروا له ذلك بعبادته وحده واتباع وصاياه في الحق والعدل وترك الفساد في الأرض ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ من الشعوب المجاورة لكم كقوم لوط وقوم صالح وغيرهم ، وكيف أهلكهم الله تعالى بفسادهم ، فيجب أن يكون لكم عبرة في ذلك [3] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٧] .

قال الألوسي : خطاب للكفار ووعيد لهم أن تربصوا لتروا حكم الله تعالى

---

(١) فتح القدير (٢/٢٢٤) .

(٢) الكشاف (٢/١٢٨) .

(٣) تفسير المنار (٨/٥٣٢) .

بيننا وبينكم ، فإنه سبحانه سينصر المحق على المبطل ، ويظهره عليه ، أو هو خطاب للمؤمنين وموعظة لهم وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين ، إلى أن يحكم الله تعالى بينهم ، وينتقم لهم منهم ، ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين ، أي : ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب ، والظاهر الاحتمال الأول ، وكان المقصود أن إيمان البعض لا ينفعكم في دفع بلاء الله تعالى وعذابه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ إذ لا معقب لحكمه ، ولا حيف فيه ، فهو في غاية السداد [1].

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف :٨٨].

قال ابن كثير رحمه الله : هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نَبِيَّه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة . وقوله : ﴿ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ يقول : أو أنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه ، فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمتم الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً ، وهذا تنفير منه عن اتباعهم [2] .

قوله تعالى : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف :٨٩] .

---

(١) روح المعاني (١٧٩/٨) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٣٢/٢) .

قال صاحب الظلال : ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه وبقدر ما يرفع صوته في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه ، بقدر ما يخفض هامته ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل الذي وسع كل شيء علماً ، فهو في مواجهة ربه لا يتألى عليه ، ولا يجزم بشيء أمام قدره ، ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

إنه يفوض الأمر لله ربه في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ، إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت من العودة في ملتهم ، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ، ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته ، ولكنه لا يجزم بشيء من مشيئة الله به وبهم ، فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون وربهم وسع كل شيء علماً ، فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولي الله مع الله ، الأدب الذي يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره ، ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق .

﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾[الأعراف : ٩٠ -٩٢] .

قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما

(١) في ظلال القرآن (٣ / ١٣٢١ ، ١٣٢٢) .

هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا وقالوا : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُون ﴾ فلهذا عقبه بقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين ﴾ أخبر تعالى أنهم أخذتهم الرجفة ، وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود : ٩٤] .

والمناسبة هناك ، والله أعلم ، أنهم لما تهكموا به في قولهم : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ الآية ، فجاءت الصيحة فأسكتتهم .

وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] وما ذاك إلا لأنهم قالوا في سياق القصة : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية [الشعراء : ١٨٧] فأخبر أنهم أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ، أصابهم عذاب يوم الظلة – وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم – ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ، ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِين ﴾ [1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٢٣٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِين ﴾ [الأعراف : ٩٣] .

قال الزمخشري : الأسى شدة الحزن ، قال العجاج :

وَاغْلَنْتَ عَيْنَاهُ مِن فَرْطِ الأَسَى

اشتد حزنه على قومه ، ثم أنكر على نفسه فقال : فكيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم ، واستحقاقهم ما نزل بهم ، ويجوز أن يريد : لقد اعتذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا قولي ، ولم تصدقوني ، فكيف آسى عليكم ، يعني أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى [1] .

قال صاحب الظلال : ويطوى صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال والمفارقة والانفصال من رسولهم الذي كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم في الغابرين .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِين ﴾ .

إنه من ملة وهم من ملة ، فهو أمة وهم أمة ، أما صلة الأنساب والأقوام فلا اعتبار لها في هذا الدين ولا وزن لها في ميزان الله ، فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين ، والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل الله المتين [2] .

---

(١) الكشاف (٢ / ١٣١) .

(٢) في ظلال القرآن (٣ / ١٣٢٢) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) بعد أن قصَّ الله تعالى علينا في هذه السورة الكريمة سورة الأعراف قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وفيها ما فيها من العظات والعبر، وهي تشترك في أمور منها تمرد أقوام هؤلاء الرسل الكرام على أنبيائهم ، مع بذل الأنبياء الكرام غاية الجهد والنصيحة من الترغيب والترهيب والإنذار والإعذار ، ولا يزيدهم إلا تمرداً ونفوراً ، ولا يتعظ اللاحق بالسابق فينزل بأس الله عز وجل وعذابه على الكافرين ، عبرة للمعتبرين، وذكرى لعباد الله المؤمنين – عقب الله عز وجل – هذه القصص بعدة آيات كلها عبرٌ وعظات وحِكَم بالغات أنقلها ليتدبرها القارئ الكريم حتى نقف على فضل الله العظيم على المؤمنين وبأسه الذي لا يرد عن القوم الكافرين .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف :٩٥ – ١٠٢] .

ثم ذكر الله – عز وجل – بعد ذلك قصة موسى وفرعون ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن التدبر للقرآن والعمل به ، والاتعاظ بمواعظه ، فلا خير فيمن إذا أمر لا يأتمر ، وإذا زجر لا ينزجر .

(٢) **قال ابن كثير رحمه الله** : ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف ، وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما : أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ** ﴾ [الشعراء : ١٧٦ ، ١٧٧] ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا** ﴾[الأعراف : ٨٥ ، هود : ٨٤ ، العنكبوت : ٣٦] .

الثاني : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول : أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله : ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم . وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة . وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى ، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن . فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شقيق بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « **إِنَّ قَوْمَ مَدْيَنَ وَأَصْحَابَ الأَيْكَةِ أُمَّتَانِ بَعَثَ الله إِلَيْهِمَا شُعَيْبًا النَّبِي عليه السلام** » فإنه حديث غريب ، وفي رجاله من تُكلم فيه ، والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل والله أعلم .

ثم قد ذكر الله سبحانه وتعالى عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان ، فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب ، وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب [1].

(١) قصص القرآن (٢١٥ ، ٢١٦) .

(٣) **قال القاسمي رحمه الله :** قال القاشاني : لما رأى شعيب – عليه السلام – ضلالتهم بالشرك واحتجابهم عن الحق بالجِبْتِ ، وتهالكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل ، وتماديهم في الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال نهاهم عن ذلك ، وقال : إني أراكم بخير في استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية ، وإني أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم لاحتجابكم عن الحق ووقوفكم مع الغير ، وصرف أفكاركم بالكلية إلى طلب المعاش ، وإعراضكم عن المعاد ، وقصور هممكم على إحراز الفاسدات الفانيات عن تحصيل الباقيات الصالحات ، فلازموا التوحيد والعدالة ، واعتزلوا عن الشرك والظلم الذي هو جماع الرذائل وأم الغوائل [١] .

(٤) **قال العلامة السعدي ، عليه رحمة ربنا العلي :** وفي قصة شعيب فوائد متعددة ؛ **منها :** أن بخس المكاييل والموازين خصوصاً ، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة .

ومنها : فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد الله وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[هود : ٨٧] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ومن هنا تعرف حكمة الله ورحمته في أن فرض علينا الصلوات تتكرر في اليوم والليلة لعظم وقعها وشدة نفعها وجميل آثارها فلله على ذلك أتم حمد .

ومنها : أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له ، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين لقول شعيب : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾[٢].

* * *

(١) محاسن التأويل (٩ / ١٦١).
(٢) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٢٧ – ١٢٨).

قصة يعقوب ويوسف - عليهما السلام -

هذه القصة العظيمة قصة يعقوب ويوسف – عليهما السلام – من أبدع القصص القرآني ؛ ولذا قال الله عز وجل في التقديم لهذه القصة العظيمة : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : ٣] ومن مميزات هذه القصة أنها جمعت أطرافها وأحكم نظمها في مكان واحدٍ من كتاب الله ، ولم تأت مفرقة في سور القرآن العظيم ، ولله الحكمة البالغة ، ومن الصعوبة بمكان أن ننقل السورة بأجمعها وننقل أقوال المفسرين فيها كما أسلفنا فيما تقدم من القصص ، وسوف نقتصر بإذن الله تعالى على تلخيص أحداث القصة ، ثم نفيض في نقل الفوائد والآثار الإيمانية ، ومن أراد النص القرآني فعليه العودة إلى كتاب الله عز وجل وإنما قصدنا ذلك خشية الإطالة .

وتتلخص أحداث هذه القصة في أن يوسف – عليه السلام – رأى في منامه أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، فقص رؤياه على أبيه يعقوب – عليه السلام – فاستبشر بهذه الرؤيا وعلم أن لابنه هذا شأناً عظيماً وكانت علاماتُ النجابة بادية على يوسف – عليه السلام – مع ما رزقه الله عز وجل من جمال الهيئة وبهاء الطلعة ، فتمكن حب يوسف – عليه السلام – من قلب أبيه وخاف عليه حسد إخوته وكيدهم له فنهاه أن يقص رؤياه على إخوانه حتى لا يأكلهم الحسد فيكيدوا له كيداً ، فنزغ الشيطان بين يوسف وبين إخوته لأبيه ، فبدأوا في الكيد له ، وأجمعوا أن يلقوه في بئر مهجورة لعل بعض السيارة يلتقطونه ، وَيَدَّعُوا أن الذئبَ قد أكله ، فيحزن أبوهم فترة ثم ينسى يوسف – عليه السلام – ويخلو لهم وجه أبيهم ، ويكونوا من بعده قوماً صالحين ، وبدأوا في نسج خيوط المؤامرة وطلبوا من أبيهم أن يرسل يوسف – عليه السلام – من أجل أن يمرح ويلعب وهم يتعهدون بالمحافظة عليه ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُون * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف : ١٧] ولكنهم لم يكن من طبيعتهم الكذب مع إحساسهم بجريمتهم فكانت قرائن أحوالهم تكذب مقالتهم

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي : أن طريقة تلطيخ القميص بالدم يدل كذلك على كذبهم فقال لهم أبوهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨] ثم يسدل الستار على هذا المشهد مشهد يعقوب – عليه السلام – مع بنيه ، ثم تحكي القصة كيف تعهد الله – عز وجل – يوسف – عليه السلام – وكيف رفعه من الجُبِّ إلى خزائن الأرض .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ [يوسف : ١٩] أي : أن قافلة أرسلت تستسقي الماء من البئر فخرج يوسف – عليه السلام – فاعتبروه رقيقاً ، فباعوه إلى عزيز بلدهم ، وهو كما يُشير إليه السياق ليس هو الملك ، ولكنه في منزلة محافظ أو أمير من أمراء المدينة ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : ٢٠] ومن تَعَهُّد الله عز وجل له بالتربية والعناية ، أوصى العزيز امرأته أن تحسن إليه ، وأن تكرم مثواه عسى أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً ، ويسكت السياق عن هذه النشأة ، ولكنه يشير إلى أنه نشأ على الطهر والعفاف ، واكتملت شخصيته وتمت مروءته ، وظهرت علامات صدقه ونجابته ، وكل ذلك يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] ثم حدث ما حدث له مع امرأة العزيز ، فقد امتلأ قلبها بحبه وراودته عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ، ويوسف كما قال النبي ﷺ: « **الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، إنه يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم نبي الله** » إن الله عز وجل جهزه وأعده من أجل أن يرفع به الدين ، وأن يدعو إلى سبيل الله المستقيم فما له ولسبيل المجرمين ، فبادر يوسف – عليه السلام – إلى الإنكار عليها ، وقال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ ثم نصح نفسه وإياها بقوله ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[يوسف : ٢٣] فهمت به وهم بها يدفعها عن نفسه ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[يوسف :٢٥] وإنما خيرته في العقوبة بين السجن والعذاب ؛ وذلك لمزيد حبها له وخشية أن

يأمر بقتله ، فقال يوسف – عليه السلام – يدفع عن نفسه : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف : ٢٦] ثم من تقدير الله عز وجل له ومن حسن دفاعه عن المؤمنين أن شهد شاهد من أهلها إن كان قميصه تمزق من الأمام فقد صدقت هي، وإن كان من الخلف فهو الصادق وهي الكاذبة ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] وعلى عادة الأوساط «الأرستقراطية» والمجتمعات المترفة التهاون في مثل هذه الحوادث ، وعدم تعظيم الحرمات ، طلبوا من يوسف – عليه السلام – أن يسكت عن هذه الحادثة وطلبوا منها الاستغفار من هذا الذنب ، ومثل هذه الحوادث وخاصة في المجتمعات الفارغة التافهة لا تخفى وخاصة إذا كان في الحادث طرفٌ نسائي ، انتقلت الأخبار ولاكتها الألسن ، وأنكرت نساء المدينة كيف تراود امرأة العزيز غلامها عن نفسه ، فأحبت أن يلتمسن لها الأعذار برؤية جمال يوسف وبهائه ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[يوسف :٣١] واستمر كيدها بيوسف عليه السلام رجاء أن تنال منه شيئاً مما تهواه ، فلجأ يوسف عليه السلام إلى ربه وسأله المخرجَ من هذه المحنة والنجاة من هذه الفتنة التي لا أشد منها على شاب غريب مملوك في بيت امرأة من أهل الترف والإسراف وليس في عقولهن وقلوبهن إلا فتنة الآخرين ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٤] والضعيف دائماً تلفق له التهم ؛ حتى يَظْهَرَ أهل الجاه والسلطان أبرياء من كل ريبة وتهمة ، فصدرت الأوامر بعقوبة السجن ليوسف – عليه السلام – وقد تكون المحنة مِنحة ، والرزية عطية ، كيف لا وقد تمنى يوسف السجن لبدنه وآثر ذلك على سجن قلبه في الهوى والمعصية ، وقد كان شيخ الإسلام يقول : المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه .

والمؤمن مبارك أينما كان ، ولا تخفى علامات الصلاح والإحسان عن عيون الناظرين ، والأنبياء هم سادة المؤمنين ، فلا تخفى علامات صدقهم وإحسانهم كما قال حسان بن ثابت في وصف نبينا ﷺ :

لَوْ لَمْ تكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ   كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بَالخَبَرِ

دخل يوسف عليه السلام السجن ودخل معه فتيان ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦] فعلما أنه لا يوفق للتأويل الصحيح إلا أهل الإحسان وأصحاب البصائر ، والداعية الصادق حياته هي الدعوة إلى الله عز وجل وهمه هداية الناس إلى طريق الله وتعبيدهم لله ، فانتهز يوسف عليه السلام هذه الفرصة وهذه الآذان الصاغية إلى معرفة تأويل الرؤيا فقال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف :٣٩-٤٠] .

وبعد أن بلغهم دعوته وأظهر لهم حجته، أخبرهما بتأويل رؤياهما، وقال ملتزماً بآداب المعبر الذي لا يواجه صاحب الرؤيا بالتأويل الذي يكرهه: ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أي : ينجو من السجن ويعود إلى قصر الملك ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ [يوسف :٤٠] يقتل ويعلق مصلوباً حتى تأكل الطير من رأسه ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي : عند الملك ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : ٤٢] والضمير يعود على الذي ظن أنه ناج منهما، وربه هو الملك، وذلك لأن الضمير يعود على أقرب مذكور وهو أقرب مذكور.

ثم يظهر في السياق الآن الملك وقد رأى رؤيا ، وسأل عنها وجوه الناس عنده فما وجد عندهم ما يشفيه ويروي غليله فيها ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾ [يوسف : ٤٤] فتذكر الذي نجا يوسف عليه السلام فذهب إليه وأخبره برؤيا الملك وهي أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، ففسر يوسف – عليه السلام – الرؤيا بسبع سنين رخاء يعقبها سبع سنين قحط ، ثم يأتي بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، فلما بلغ هذا التأويل الملك طلب رؤيته وإحضاره ، ويوسف – عليه السلام – لا يتعجل الخروج من السجن حتى يبرئوا ساحته

ويظهر للجميع نزاهته وطهارته فقال : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠] وحقق الملك في القضية بنفسه، وقالت امرأة العزيز : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] فخرج يوسف – عليه السلام – من السجن إلى خزائن الأرض ، وصدق فيه قول نبينا ﷺ : « **وما ظلم عبدٌ مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزًا** »[1] فارتفع بالطاعة والصبر على الشهوة ، وهبطت المعصية بامرأة العزيز ، كما هبطت بإخوته الذين جاءوه يطلبون حظهم ونصيبهم ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف:٥٨] فلما وفَّى يوسف – عليه السلام – كيلهم وأحسن إليهم ، طلب منهم أن يحضروا معهم في العام المقبل أخاً لهم من أبيهم، وخوفهم من عدم إحضاره أنه سوف يمنعهم الكيل بالكلية ، فقالوا : ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف: ٦١] وقال يوسف لفتيانه : ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف : ٦٢] والراجح أنها ثمن القمح والطعام الذي أخذوه ، حتى يستعينوا بذلك على العودة في العام المقبل .

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بما حدث مع العزيز – يوسف عليه السلام – وكيف أنه أكرم مثواهم ، ورد إليهم ثمن ما أخذوه ، فرغبهم في العودة ، وطلب منهم أخاهم لأبيهم ، وهددهم بمنعهم الكيل إذا لم يحضروه ، وطلبوا من أبيهم السماح بأخيهم، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، إلا أن الحاجة الشديدة والقحط جعله يسلم لهم أخاهم ، مع أخذ العهود والمواثيق أن يحضروه معهم مرة ثانية إلا أن يحاط بهم، والقدر ما زال يخفي ليعقوب – عليه السلام – ما يزيد من بلائه ومحنته ، ولترتفع بذلك درجته ، ويكون الفرج بعد الشدة في أكمل أحواله ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[يوسف : ٦٦]

---

(١) صحيح ؛ رواه أحمد في مسنده عن أبي كبشة الأنماري (٤/ ٢٣١) ، والترمذي (٢/ ٥٦) الزهد . وانظر صحيح الجامع (رقم : ٣٠٢١) .

ومبالغة في الحيطة معهم ، وحتى لا تصيبهم العين لكثرتهم وجمالهم أمرهم أن لا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة . ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩] ثم احتال – عليه السلام – على إخوته من أجل أن يستخلص أخاه من بينهم ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ ﴾ أي : صاع الملك الذي يكيل به في ﴿ رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ فلما هموا بالسفر والعودة إلى أبيهم إذا هُمْ بصائح يقول لهم : ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف : ٧٠] وكان القانون الذي يرتضونه أن السارق يؤخذ رقيقاً ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٧٦] فقالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ يعنون يوسف – عليه السلام – فأجابهم سرًا لا جهارًا حلماً وكرماً وصفحًا وعفواً ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ٧٧] ثم توسلوا إليه في ترك أخيهم وأخذ أحد منهم شفقة بأبيهم ، فقال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٧٩] .

فلما رجعوا إلى أبيهم عليه السلام ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف :٨٣] وذكّره ما حدث بيوسف عليه السلام ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤] فَحَرَّكَ هذا الحزن الجديد حزنه القديم ، كما قال القائل :

لَقَدْ لامَنِي عِنْدَ القُبُورِ عَلَى البُكَا ... رَفِيقِي لِتِذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ(١)
فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ؟ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى فَالدَّكَادِكِ(٢)
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى ... فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

واشتد الكرب على يعقوب – عليه السلام – والأنبياء كما قال النبي ﷺ :

(١) السوافك : المصبوبة المراقة .

(٢) اللوى : الرمل الملتوي ؛ والدكادك : الرمل ذو التراب المتلبد .

« أشد الناس بلاءً »[1] فلما أشفق عليه بَنُوهُ وخافوا عليه الهلاك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] وهذه الشكوى هي اللائقة بالأنبياء الكرام ولا تنافي الصبر ، كما قال أيوب كذلك ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤] وهنا قال يعقوب عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : ٨٣] .

والمؤمن لا ييأس من روح الله ، والرؤيا التي قصها يوسف عليه السلام لابد أن تتحقق ، فقال يعقوب عليه السلام : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧] فلما دخلوا على يوسف – عليه السلام – دخول الفقراء المحاويج الذين ضاقت عليهم السبل ، وليس معهم من المال ما يوافي ما يحتاجونه من الطعام ، وقد أصابهم من الهم والضيق ما أصابهم ، و﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨] فكشف لهم يوسف – عليه السلام – عن شخصه اللثام ، وقال ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : ٨٩] فقال قائل منهم : ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] فاعترفوا بفضله وشرفه كما اعترفوا بخطئهم ، والأنبياء أولى الناس بالمواقف الكريمة والصفات الجليلة ، فما وجدها يوسف – عليه السلام – فرصة ينتقم فيها لنفسه ولأخيه فقال عليه السلام : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ ثم زادهم ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه فيضعوه على وجه أبيهم فيرجع إليه بصره الذي

---

(١) رواه الترمذي (٩/٢٤٣) الزهد ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه (٤٠٢٣)، وقال الألباني : حسن صحيح . وكذلك في تحقيق جامع الأصول .

أذهبه الحزن ، وهذا من خوارق العادات ، ودلائل النبوات ، وأكبر المعجزات .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُون * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[يوسف : ٩٤:٩٦] فطلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل فقال : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ [يوسف : ٩٨] .

قال ابن مسعود وغيره : أرجأهم إلى وقت السحر .

ثم حصل لهم الفرج بعد الشدة العظيمة، واجتمع الشمل بعد الفراق، ورفع يوسف عليه السلام أبويه على العرش أي : أجلسهما معه على سرير الملك وسجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيمًا وتكريمًا وكان هذا جائزاً في شريعتهم. قال يوسف : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف :١٠٠ –١٠١] .

قال ابن كثير رحمه الله : ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع ، عرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار ، وأن كل شيءٍ فيها ومَنْ عليها فانٍ، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسئولين أن يتوفاه – أي: حين يتوفاه – على الإسلام ، وأن يلحقه بعباده الصالحين ، وهكذا كما يقال في الدعاء : « **اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين** »[1] أي : حين تتوفانا [2] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٢٤/٣) والحاكم (٦٨٦/١) والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) وصححه الألباني (فقه السيرة ٣٦٥) .

(٢) قصص الأنبياء (٢٦٤) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

الفوائد والآثار الإيمانية في هذه القصة البديعة كثيرة جدًا كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾[يوسف : ٧] وكنت أتعجب من قول الإمام ابن القيم إن في هذه القصة أكثر من ألف فائدة ، ولما اطلعت على شيء من التفاسير وما استنبطه العلماء من فوائد زال هذا التعجب ، وظننت أنه — رحمه الله — كان ينبغي أن يزيد على هذا العدد ، فإن في كل آية فوائد متعددة ، وهي جديرة بقول الله عز وجل في التقديم للقصة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] وأستأذن القارئ الكريم في الإطالة قليلاً في نقل الفوائد ، وكان حق هذه القصة مصنفاً كاملاً ، ولكن لا نحرم — إن شاء الله — من إلقاء بعض الضوء على أماكن العبرة والعظة ، والله تعالى يتولانا برحمته ويجمعنا بحبنا لأنبيائه ورسله ونشر فضائلهم ورفع منازلهم ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فإن المرء كما قال النبي ﷺ « مع من أحب » .

فمن الفوائد ما ذكره العلامة السعدي — رحمه الله — وهي كثيرة نذكر بعضها مختصراً :

(١) منها : أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها ؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال ، ومن محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومنة ، ومن ذلٍّ إلى عزٍّ ، ومن أمنٍ إلى خوفٍ وبالعكس ، ومن ملك إلى رقٍّ وبالعكس ، ومن فُرقةٍ وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس ، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس ، ومن وصول إلى عواقب حميدة ، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الألباب .

(٢) ومنها : ما فيها من أصول تعبير الرؤيا المناسبة ، وأن علم التعبير علمٌ مهمٌّ ، يعطيه الله من يشاء من عباده ، وأن أغلبه ما تبنى عليه المناسبات ، وضرب

الأمثال ، والمشابهة في الصفات . **فإن قيل** من أين أخذ قوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٩] فإن بعض المفسرين قال : هذه زيادة من يوسف في التعبير بوحي أوحي إليه .

فالجواب : ليس الأمر كذلك ، وإنما أخذها من رؤيا الملك ، فإن السنين المجدبة سبع فقط ، فدل على أنه سيأتي بعدها عام عظيم الخصب كثير البركات يزيل الجدب العظيم الحاصل من السنين المجدبة ، الذي لا يزيلها عام خصب عادي ، بل لابد فيه من خصب خلاف العادة ، وهذا واضح من مفهوم العدد .

(٣) ومنها : أنه ينبغي للعبد البعد عن أسباب الشر وكتمان ما تخشى مضرته ؛ لقول يعقوب ليوسف : ﴿ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ .

(٤) ومنها : أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به ويتصل من أهل بيته وأقاربه وأصحابه ، فإنه لابد أن يصلهم ويشملهم منها جانب لقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [يوسف : ٦] أي : بما يحصل لك ، ولهذا لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين والسرور وزوال المكروه وحصول المحبوب ما ذكر الله في آخر القصة .

(٥) ومنها : أن النعم الكبيرة الدينية والدنيوية لابد أن يتقدمها أسباب ووسائل إليها ، لأن الله حكيم وله سنن لا تتغير ، قضى بأن المطالب العالية لا تنال إلا بالأسباب النافعة ، خصوصاً العلوم النافعة وما يتفرع عنها من الأخلاق والأعمال

فلهذا عرف يعقوب أن وصول يوسف إلى تلك الحالة التي يخضع له فيها أبوه وأمه وإخوته مقام عظيم ومرتبة عالية ، وأنه لابد أن ييسر الله ليوسف من الوسائل ما يوصله إليها ، ولهذا قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ الآية [يوسف : ٦] .

(٦) ومنها : أن العدل مطلوب في جميع الأمور الصغار والكبار ؛ في معاملة السلطان لرعيته ، ومعاملة الوالدين للأولاد ، والقيام بحقوق الزوجات وغير

ذلك في المحبة والإيثار ونحوها ، وأن القيام بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب ، وفي الإخلال بذلك تفسد الأحوال ، ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر ، لهذا لما قدم يعقوب عليه السلام يوسف في المحبة وجعل وجهه له ، جرى منهم على أبيهم وأخيهم من المكروه ما جرى .

(٧) **ومنها** : الحذر من الخَلْوة بالنساء الأجنبيات وخصوصاً اللاتي يخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها ؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف وحبها الشديد له ، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل .

(٨) **ومنها** : أن من دخل الإيمان قلبه ، ثم استنار بمعرفة ربه ونور الإيمان به ، وكان مخلصاً لله في كل أحواله ، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وإخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه ، لأن الله علل صرف هذه الأمور عن يوسف بقوله: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام ، ومن قرأها بالفتح ، فإن مَنْ أخلصه الله واجتباه فلابد أن يكون مخلصاً ، فالمعنيان متلازمان .

(٩) **ومنها** : أنه ينبغي للعبد إذا ابتلي بالوقوع في محلٍّ فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية ما يمكنه ، ليتمكن من التخلص من ذلك الشر ، كما فر يوسف هارباً للباب وهي تمسك بثوبه وهو مدبر عنها.

(١٠) **ومنها** : أن يوسف اختار السجن على المعصية ، فهكذا إذا ابتلي العبد بأحد أمرين إما أن يلجأ إلى فعل المعصية وإما أن يعاقب عقوبة دنيوية، فعليه أن يختار العقوبة الدنيوية التي فيها الثواب من هذا الوجه بعدة أمور : ثواب من جهة اختياره الإيمان على السلامة من العقوبة الدنيوية ، وثواب من جهة أن هذا من باب التخليص للمؤمن والتصفية ، وهو يدخل في الجهاد في سبيل

الله ، وثواب من جهة المصيبة التي نالته والألم الذي أصابه ، فسبحان من ينعم ببلائه ويلطف بأصفيائه، وهذا أيضاً عنوان الإيمان وعلامة السعادة .

(١١) ومنها : أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه بفعله أو الإخبار بحاله ، وأن هذا لا يكون نقصاً ولا شكوى إلى المخلوق ممنوعة ، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض فيها ، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

(١٢) ومنها : أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عَمَّا في نفسه من الصفات الكاملة من العلم وغيره إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب ولم يقصد به الرياء لقول يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي لها يقوم بما يقدر عليه من إقامة الشرع، وإيصال الحقوق إلى أهلها ، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلاً وأعظم كفاءة من غيره ، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة ، أو كان موجوداً من هو أمثل منه أو مثله ، أو لم يرد بها إقامة أمر الله بل أراد الترأس والمأكلة المالية .

(١٣) ومنها : أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم ، فإن يعقوب قال لأولاده ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : ٦٤] وقال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف : ١٨] فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرطين فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن يقول ما قال من غير لوم عليه .

(١٤) ومنها : أن الفرج مع اشتداد الكرب ، فإنه لما تراكمت الشدائد المتنوعة ، وضاق العبد ذرعاً بحملها فرجها فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين ، وهذه عوائده الجميلة خصوصاً لأوليائه وأصفيائه ، ليكون لذلك

الواقع الأكبر والمحل الأعظم ، وليجعل من المعرفة بالله والمحبة له ما يوازن ويرجح بما جرى على العبد بلا نسبة .

(١٥) ومنها : فضيلة التقوى والصبر ، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر ، وإن عاقبة أهلهما أحسن العواقب لقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

(١٦) ومنها : أنه ينبغي للعبد إذا أنعم عليه بنعمة بعد ضدها ، أن يتذكر الحالة السابقة ليعظم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره لله تعالى ؛ ولهذا قال يوسف ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

(١٧) ومنها : ما في هذه القصة من الألطاف المتنوعة المسهلة للبلاء منها رؤيا يوسف السابقة فإن فيها روحاً ولطفاً بيوسف ويعقوب – عليهما السلام – وبشارة بالوصول إلى تأويلها ، ولطف الله بيوسف إذ أوحى إليه وهو في الجب ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[يوسف: ١٥] وتنقلاته من حال إلى حال ، فإن فيها ألطافاً ظاهرة وخفية ، ولهذا قال في آخر الأمر: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ يلطف به في أحواله الداخلية ، ويلطف له في الأمور الخارجية ، ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر [١] .

(١٨) قال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : ١٣٦] وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ،

(١) باختصار من تيسير اللطيف المنان (١٥٤–١٦٣) .

يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم [1].

(١٩) **قال القاسمي – رحمه الله –** في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧] تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه. يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا في هذه الحالة ، ولو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا .

وقد استفيد من الآية أحكام :

منها – أن بكاء المرء لا يدل على صدقه لاحتمال أن يكون تصنعاً . نقله ابن العربي [2] ومنها : مشروعية المسابقة ، وفيه من الطب رياضة النفس

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٦ ، ٤٧) وانظر كلام القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ [يوسف:٩] فاستدل بها على أنهم لم يكونوا أنبياء لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين فارتكبوا معصية ثم تابوا . الجامع لأحكام القرآن (٤/٣٣٦٢) . ورجح السعدي عكس ذلك وقال : إن العبرة للعبد في حال كمال النهاية لا بنقص البداية ؛ فإن أولاد يعقوب – عليه السلام – جرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والاعتراف التام والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة ، وإذا سمح العبد بحق الله ، فالله أولى بذلك ، وهو خير الراحمين الغافرين ، ولهذا في أصح الأقوال أن الله جعلهم أنبياء لمحو ما سبق منهم ، وكأنه ما كان ، ولقوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ [آل عمران:٨٤] وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم ، ومما يؤيد هذا أن في رؤيا يوسف أنهم هم الكواكب التي فيها النور والهداية وهي من صفات الأنبياء ، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء عباد . خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٥٧) .

(٢) قال القرطبي : وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى كما قال حكيم :

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ ... تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

والدواب وتمرين الأعضاء على التصرف - كذا في الإكليل .

قال بعض اليمانيين : اللعب إن كان بين الصغار جاز بلا مفسدة فيه ولا تشبه بالفسقة، وأما بين الكبار ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون في معنى القمار فلا يجوز .

الثاني : أن لا يكون في معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد كالمناضلة بالقسي ، والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز اتفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها ففي ذلك قولان للشافعية رُجِّحَ الجواز إن كان بغير عوض ، أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا لأنه ﷺ صارع يزيد بن ركانة . وفي الحديث : « **ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه** »[1] انتهى .

(٢٠) قال الشنقيطي رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ الآية [يوسف : ٢٤] .

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - همَّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همَّت هي به منه ؛ ولكن القرآن العظيم بين براءته - عليه الصلاة والسلام - من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته ، وشهادة الله له بذلك ، واعتراف إبليس به ، أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم : يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود ، أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ الآية [يوسف : ٣٣].

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ وقولها : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ

(١) محاسن التأويل (٩/٢٠٣) ، والحديث رواه أبو داود (٢٥١٣) الجهاد باب في الرمي.

وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] ، وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله : ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف:٢٩] .

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ الآية [يوسف : ٢٦] .

وأما شهادة الله – جل وعلا – ببراءته ففي قوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

قال الفخر الرازي في تفسيره : قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات :

أولها قوله : ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني قوله : ﴿ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ أي : وكذلك نصرف عنه الفحشاء .

والثالث قوله: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾[الفرقان:٦٣] .

والرابع قوله : ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وفيه قراءتان : قراءة باسم الفاعل ، وأخرى باسم المفعول ، فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص ، ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته ، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه . اهـ من تفسير الرازي .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣] .

أما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢ – ٨٣] فأقر بأنه

لا يمكنه إغواء المخلصين ، ولا شك أن يوسف من المخلصين كما صرح تعالى به في قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي .

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه : وعند هذا نقول : هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف – عليه السلام – هذه الفضيحة ، إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته [1].

(٢١) قال العلامة محمد رشيد رضا في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف : ٦] أي : لقد كان في قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده ، وتربيته لهم وحسن عنايته بهم للسائلين عنها من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها ، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجوه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه ، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها ، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعُرف أمرها ، ولو لم تخِبْ في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما أُلقي في السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر، وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله ، وجعله على خزائن الأرض ، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ويأتي

(١) أضواء البيان (٤٩ – ٥١) .

بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده ، بل لَمَا تم قول أبيه له : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [يوسف:٦] فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقاً وباطنها مشرقاً ، وبدايتها شراً وخسراً ، وعاقبتها خيراً وفوزاً ، وصدق الله عز وجل : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة [١].

(٢٢) وقال – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] أي : تائبين إلى الله من هذه الجريمة ، مصلحين لأعمالكم بما يكفر إثمها وعدم التصدي لمثلها ، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم ، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية الله تعالى ، ولا يزال ينزغ له ويسول ويعد ويمني ويأوِّل حتى يرجع داعي الإيمان أو يجيب داعي الشيطان، وهذا الذي غلب على إخوة يوسف فكان ما كان ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام ، وهو مقتضى الحكمة التي أرادها الله [٢] .

(٢٣) **قال القرطبي رحمه الله** : واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ، وبيانه قوله في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] وقيل : سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم وعفوه عنهم – بعد التقائهم – عن ذكر ما تعاطوه وكرمه في العفو عنهم حتى قال : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار

(١) تفسير المنار (١٢/٢٥٩) باختصار .
(٢) تفسير المنار (١٢/٢٦٢) .

والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وَسِيَرَهِمَا . وقيل : (أحسن) هنا بمعنى : أعجب .

وقال بعض أهل المعاني : إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، وانظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأةِ العزيز قيل : وللملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه ومستعبر الرؤيا الساقي ، والشاهد فيما يقال ، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير [١] .

(٢٤) وقال – رحمه الله – في قوله تعالى : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] .

قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعلٍ لا يعارضه فيه فيصلح منه ما شاء ، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك ، وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة وهذا اليوم غير جائز . والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه والله أعلم [١] .

(٢٥) قال القاسمي في قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ الآية [يوسف : ٢٦–٢٧] ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبرٍ ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر وهو قَدُّهُ من قُبُلٍ على علم بأنه لم ينقد من قبل ؛ حتى ينفيَ عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة ، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده ، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه في الذكر ، إزاحة للتهمة ووثوقاً بأن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/٣٣٤٩) .

الأمارة الثانية هي الواقعة فلا يضره تأخيرها ، وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم - هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله : ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾[غافر : ٢٨] فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى - عليه السلام - ووثوقاً بأن القسم الثاني وهو صدقه هو الواقع فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة ، ومن ثم قال : ﴿ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه ، وبنحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام وعاء أخيه الآتي ذكره ؛ لأنه لو بدأ به لظنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه والله أعلم(١) .

(٢٦) قال أبو السعود في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

هذا فزع منه - عليه السلام - إلى ألطاف الله تعالى جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة من الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة، كقول المستغيث : أدركني وإلا هلكت ، لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن . انتهى (٢) .

(٢٧) وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف : ٣٧] .

لَمَّا استعبراه وَوَصَفَاهُ بالإحسان افترص (٣) ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يُحْمَل إليهما من

---

(١) محاسن التأويل (٩/٢١٦ - ٢١٧) .
(٢) نقلاً عن السابق (٩/٢٣١) .
(٣) « افترص » أي : اتخذها فرصة .

الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدانه كما أخبرهما وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله ، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحدٌ منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه بما استفتي فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية [١] .

(٢٨) قال ابن القيم رحمه الله : في المفاسد العاجلة والآجلة لعشق الصور: والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس ، وهم : قوم لوط والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه ، فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع ، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة وذلك لوجوه :

أحدها: ما ركب الله – سبحانه – في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يُذَمُّ إذا صادف حلالاً.

الثاني : أن يوسف – عليه السلام –كان شابًا ، وشهوة الشاب وحدته أقوى.

الثالث : أنه كان عَزَبًا لا زوجة له ولا سرية تكسر حدة الشهوة .

الرابع : أنه كان في بلاد غربة لا يتأتى للغريب فيها قضاء الوطر ما يتأتى لغيْره في وطنه وأهله ومعارفه .

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ، بحيث إن كل واحدٍ من هذين

---

(١) الكشاف (٢/٤٦٩ – ٤٧٠).

الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس : أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد في نفسه من ذل النفس والخضوع والسؤال لها.

السابع : أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له فاجتمع داعي الرغبة والرهبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها ؛ فإنها هي الطالبةُ والراغبة ، وقد غَلَّقت الأبواب وغَيَّبَتِ الرُّقباء .

العاشر : أنه كان مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه ، وكان الأمن سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي.

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن ؛ لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

الثاني عشر : أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ؛ إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة وداعي حب السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه .

ومع هذه الدواعي كلها فقد آثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن يختار السجن على الزنا فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى

إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه [١] .

(٢٩) **قال القاسمي رحمه الله :** قال بعضهم : إن من أمعن النظر في قصة يوسف – عليه السلام – علم يقيناً أن التَّقِيَّ الأمينَ لا يضيع الله سعيه ، بل يُحسن عاقبته ويُعلي منزلته في الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ؛ فإن الله يعضده وينجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ، فإن يوسف – عليه السلام – لما لم يخش للنوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظلماً وشراً ولا للتنكيل به ألماً وضراً ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب – نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ولسان الصدق طول أيام الدهر ، وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثالاً نقتفي أثره عند طروء التجارب ، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار ، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزار ، فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد [٢] .

(٣٠) **قال عبد الوهاب النجار رحمه الله :** تحت عنوان «العظة البالغة» من قصصه : إنكم ترون أن يوسف تقلب في الحالين بؤس ورخاء ، وتداولته أيدي رِيْحَيْنِ زعزع ورخاء ، وهو كالذهب الإبريز لا يزيد على التقلب في النار إلا صفاء ، أو كالياقوت لا تؤثر فيه النيران ، فبينما هو في كنف أبٍ يؤثره بالكرامة ويحوطه بالمحبة ويخاف عليه من الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ، إذا هو في يد إخوته يسلفونه الإهانة والمذلة ، يضربونه ظالمين ، ويلقونه في غيابة الجب غير نادمين ، وبينما هو على هذه الحال إذا هو يشم

---

(١) باختصار من كتاب : « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » لشيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن قيم الجوزية (٢١٩–٢٢١) – المكتبة القيمة .

(٢) محاسن التأويل (٩/٢٤٢) .

نسيم الحياة من جديد ، ولكنها حياة الرق والعبودية ، ثم انتقل إلى عبودية هي أشبه بالحرية إذ صار رئيس العبد والخدم في بيت سيده ، وبينما هو في هذه النعمة التي يغبطه عليها كثير من الأحرار ، إذا هو في غيابة السجن بلا ذنب اقترف ولا جريمة اجترح ، وبينما هو في هذه الحال إذا هو في السجن مبشر ديني يدعو إلى عبادة الله ويصد الناس عن كل ما سواه من الأرباب المتفرقين ، وإذا هو يقسم الحظوظ ويخبر بالأشياء الغائبة ، ثم ترقت به الحال إلى أن صار معبر منام الملك ونذيره بقحط عقب رخاء يعم كل منهما البلاد ، فصيره على خزائن الأرض واصطفاه لنفسه واستخلصه لمملكته ، فصار قسيم الملك وكافل المملكة المصرية وعليه إعاشة مصر والبلاد القريبة منها ، فهو وزير التموين ، وبينما هو على هذه الحال لا ينقصه إلا أن يشاهد أباه وأمه إذا هو بإخوته قد وقعوا في شركه ، فداعبهم أجمل مداعبة وعبث معهم عبثاً كله جد[1] واحتال عليهم حتى أتوه بأخيه لأمه وأبيه، ثم أتوه بأهلهم أجمعين ، وهو في كل هذه الأطوار المختلفة مستمسك بأكمل الخصال وجميل الأخلاق :

وَإِنِ امْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى كُلِّ هَـذَا إِنَّـهُ لَكَـرِيمُ

فهذه القصة الجميلة عبرة وعظة بالغة ، لا تلمح العبرة منها عين كل ناظر إليها ، ولا ينفذ إلى لبابها كل قارئ لها ، ولكنها كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2] [يوسف : ١١١] .

---

(١) هذا المعنى لا يليق بالأنبياء الكرام – عليهم الصلاة والسلام – وكتاب « النجار » مليء بما لا يليق بالأنبياء وبما نزههم الله عنه وإنما أوقعه في هذا الضلال المبين والإفك المشين ثقته بكتب أهل الكتاب وكثرة استدلاله بنصوصهم التي أمر النبي ﷺ ألا نصدقها ولا نكذبها وأي تصديق لها أعظم من الاستشهاد بها وكأنها من صحاح الأخبار والله يغفر لنا وله .

(٢) قصص الأنبياء ص (١٨٠) – مكتبة دار التراث .

تكميل الأحاديث الواردة في فضل يوسف – عليه السلام – :

(١) عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ أنه قال : « **الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام** » [1] .

(٢) وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – سئل رسول الله ﷺ : من أكرم الناس؟ قال : « **أتقاهم لله** » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « **فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله** » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « **فعن معادن العرب تسألوني؟ الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا** »[2].

(٣) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « **يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته** » [3] .

قال الحافظ : أي : لأسرعت الإجابة في الخروج من السجن ولما قدمت طلب البراءة ، فوصفه بشدة الصبر حيث لم يبادر بالخروج ، وإنما قاله ﷺ تواضعاً ، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير بل يزيده رفعة وجلالاً وقيل من جنس قوله : « **لا تفضلوني على يونس** » [4] وقد قيل : إنه قاله قبل أن يعلم أنه أفضل من الجميع [5] .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦/٤١٧) أحاديث الأنبياء .

(٢) رواه البخاري (٦/٤١٧) أحاديث الأنبياء ، ومسلم (١٥/١٣٤) الفضائل .

(٣) رواه البخاري (٦/٤١٨) أحاديث الأنبياء .

(٤) سيأتي تخريجه – إن شاء الله تعالى – في قصة يونس – عليه السلام – .

(٥) فتح الباري (٦/٤١٣)

قصة أيوب - عليه السلام -

ونحن في هذه القصة مع علم من الأعلام ، ونبي من أنبياء الله الكرام ، اشتهر بالصبر واليقين ، وعظيم التوكل على الله رب العالمين ، والأنبياء كلهم حلاهم الله عز وجل بالفضائل ، ونزههم عن القصور والرذائل ، إلا أن كل واحد منهم كان قدوة في خصلةٍ من خصال الخير ، يتأسى به الحاضرون ويكون عبرة ومثالاً يقتدي به السالكون ، ما دارت الأيام والسنون ، فهو من أنبياء بني إسرائيل الكرام من ذرية إبراهيم المباركة ــ عليه الصلاة والسلام ــ كما قال تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾[الأنعام : ٨٤] .

وقد أخبر الله عز وجل أنه من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴾[النساء: ١٦٣].

قال الحافظ رحمه الله : أصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جريج وصححه ابن حبان والحاكم من طريق نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس : « **أن أيوب ابتلي فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه ، فكانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما للآخر : لقد أذنب أيوب ذنباً عظيماً ، وإلا لكشف عنه هذا البلاء فذكره الآخر لأيوب ، يعني فحزن ودعا الله حينئذٍ ، فخرج لحاجته وأمسكت امرأته بيده فلما فرغ أبطأت عليه ، فأوحى الله إليه أن اركض برجلك ، فضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها فرجع صحيحاً ، فجاءت امرأته فلم تعرفه ، فسألته عن أيوب فقال : إني أنا هو ، وكان له أندران : أحدهما للقمح والآخر للشعير ، فبعث الله له سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب**

حتى فاض ، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض » [١] .

ولعل هذا الذهب والفضة هو المعني بما أغناه الله عز وجل به كما في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رِجْلُ جراد من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك » [٢] .

ووقع عند أحمد : « لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب » .

وقوله « رِجْلُ جراد » أي : جماعة جراد .

قال الحافظ : وفي الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه ، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة ، وفيه فضل الغني الشاكر ، واستنبط منه الخطابي جواز أخذ النُّثار في الإملاك ، وتعقبه ابن التين فقال : هو شيءٌ خص الله به نبيه أيوب، وهو بخلاف النِّثار ، فإنه من فعل الآدمي ، فيكره لما فيه من السَّرف ، ورد عليه بأنه أذن فيه من قِبَل الشارع إن ثبت الخبر، ويستأنس فيه بهذه القصة والله أعلم [٣] .

قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤١ – ٤٤] .

قال ابن كثير رحمه الله : قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ، من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران ، وحكى ابن عساكر أنها

---

(١) فتح الباري (٦/٤٢١) والحديث صححه الألباني : (الصحيحة : ١٧) .

(٢) رواه البخاري (٦/٤٢٠) أحاديث الأنبياء . (٣) باختصار من الفتح (٦/٤٢١).

كانت كلها له ، وكان له أولاد وأهلون كثير .

فسلب منه ذلك جميعه ، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء ، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله – عز وجل – بهما ، وهو في ذلك كله صابرٌ محتسبٌ ذاكرٌ الله – عز وجل – في ليله ونهاره وصبحه ومسائه .

وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده، وألقي على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها ، وشفقته عليها ، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته، وضعف حالها ، وقل مالها ، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأَوَدِه – رضي الله عنها وأرضاها – وهي صابرة معه على ما حَلَّ بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد ، وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل** » (١) وقال : « **يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه** » (٢) ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً ، حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب أيضاً بما حصل له من أنوع البلايا (٣) .

وقال القاسمي رحمه الله : يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصاً إسرائيلية في ابتلائه عليه السلام ولا وثوق من ذلك كله إلا بمجمله ، وهو ما أشار إليه التنزيل الكريم لأنه المتيقن ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٩) .
(٢) هو تكملة للحديث السابق .
(٣) قصص الأنبياء (٢٦٨ – ٢٦٩) .

عظيمة في نفسه وماله وأهله ، وأنه صبر على ذلك صبراً صار يضرب به المثل لثباته وسعة صدره وشجاعته ، وأنه جوزي بحسنة صبره أضعافها مضاعفة .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : ٤٢] .

قال الزمخشري رحمه الله : فإن قلت : لم نسبه إلى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه الله – عز وجل – على أنبيائه ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولوقدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من النصَب والعذاب نسبه إليه ، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو ، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل [١] .

قوله تعالى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ .

قال العلامة السعدي : لما تطاول به المرض العظيم ، ونسيه الصاحب والحميم نادى ربه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فقيل له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ فركض فنبعت بركضته عين ماء بارد فقيل له : اشرب منها واغتسل ، ففعل ذلك فذهب ما في ظاهره وباطنه من البلاء [٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٤٣] .

قال الألوسي : بإحيائهم بعد هلاكهم على ما روي عن الحسن ، وقيل :

---

(١) الكشاف (٤/٩٧) باختصار .
(٢) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٤٥) .

وإليه أميل ، وهبه من كان حيًا منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم العيش فتناسلوا ، حتى بلغ عددهم عدد من مضى ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ فكان له ضعف ما كان ، والظاهر أن هذه الهبة كانت في الدنيا ، وزعم بعض ! أن هذا وعد ، وتكون تلك الهبة في الآخرة ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي : لرحمة عظيمة عليه من قبلنا ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وتذكيراً لهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ، ويلجأوا إلى الله تعالى فيما يصيبهم كما لجأ ، ليفعل سبحانه بهم ما فعل به من حسن العاقبة (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

قال ابن كثير رحمه الله : وذلك أن أيوب – عليه الصلاة والسلام – كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته ، قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك ، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، وقيل لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله – عز وجل – وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأفتاه الله – عز وجل – أن يأخذ ضغثاً ، وهو الشمراخ فيه مائة قضيب ، فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه ، ولهذا قال جل وعلا :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجاع منيب (٢) .

---

(١) باختصار من روح المعاني (٢٣/٢٠٧) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٠) باختصار .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) **قال العلامة السعدي في قوله :** ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ :

في هذا دليل على أن كفارة اليمين لم تشرع لأحدٍ قبل شريعتنا ، وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذي لابد من وفائه ، وفي هذا دليل على أن من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك ، لأن الغرض التنكيل ليس الإتلاف والإهلاك [١] .

(٢) **قال القرطبي :** تضمنت هذه الآية ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ جواز ضرب الرجل امرأته تأديباً ، وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل ، وهذا لا يجوز في الحدود ، إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوق حد الأدب ، وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حد الأدب ، ولهذا قال عليه السلام : « وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّح » [٢] .

(٣) **وقال رحمه الله :** استدل بعض جهال المتزهدة وطَغَام المتصوفة بقوله تعالى لأيوب : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ على جواز الرقص . قال أبو الفرج ابن الجوزي : وهذا احتجاج بارد ؛ لأنه لو كان أُمر بضرب الرِّجْل فرحاً كان لهم فيه شبهة ، وإنما أمر بضرب الرِّجْل لينبع الماء .

---

(١) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٤٥) وخالف القرطبي في ذلك وانظر الجامع لأحكام القرآن (٥٦٥٨/٧) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن(٧ / ٥٦٥٧) بتصرف . والحديث أخرجه الترمذي (١١٦٣) وغيره وصححه الألباني (صحيح الجامع ٣٠٦٨) .

قال ابن عقيل : أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص ! [١] .

(٤) وقال أيضاً في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾[ص : ٤٤] ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ أي : على البلاء ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ أي توابٌ رجاعٌ مُطيعٌ .

وسئل سفيان عن عبدين ابتلي أحدهما فصبر ، وأنعم على الآخر فشكر ؟ فقال : كلاهما سواء ، لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر ثناءً واحداً ، فقال في وصف أيوب : ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ وقال في وصف سليمان : ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ [ص : ٣٠] .

قال : وقد رد هذا الكلام صاحب « القوت » واستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغني ، وذكر كلاماً كثيراً شيد به كلامه ، وخفي عليه أن أيوب – عليه السلام –كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده ، وإنما ابتلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده ، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتحنوا وفتنوا، فأيوب – عليه السلام – دخل في البلاء على صفة فخرج منه كما دخل فيه ، وما تغير منه حال ولا مقال ، فقد اجتمع مع أيوب في المعنى المقصود وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً ، وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر والفقير الصابر سواء ، وهو كما قال سفيان والله أعلم [٢] .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٥٦٥٩) باختصار .

(٢) السابق (٥٦٥٩/٧ ، ٥٦٦٠) بتصرف . وانظر أدلة المفضلين لأحدهما على الآخر والفصل في القضية في كتاب : « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين »لابن القيم » رحمه الله ورجح – رحمه الله – أن أفضلهما أتقاهما لله عز وجل .

(٥) قال القاسمي رحمه الله :

واستدل بهذه الآية ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا . . . ﴾ على أن الاستثناء شرطه الاتصال، إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث ، واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى : فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح أن رجلاً قال له : إني أردت أن لا أكسي امرأتي ذراعاً حتى تقف بعرفة ، فقال : احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة ، فقال : إنما عنيت يوم عرفة . فقال عطاء : وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ما نوى أن يضربها بالضغث وإنما أمره الله أن يأخذ ضغثاً فيضربها به ، قال عطاء : إنما القرآن عبر . انتهى كلام (الإكليل) [١] .

هذه الفتوى من عطاء – رحمه الله – مصير منه أن هذا الحكم عام ، وهو خلاف بين السلف ، وروي نحوه عن الشافعي ، وقال مالك : من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبر ، فقال القرطبي : قال بعض علمائنا : يريد مالك قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ أي إن ذلك منسوخ ، وهذا مذهب أصحاب الرأي .

(٦) وقال ابن القيم رحمه الله : وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول : إنه لو حلف ليضربنه عَشَرَة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبر في يمينه ، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب

---

(١) محاسن التأويل (١٤/١٧٧) .

أحمد ، وقال الشافعي : إن علم أنها مَسَّتْهُ كلها بَرَّ في يمينه ، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر ، وإن شك لم يحنث ، ولو كان هذا موجباً لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف والشارب بعدد الضرب ، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة ، وهذا إنما يجري في المرض ، كما قال الإمام أحمد في المريض عليه الحد ، ويضرب بعثكال يسقط عنه الحد .

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق ، فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه ، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال أخبرت أيوب – عليه السلام – بذلك ، فقال : إنه الشيطان ، ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوطٍ فكانت معذورة محسنة في شأنه ، ولم يكن في شرعهم كفارة ، فإنه لو كان في شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير ، ولم يحتج إلى ضربها ، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود ، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه ، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة ، وامرأة أيوب كانت معذورة لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان وإنما قصدت الإحسان ، فلم تستحق العقوبة ، فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى ، فلا يتعدى بهما عن محلهما [١] .

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٩٢/٢) .

قصة يونس - عليه السلام -

هو يونس بن متى كما ثبت في الصحيح ، وهو من أنبياء بني إسرائيل ، ذكر أكثر المفسرين أنه أُرسل إلى أرض أهل نَيْنَوَى من أرض الموصل ، ويكفي في شرفه وفضله قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٩] والرسل هم أشرف الخلائق ، ولذا قال النبي ﷺ: « **لا يقولن أحدكم إني خير من يونس** » زاد مسدد « **يونس بن متى** »[1] وقال : « **ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى** » [2] .

قال الحافظ : قيل : خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له ، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة [3] .

وقد وقع في هذه الخشية المذكورة « النجار » في قصصه فقال : وفي اعتقادي أن يونس كلف بالذهاب إلى أولئك القوم عقيب نبوته ، ولم يكن قد مُرِّنَ على النبوة وواجباتها وآداب أهلها ، لأن العلم بذلك يستدعي مدة ، وتكرر الوحي والازدياد من معرفة الله تعالى والارتياض على الوحي وتلقيه ، فحداثته في النبوة هي التي خيلت إليه ما قلنا ، من أنه خيل إليه أنه بابتعاده وتغربه في البلاد ربما استتبع إعفاءه من تلك المأمورية ، أضف إلى ذلك أنه كان حدث السن ، فقد أورد الألوسي في تفسيره أن سنَّهُ كانت ثمانياً وعشرين سنة ، ومن كان حديث العهد بالنبوة وفي مثل سن يونس يغتفر الله تعالى لهم ما عملوه من غير تمرد وقصد جازم إلى المعصية [4].

---

(١) رواه البخاري (٦ / ٤٥٠) أحاديث الأنبياء ،ومسلم (١٥ / ١٣٤) الفضائل بلفظ : « **ما ينبغي لأحدٍ أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى** » .

(٢) رواه البخاري (٦ / ٤٥١) أحاديث الأنبياء .

(٣) فتح الباري (٦ / ٤٥٢) .

(٤) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (٤٣١) – دارالتراث .

ولاشك أن هـذا الكلام في حق يونس – عليه السلام – ينضح بسوء الأدب ، وعدم معرفة الرسل الكرام وما يليق بأحوالهم وصفاتهم ، وفيه غفلة شنيعة عن قول الله عز وجل : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص: ٦٨] وقوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فلا يليق لِعُلُوِّ مراتبهم وارتفاع منازلهم نسبتهم إلى القصور والعيب والنقص ، بل في ذلك سوء أدب مع الله – عز وجل – الذي اصطفاهم ونزههم من العيوب ورباهم على عينه واصطنعهم لنفسه ، فقد قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ولم يقل (هؤلاء الرسل) لأن ﴿ تِلْكَ ﴾ للبعيد ، فكأن ذلك لارتفاع منازلهم جميعاً وعلو مراتبهم .

وهذا الذي ذكره النجار إنما هو من اتباع الظن ، والظن لا يغني من الحق شيئاً ، وهذه طامة جديدة من طامات هذا الكتاب ، وقد أشرنا قبل ذلك إلى كثرة تعظيمه للإسرائيليات ونقله منها وكأن كتبهم لم تحرف ، ومن أدلة التحريف مع نص الكتاب المنزل وبيان النبي المرسل ﷺ اشتمال هذه الكتب على ما لا يليق بالله – عز وجل – وكذلك نسبة الأنبياء إلى النقص والعيب ، فلعل المؤلف تأثر بذلك فجاء قصصه مليئاً بما لا يليق بأحوال الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٣٩ – ١٤٨] .

قال ابن كثير رحمه الله : بعث الله يونس – عليه السلام – إلى أهل نَيْنَوَى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله – عز وجل – فكذبوه ، وتمردوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم

حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، فلبسوا المُسُوحَ وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات ، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي ، فَرَغَتْ الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان اتصل بهم سببه ، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ [يونس : ٩٨] أي : هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها ، فدل على أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ : ٣٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] أي : آمنوا بكمالهم[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ .

قال الشوكاني : يونس هو ذو النون ، وهو ابن متى .

قال المفسرون : وكان يونس قد وعد قومه العذابَ ، فلما تأخر عنهم العذاب وخرج عنهم ، وقصد البحر ، وركب السفينة ، فكان بذهابه إلى البحر كالفار

(١) قصص الأنبياء (٢٨٦ – ٢٨٧) .

من مولاه ، فوصف بالإباق ، وهو معنى قوله : ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١) .

وقال القاسمي : ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ أي : بغير إذن ربه عن قومه المرسل إليهم ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي : السفينة المملوءة ليركب منها إلى بلد آخر. روي أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس ، فهبت ريح شديدة كادت تغرقهم ، فاقترعوا ليعلموا بسبب مَن أصابهم هذا البلاء ، فوقعت على يونس فألقوه في البحر ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي: قارع ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي : المغلوبين بالقرعة ، وأصله الزلق عن الظفر . ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي ابتلعه ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي : آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر ربه (٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ٤٢] .

قال ابن الجوزي رحمه الله : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : من المصلين . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ، والثاني : من العابدين . قاله مجاهد ووهب بن منبه . والثالث : قول ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] قاله الحسن . وروي عمران القطان عن الحسن قال : والله ما كانت إلا صلاة أحدثها في بطن الحوت ، فعلى هذا القول يكون تسبيحه في بطن الحوت ، وجمهور العلماء على أنه أراد : لولا ما تقدم له قبل التقام الحوت إياه من التسبيح ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ **قال قتادة :** لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة ، ولكنه كان كثير الصلاة في الرخاء فنجاه الله تعالى بذلك (٣) .

---

(١) فتح القدير (٤/٤١٠) .
(٢) محاسن التأويل (١٤/١٢٩ – ١٣٠) .
(٣) زاد المسير في علم التفسير (٧/٨٧) .

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٤٣] .

قال الشوكاني : والمعنى أن الله طرحه من بطن الحوت في الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها ، وهو عند إلقائه سقيم لما ناله في بطن الحوت من الضرر، قيل : صار بدنه كبدن الطفل حين يولد .

وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ ﴾ وقوله في موضع آخر : ﴿ لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [القلم : ٤٩] فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء ، وأجاب النحاس وغيره بأن الله سبحانه أخبرنا هنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم ، ولولا رحمته – عز وجل – لنبذ بالعراء وهو مذموم [١] .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن عباس : هو القرع .

وقد قال أمية بن أبي الصلت قبل الإسلام :

فَأَنْبَتَ يَقْطِينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لَوْلاَ اللهُ أُلْفِيَ ضَاحِيَا

قال الزجاج : كل شجرة لا تنبت على ساق وإنما تمتد على وجه الأرض نحو القرع والبطيخ والحنظل فهو يقطين ، واشتقاقه من (قطن بالمكان) إذا أقام ، فهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض ، فلذلك قيل له : يقطين .

فإن قيل : ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها ؟

فالجواب : أنه خرج كالفرخ على ما وصفنا ، وجلده قد ذاب ، فأدنى شيء يمر به يؤذيه ، وفي ورق اليقطين خاصية ، وهو أنه إذا ترك على شيء لم يقربه

(١) فتح القدير (٤/٤١١) .

ذباب ، فأنبته الله عليه ليغطيه ورقها ، ويمنع الذباب ريحه أن يسقط عليه فيؤذيه (١) .

وقال ابن كثير رحمه الله : وذكر بعضهم في القرع فوائد : منها سرعة نباته وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره نيئاً ومطبوخاً ، وقشره أيضاً ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدُّباء ويتبعه من نواحي القصعة (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

قال الشوكاني : هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر وجرى له ما جرى بعد هربه ، و ﴿ أَوْ ﴾ في ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قيل : هي بمعنى الواو ، والمعنى : ويزيدون ، وقد وقع الخلاف بين المفسرين ؛ هل هذا الإرسال المذكور هو الذي كان قبل التقام الحوت له ، وتكون الواو في ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ ﴾ لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت وبين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق وتأخير ما تأخر ، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع ؟ على قولين ، وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم ؛ هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر أو لم يرسل إلا بعد ذلك ؟ والراجح أنه كان رسولاً قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس ، وبقي مستمراً على الرسالة ، وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته ورسالته .

﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : وقع منهم الإيمان بعد ما شاهدوا أعلام نبوته ، فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم (٣) .

---

(١) باختصار من زاد المسير (٨٨/٧ – ٨٩) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢١/٤ – ٢٢) .
(٣) فتح القدير (٤١١/٤) .

الفـوائـد والآثـار الإيمانيـة :

(١) قال الزمخشري : في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ عن قتادة قال : كان كثير الصلاة في الرخاء ، قال: وكان يقال : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر ، وإذا صدع وجد متكئاً، وهذا ترغيب من الله – عز وجل – في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله ، وإقباله على عبادته ، وجمع همه ، لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة ؛ لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد [١] .

(٢) وقال السعدي : إن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه ، وقد تعرف إلى ربه في حال الرخاء ، أن الله يشكر له ذلك ويعرفه في حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها ، ولهذا قال في قصة يونس : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ٤٢] .

(٣) وقال رحمه الله : وفي هذه القصة عتاب الله ليونس ﷺ وحبسه في بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة وكرامة ليونس، ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه ، فكثرة أتباع الأنبياء من جملة فضائلهم .

(٤) وفيها : ما قاله النبي ﷺ : « **دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه** : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ » [٢] .

---

(١) الكشاف (٤/٦١ ، ٦٢) باختصار .

(٢) تيسير اللطيف المنان (١٣٧) ، والحديث رواه أحمد في مسنده (١/١٧٠) والترمذي (١٣/٣٣) عارضة ، وابن أبي الدنيا (٢٥/٢٦) الفرج بعد الشدة ، والحاكم (٢/٣٨٣) وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني (صحيح الجامع / ٣٣٧٨).

(٥) **قال القرطبي** في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ ففي هذا من الفقه أن القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا ، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في آل عمران .

وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن : **الأول** : كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه [١] .

الثاني : أن النبي ﷺ رُفِعَ إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبدٍ لا مال له غيرهم ، فأقرع بينهم فأعتق اثنين وأرَقَّ أربعة [٢] .

الثالث : أن رجلين اختصما إليـه في مواريث قد درست ، فقال : « **اذهبا وتوخَّيا الحق واستَهِمَا ، وليحلل كل واحدٍ منكما صاحبه** »[٣] فهذه ثلاثة مواطن وهي : القَسْم في النكاح ، والعتق ، والقسمة ، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال وحسم داء التشهي. واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين ؛ الصحيح منها الإقراع ، وبه قال فقهاء الأمصار، وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن ، واختيار واحدة منهن إيثارٌ، فلم يبق إلا القرعة، وكذلك في مسألة الأعبد الستة ، فإن كل اثنين منهما ثلث ، وهو القدر الذي يجوز له فيه العتق في مرض الموت ، وتعيينهما بالتشهي لا يجوز شرعاً،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الهبة باب : هبة المرأة لغير زوجها (٢٥٩٤) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب : في فضل عائشة (٢٤٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان ، باب : من أعتق شركا له في عبد (١٦٦٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية ، باب : في قضاء القاضي إذا أخطأ (٣٥٨٣) وحسنه الألباني (الإرواء ٦/٦٢) .

فلم يبق إلا القرعة ، وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يميز الحق إلا القرعة فصارت أصلاً في تعيين المستحق إذا أشكل .

قال : والحق عندي أن تجرى في كل مُشْكَلٍ ، فذلك أبين لها وأقوى لفصل الحكم فيها ، وأجلى لرفع الاشكال عنها ، ولذلك قلنا : إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق .

(٦) **وقال رحمه الله** : الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز ، وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه ، وزيادة في إيمانه ، فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يقتل ، ولا يرمى في النار أو البحر ، وإنما تجرى عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته ، وقد ظن بعض الناس أن البحر إذا هاج على القوم ، فاضطروا إلى تخفيف السفينة ، أن القرعة تضرب عليهم ، فيطرح بعضهم تخفيفاً ، وهذا فاسد ، فإنها لا تخف برمي بعض الرجال ، وإنما ذلك في الأموال ، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل [١] .

(٧) **وقال – رحمه الله – في قوله تعالى** : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ الآية ومن هذا المعنى قوله ﷺ : « **من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل** » [٢] فيجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويخبئها بجهده ويسترها عن خلقه ، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه ، وقد خرج البخاري

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥٥٦٩/٧ – ٥٥٧٠) .

(٢) الحديث صححه الألباني في الجامع رقم ٥٨٩٤ ونسبه للضياء .

ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **بينما ثلاثة نفر** ـ في رواية ـ **ممن كان قبلكم يتماشون أخذهم المطر ، فآووا إلى غارٍ في جبلٍ ، فانحطت على فم الغار صخرة فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعضٍ : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم...** » الحديث بكماله ، وهو مشهور شهرته أغنت عن تمامه [١] .

(٨) **وقال الشنقيطي رحمه الله :** وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء :٨٨] يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعياً بإخلاص ، إلا نجاه الله من ذلك الغم ، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس هذا ، وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في دعاء يونس المذكور : « **لَمْ يَدْعُ به مسلم ربه في شيءٍ قط إلا استجاب له** » رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم ، والآية الكريمة شهادة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى ، لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك انجاء المؤمنين ، وقوله : ﴿ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى [٢] .

*** *** ***

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥٥٧١/٧) . والحديث : رواه البخاري (٤٥٠،٤٤٩/٤) الإجارة واللفظ له ، ومسلم (٥٧،٥٥/١٧) الذكر والدعاء والتوبة .
(٢) أضواء البيان (٦٨٦/٤) . والحديث تقدم تخريجه (٢٧٣) .

قصة داود - عليه السلام -

جمع داود – عليه السلام – بين الملك والنبوة ، كما جمع بين العلم والعبادة، فكان كثير الصوم والصلاة ، وكان حسن الصوت جداً بالقرآن الذي نزل عليه ، وسوف ننقل شيئاً من فضائله وما تفضل الله عز وجل به عليه من الخير العميم والفضل العظيم ، ثم نذكر شيئاً من سيرته وأيامه ودلائل نبوته وأعلامه .

فضائل داود - عليه السلام - :

(١) قوته وشجاعته : قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ [ص : ١٧] .

قال الحافظ : الأيد القوة ، وكان داود موصوفاً بفرط الشجاعة [١] . ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] . ولما كان داود – عليه السلام – يستعمل قوته في طاعة الله – عز وجل – سخر الله عز وجل له الحديد وألانه له ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١٠ –١١] .

قال الشوكاني : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾ أي: آتيناه بسبب إنابته

---

(١) فتح الباري (٦/٤٠٦) . والعجيب من عبد الوهاب النجار وهو يعدد العبر في قصص داود – عليه السلام – قال : إن الشخص الضعيف لا ينبغي له أن ييأس من النجاح وإحراز أسباب الفلاح ما دام معتصماً بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى . فمن أين استنبط – رحمه الله – ضعف داود – عليه السلام – مع أن الدلائل كلها تشير إلى قوته ولعل الأصل عنده كتب أهل الكتاب ، فما وافقها من شرعنا أخذ به وما خالفها أخذ بالإسرائيليات نعوذ بالله من سوء الفهم وسوء المنقلب .

فضلاً منا على سائر الأنبياء ، واختلف في هذا الفضل على أقوال ؛ فقيل: النبوة ، وقيل : الزبور ، وقيل : العلم ، وقيل : القوة كما في قوله : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ ﴾ وقيل : تسخير الجبال كما في قوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ [سبأ : ١٠] وقيل التوبة ، وقيل الحكم بالعدل كما في قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ [ص :٢٦] وقيل : هو إلانة الحديد ، وقيل : حسن الصوت (١) .

قال ابن كثير رحمه الله : أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعها وكيفيتها فقال : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي : لا تدق المسمار فيفلق ، ولا تغلظه فيفصم ، قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة . قال الحسن البصري وقتادة والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده ، لايحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زَرَد ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح . وقد ثبت في الحديث « **أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده** » (٢) .

(٢) اجتهاده – عليه السلام – في طاعة ربه – عز وجل – قال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

وقال النبي ﷺ : « **أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه** » (٣) .

---

(١) فتح القدير (٣١٥/٤) . (٢) قصص الأنبياء (٤٨٥). والحديث رواه البخاري بمعناه عن أبي هريرة : « **ولا يأكل إلا من عمل يده** » (٤٥٣/٦) أحاديث الأنبياء .

(٣) رواه البخاري (٤٥٥/٦) أحاديث الأنبياء .

(٣) وهبه الله عز وجل صوتاً عظيماً فكان إذا سبح سبحت معه الجبال والطير . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص:١٨] .

قال ابن كثير رحمه الله : وذلك أنه كان الله تعالى وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً ، بحيثُ إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرةً وعشيًا صلوات الله وسلامه عليه [١] .

وروى أحمد عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : « **لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود** » [٢] .

(٤) خفف عليه القرآن – زبور داود – فكان يقرأه قبل أن تسرج دوابه . عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « **خُفف على داود عليه السلام القرآن ، فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده** » [٣] .

قال الحافظ : قيل : المراد بالقرآن القراءة ، والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكل شيءٍ جمعته فقد قرأته ، وقيل : المراد الزبور ، وقيل : التوراة ، وقراءة كل نبي تطلق على كتابه الذي أوحي إليه ، وإنما سماه قرآناً للإشارة إلى وقوع المعجزة به كوقوع المعجزة بالقرآن ، أشار إليه صاحب المصابيح ، والأول أقرب ، وإنما ترددوا بين الزبور والتوراة لأن الزبور كله مواعظ ، وكانوا يتلقون الأحكام من التوراة . **قال قتادة** : كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة كلها مواعظ وثناء ، وليس فيها حلال ولا حرام [٤] .

(١) قصص الأنبياء (٤٨٦) .

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/٣٧، ١٦٧–٥/٣٥٩) وعن أبي هريرة (٢/٤٥٠) .

(٣) رواه البخاري (٦/٤٥٣) أحاديث الأنبياء . (٤) فتح الباري (٦/٤٥٥) .

(٥) جمع الله – عز وجل – له بين الملك والنبوة والعلم والحكمة والقضاء .

قال تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص : ٢٠] .

قال القاسمي – رحمه الله – : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي : قويناه بوفرة العدَد والعُدَد ونفوذ السلطان وإمداده بالتأييد والنصر ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي : النبوة، أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ والأمثال والحض على الآداب ومكارم الأخلاق ، وكان زبوره – عليه السلام – كله حكماً غرراً ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ أي : فصل الخِصَام بتمييز الحق من الباطل ورفع الشبهة وإقامة الدلائل ، وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق ولا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب [١] .

(٦) غفر الله – عز وجل – له ووعده من الزلفى والكرامة شيئاً عظيماً ، كما قال تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص : ٢٥] .

قال ابن كثير رحمه الله : أي وإن له يوم القيامة لقربةً يقربه الله – عز وجل – بها ، وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لنبوته وعدله التام في ملكه ، كما جاء في الصحيح : « **المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في أهليهم وما وَلُوا** » [٢] .

(٧) وهب الله – عز وجل – لهذا النبي العظيم والملك الكريم ولداً صالحاً جمع الله – عز وجل – له بين الملك والنبوة ، وستأتي قصته بعد هذه القصة.

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] .

---

(١) محاسن التأويل (١٤/١٥٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٣٢) . والحديث رواه مسلم (١٨٢٧)الإمارة . وغيره وانظر (آداب الزفاف ص ٢٨٠) طبعة المكتبة الإسلامية.

قصة داود والخصم إذ تسوروا المحراب :

قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢١ - ٢٦] .

قال ابن كثير رحمه الله : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده من رواية يزيد الرقاشي عن أنس - رضي الله عنه - ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يُرَدَّ علمها إلى الله - عز وجل - فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حقٌّ أيضا [(١)] .

وقال القاسمي رحمه الله : للمفسرين في هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة مرجعها إلى مذهبين : مذهب مَنْ يرى أنها تشير تعريضاً إلى وزر أَلَمَّ به داود - عليه السلام - ثم غفر له ، ومذهب مَنْ يرى أنها حكومة في خصمين لا إشعار لها بذلك . **فممن ذهب إلى الأول** ابن جرير ، فإنه قال : هذا مثل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه ، وذلك أن داود كانت له فيما قيل تسع وتسعون امرأة ، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قتل امرأة واحدة ، فلما قتل

(١) تفسير القرآن العظيم (٣١/٤) .

نكح فيما ذكر داود امرأته ، ثم لما قضى للخصمين بما قضى علم أنه ابتلي، فسأل غفران ذنبه ، وخر ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه وتاب من خطيئته.

وأما المذهب الثاني : فهو ما جزم به ابن حزم في الفِصَل ، وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود ، وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني آدم بلا شك ، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم ، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية ، ومَنْ قال إنهم كانوا ملائكة مُعَرِّضين بأمر النساء فقد كذب على الله عز وجل وقَوَّلَهُ ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه ، وكذَّب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذب على الملائكة ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ فقال : هؤلاء لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسعٌ وتسعون نعجة ، ولا كان للآخر نعجة واحدة ، ولا قال له: ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ فاعجبوا ، لِمَ يقحمون في الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان ؛ ثم كل ذلك بلا دليل بل الدعوى المجردة ، وتالله إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ثم يُعَرِّض زوجها للقتل عمداً ليتزوجها ، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه ، وهذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين لا أفعال أهل البر والتقوى ، فكيف برسول الله داود ﷺ الذي أوصى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر هذا الفحش بباله ، فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ، وأما استغفاره وخروره ساجداً ومغفرة الله له فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة ، والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي ولا من مذنب ولا من غير مذنب [١] .

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ .

قال الزمخشري : ظاهره الاستفهام ، ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء

(١) باختصار من محاسن التأويل (١٤/١٥٦ – ١٥٨) .

العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحدٍ ، والتشويق إلى استماعه، والخصم : الخصماء ، وهو يقع على الواحد والجمع ، كالضيف قال الله تعالى : ﴿ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [1] [الذاريات : ٢٤].

قوله : ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ .

قال الشوكاني : ومعنى ﴿ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ أتوه من أعلى السور ونزلوا إليه . والمحراب : الغرفة ، لأنهم تسوروا عليه وهو فيها [2] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله :﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره ، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أي : احتاطا به يسألانه عن شأنهما [3].

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ .

قال القاسمي : ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ أي : أنثى من الضأن ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي : فلم ينظر إلى غناه عنها ولا إلى افتقاري إليها ، بل أراد التغلب عَلَيَّ ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي : ملكنيها ، بمعنى اجعلني كافلها كما أكفل ما تحت يدي ، أو بمعنى : اجعلها كفلي ، أي نصيبي ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أي : غلبني في المكالمة [4] .

قوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ [ص : ٢٤] .

---

(١) الكشاف (٤/٨٢) .
(٢) فتح القدير (٤/٤٢٥) باختصار .
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٣١) .
(٤) محاسن التأويل (١٤/١٥٤، ١٥٥) .

قال القرطبي : قال النحاس : فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام لأنه قال: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ من غير تثبت بينة ولا إقرار من الخصم هذا كان كذا أو لم يكن، فهذا قول، وسيأتي بيانه في المسألة بعد هذا وهو حسن إن شاء الله تعالى(١) .

ثم قال في المسألة المشار إليها : قوله تعالى ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخصمين وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول ، قال ابن العربي : وهذا مما لا يجوز عند أحدٍ ولا في ملة من الملل ، ولا يمكن ذلك للبشر ، وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ادعى والآخر سلم في الدعوى فوقعت بعد ذلك الفتوى ، وقد قال النبي ﷺ : « **إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر** »(٢) وقيل : إن داود لم يقض للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك ، وقيل تقديره : لقد ظلمك إن كان كذلك ، والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص : ٢٤] .

قال الألوسي : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ أي: الشركاء الذين خلطوا أموالهم – الواحد خليط – وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية ، وفي حكمها عند الفقهاء كلام ذكر بعضاً منه الزمخشري ﴿ لَيَبْغِي ﴾ ليتعدى ﴿ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ غير مراع حق الشركة والصحبة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي : وهم قليل جداً،

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٥٦١٩) .
(٢) الحديث صحيح رواه أبو داود (٢/١١٤–١١٥) والحاكم (٤/٩٣) وأحمد (١/٩٦–١١١) وغيرهم ، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٣٠٠) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/٥٦٢١) .

فـ﴿ قَلِيلٌ ﴾ خبر مقدم ، و﴿ هُم ﴾ مبتدأ ، و﴿ مَّا ﴾ زائدة ، وقد جاءت المبالغة في القلة من التنكير وزيادة ﴿ مَّا ﴾ الإبهامية ، ويتضمن ذلك التعجب ، فإن الشيء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه ، فكأنه قيل : ما أقلهم [(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٢٤ – ٢٥] .

قال القاسمي : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أي: ابتليناه بتلك الحكومة ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أي : ما استغفر منه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ أي : لقربى ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي : مرجعاً وحسناً وكرامة في الآخرة [(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦] .

قال ابن كثير رحمه الله : هذه وصية من الله – عز وجل – لولاة الأمور ، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . **وقال عكرمة :** ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ هذا من المقدم والمؤخر ، لهم عذاب شديد يوم القيامة بما نسوا . **وقال السدي :** لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب . وهذا القول أمشى على ظاهر الآية . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب [(٣)] .

* * *

---

(١) روح المعاني (٢٣/١٨١ – ١٨٢) .

(٢) محاسن التأويل (١٤/١٥٦) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٣٢) باختصار .

الفوائد والآثار الإيمانية :

(١) قال العلامة السعدي : فمنها : أن الله يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار مَنْ قبله لتثبيت فؤاده ، وتطمين نفسه ، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوق إلى منافستهم ، والتقرب إلى الله الذي تنافسوا في قربه والصبر على أذى قومه ، ولهذا لما ذكر الله تعالى في سورة (ص) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به ، قال بعدها : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ الآيات .

(٢) ومنها : أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الناس خصوصاً الحاكم والرؤساء ، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ، ومن غير الباب فزع منهم ، واشتد عليه ذلك ورآه غير لائق بالحال .

(٣) ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

(٤) ومنها: أن المنصوح ولو كان كبيرَ القدر كثير العلم عليه ألا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بقبول النَّصيحة، والشكر لمن نصحه، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح، فإن داود لم يشمئز من قول الخصمين ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾بل حكم بالحق الصرف[(١)].

(٥) قال القاسمي رحمه الله : وفي قضائه – عليه السلام – هذا من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفئدة ويقر عين المغبون ، ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع ، فجهر بظلم خصمه وبغيه جهراً لا محاباة فيه ولا مواربة ، فأقر عين المظلوم ، وعَرَّف الباغي ظلمه وحيفه ، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه ، ثم نفس عن قلب المظلوم البائس ، وروح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة ، خلة البغي وعدم الإنصاف مع الخلطة والخلة ، ليأسى ويتسلى ، كما قيل : « إن التأسي روح كل حزين » ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق

---

(١) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٤٢ – ١٤٣) .

الأخوة ممن آمن وعمل صالحاً ، فكيف بغيرهم ، وكلها حكم وغرر ودرر وحقائق تنطبق على أكثرها السواد الأعظم من الناس، الذين يدّعون المحبة والصداقة، ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب في آدابها علماء الأخلاق إسهاباً ، نوّعوا فيه الأبواب ، ولوّنوا فيه الفصول ، ومع ذلك لا تزال الشكوى عامة ، وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب كما لا يخفى على من له إلمام وبالله التوفيق [1] .

(٦) وقال رحمه الله : قال السيوطي في « الإكليل » : استدل بقوله تعالى ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ من أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع ، والأكثرون على أن الركوع هنا مجاز مرسل عن السجود ، لأنه لإفضائه إليه جعل كالسبب ، ثم تُجُوز به عنه ، أو هو استعارة له لمشابهته له في الانحناء والخضوع [2] .

(٧) قال القرطبي رحمه الله : واختلف في سجدة داود هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أم لا ؟ فروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قرأ على المنبر ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأ بها فَتَشزّن[3] الناس للسجود ، فقال رسول الله ﷺ: **« إنها توبة نبي ، ولكني رأيتكم تشزنتم للسجود »** ونزل وسجد . وهذا لفظ أبي داود ، وفي البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال : « ﴿صٓ﴾ ليست من عزائم القرآن ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها » [4]...

قال : ومعنى السجود أن داود سجد خاضعاً لربه ، معترفاً بذنبه ، تائباً من

(١) ، (٢) محاسن التأويل (١٤/١٥٥ – ١٥٦) ، (١٤/١٦٠–١٦١) .
(٣) التشزن : التأهب والتهيؤ للشيء .والحديث رواه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب : السجود في ﴿ ص ﴾ (رقم / ١٤١٠) وابن خزيمة (١٤٥٥) وابن حبان (الإحسان ٦/٤٧٠) وصححه الألباني (صحيح أبي داود ١٢٥٣) .
(٤) رواه البخاري في كتاب سجود القرآن ، باب : سجدة ﴿ ص ﴾ (١٠٦٩).

خطيئته ، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية ، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي اتبعه ، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا ، فإن هذا أمر مشروع في كل أمة لكل أحد ، والله أعلم [١].

(٨) **وقال – رحمه الله –** في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ... ﴾ الآية ، هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه ، لأن الحكام لو مُكّنوا أن يحكموا بعلمهم لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليه ويهلك عدوه إلا ادعى علمه فيما حكم به. ونحو ذلك روي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر قال : لو رأيت رجلاً على حدٍّ من حدود الله ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري[٢] . وروي أن امرأة جاءت إلى عمر فقالت له : احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي عنده . فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم ، وأما الحكم فلا . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد[٣] ، وروي عن النبي ﷺ أنه اشترى فرساً فجحده البائع فلم يحكم عليه بعلمه وقال : « **من يشهد لي** » فقام خزيمة فشهد فحكم . خرج الحديث أبو داود وغيره [٤] .

(٩) **ومما يستفاد من قصة داود عليه السلام أن العبد إذا رزقه الله نعمة فاستعملها في طاعة الله بارك الله له فيها وزاده من خيرها فداود عليه السلام لما استعمل قوته في إعزاز الدين وكثرة العبادة والطاعة ألان الله عز وجل له الحديد .**

**** **** ****

(١) باختصار الجامع لأحكام القرآن (٥٦٢٧/٧) .
(٢) رواه البيهقي(١٠ / ١٤٤) .
(٣) رواه مسلم في كتاب الأقضية ، باب : القضاء باليمين والشاهد (١٧١٢) .
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٥٦٣٤ – ٥٦٣٥) . والحديث أخرجه أبو داود (٣٦٠٧) الأقضية . والنسائي (٤٦٤٧) البيوع .

قصة سليمان – عليه السلام –

فضائله عليه السلام :

(١) ثناء الله عز وجل عليه ، قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠]. **قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى مخبراً أنه وهب** لداود سليمان ، أي نبيًا ، كما قال عز وجل : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أي : في النبوة ، وإلا فقد كان له بنون غيره ، فإنه كان عنده مائة امرأة حرائر ، وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل [١] .

(٢) آتاه الله عز وجل حكماً وعلماً ، كما قال تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء : ٧٨-٧٩].

قال القاسمي : فَفَهَّمْنَاهَا ، أي : الفتوى أو الحكومة المفهومين من السياق ﴿ سُلَيْمَانَ ﴾ أي : فكان القضاء فيها قضاءه لا قضاء أبيه [٢] .

قال ابن كثير رحمه الله : وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كَرْمٌ فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي: رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود – عليه السلام – فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان قال : بم حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا ، فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودرًا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ، ويردوه إلى ما كان عليه ، ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٣٣) .

(٢) محاسن التأويل (١١/٢٧٣) .

– عليه السلام – ذلك فحكم به .

وقريبٌ من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **بينما امرأتان معهما ابناهما ، إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما ، فتنازعا في الآخر ، فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى : إنما ذهب بابنك . فتحاكما إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال : ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه . فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها، فقضى به لها** »[1]. ولعل كلا من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال : ﴿ **وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ** ﴾ [2] .

(٣) جمع الله عز وجل له بين النبوة والملك كما جمع لأبيه ، وزاده ملكاً عظيماً لم ينله أحدٌ قبله ولا يناله أحدٌ بعده ، قال تعالى : ﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[ص : ٣٦ – ٣٩] .

قال السعدي : سخر الله له الريح تجري بأمره وتدبيره برخاء ، أي : بسهولة حيث أراد ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وسخر الله له الجنَّ والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجَوَابي وقدور راسيات ، وتذهب وتجيء بأمره إلى حيث أراد ، وسخر له من الجنود من الإنس والجن والطير فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب [3].

(١ ، ٢) قصص الأنبياء (٥١٠ – ٥١١)، والحديث رواه البخاري (٦/٤٥٨) أحاديث الأنبياء.
(٣) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٣٩) .

وقال القرطبي : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾ الإشارة بهـذا إلى الملك ، أي : هذا الملك عطاؤنا ، فأعط من شئت ، أو امنع من شئت لا حساب عليك[1] .

وقال ابن كثير : لما ترك الخيل ابتغاءَ وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ : ١٢ - ١٣] .

والمحاريب هي : الأماكن الحسنة وصدور المجالس .

والتماثيل هي : الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم ، كما قال ابن كثير رحمه الله . **والجفان :** الأحواض.

والقدور الراسيات هي : التي لا تتحرك من أماكنها .

وكان هذا العطاء العظيم والفضل الكبير استجابة من الله عز وجل لدعوة نبيه سليمان ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ [ص :٣٥].

عن أبي الدرداء ﷺ قال : قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول : « **أعوذ بالله منك** » ثم قال : « **ألعنك بلعنة الله** » ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، قال : « **إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت : (أعوذ بالله منك) ثلاث مرات ثم قلت : (ألعنك بلعنة الله التامة) فلم يستأخر ، ثلاث مرات ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح**

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٥٦٥٠) .
(٢) قصص الأنبياء (٥١١) .

موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة »(١) .

(٤) ومما يدل على عظيم فضله وقوة شخصيته ورباطة جأشه ما أخبرنا الله – عز وجل – به في ذكر وفاته ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

قال القرطبي : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ أي: فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ وذلك أنه كان متكئاً على المنسأة ، وهي العصاة بلسان الحبشة في قول السدي ، وقيل : هي بلغة اليمن ؛ ذكره القشيري ، فمات كذلك وبقي خافي الحال إلى أن سقط ميتاً لانكسار العصا لأكل الأَرَضة إياها ، فعلم موته بذلك، فكانت الأَرَضَة دالة على موته ، أي : سبباً لظهور موته ، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضي عليه سنة ، واختلفوا في سبب سؤاله ذلك على قولين : أحدهما : ما قاله قتادة وغيره قال: كانت الجن تدعى علم الغيب ، فلما مات سليمان عليه السلام وخفي موته عليهم ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ .

وقيل : كان رؤساء الجن سبعة وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام وكان داود عليه السلام أسس بيت المقدس ، فلما مات أوصى إلى سليمان في إتمام مسجد بيت المقدس ، فأمر سليمان الجن به ، فلما دنا وفاته قال لأهله : لا تخبروهم بموتي حتى يتموا بناء المسجد . وكان بقي لإتمامه سنة (٢)

* * *

(١) رواه مسلم (المساجد/٤٠) والنسائي (١١٥٧/صحيح النسائي) وابن خزيمة (٨٩١) وغيرهم .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥٣٦٠/٦) باختصار.

قصة سليمان – عليه السلام –

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٤، ١٥] .

قال الشوكاني : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أي : ورثه العلم والنبوة .

قوله : ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ قال سليمان هذه المقالة مخاطباً للناس تحدثاً بما أنعم الله به عليه وشكر النعمة التي خصه بها ، وقدم منطق الطير لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره. ومعنى ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ : كل شيء تدعو إليه الحاجة ، كالعلم والنبوة والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والأرض[1].

قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ١٧] .

قال الألوسي : أي : يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وذلك للكثرة العظيمة ، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر ، والأول أولى ، وأصل الوزع الكف ، والمنع ومنه قول عثمان ﷺ : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن [2] .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا

---

(١) باختصار من فتح القدير (١٢٩/٤، ١٣٠).

(٢) روح المعاني (١٧٤/٢٠) باختصار وقول عثمان المذكور أخرجه الخطيب : (تاريخ بغداد ١٠٧/٤) لكن عن عمر بن الخطاب .

وقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٨ - ١٩] .

قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي : نقباء - يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد ، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ، وليس كما يقول بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان ، ولهذا قال عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي ألهمني وأرشدني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره ، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ٢٠-٢١] .

قال الألوسي : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ أي: أراد معرفة الموجود منها من غيره ، وأصل التفقد معرفة الفقد ، والظاهر أنه - عليه السلام - تفقد كل الطير وذلك

(١) قصص الأنبياء (٤٩٩ - ٥٠٠) .

بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والاهتمام بالرعايا ، لا سيما الضعفاء منها، وكان يأتيه من كل صنف واحد ، فلم ير الهدهد . قوله : ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾ وهذا التعذيب للتأديب ، ويجوز أن يبيح الله تعالى له ذلك لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة ، كما أباح سبحانه ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ، وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن يباح له ما يستصلح به ﴿ **أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ** ﴾ كالترقي من الشديد إلى الأشد ، فإن في الذبح تجريع كأس المنية، وقد قيل : كلٌّ شيءٍ دون المنية سهلٌ [1] .

قوله : ﴿ **أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ أي : بحجة تبين عذره في غيبته ، وما ألطف التعبير بالسلطان دون الحجة هنا ، لما أن ما أتى به من العذر انجر إلى الإتيان ببلقيس وهي سلطان .

قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : ٢٢] .

قال الزمخشري : ﴿ **فَمَكَثَ** ﴾ قرئ بفتح الكاف وضمها ﴿ **غَيْرَ بَعِيدٍ** ﴾ غير زمان بعيد ، كقوله : عن قريب ، ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان ، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له ، ولبيان ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوته ، وعلى قدرة الله تعالى ﴿ **أَحَطتُ** ﴾ بإدغام الطاء في التاء، بإطباق وبغير إطباق : ألهم الله الهدهد فكامح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمَّة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاءً له في علمه ، وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه مَنْ أحاط علماً بما لم يحط

(١) باختصار من روح المعاني (١٩/١٨٣-١٨٤) .

به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفاً في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء ، وأعْظِمْ بها فتنة ، والإحاطة بالشيء علماً أن يُعلَم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم ، قالوا : وفيه دليل على بطلان قول الرافضة : إن الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه (١) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُون * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل : ٢٣ – ٢٦] .

قال السعدي رحمه الله : ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة ؛ أخبر سليمان عن ملك الديار اليمانية ، وأن ملكتهم امرأة ، وأنها قد أعطيت من كل شيء يحتاج الملك إليه ، وأن لها عرشاً عظيماً ، ومع فهمه لِمُلْكِهم وقوتهم فَهِمَ أيضاً دينهم وأنهم مشركون يعبدون الشمس ، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار ، هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبحه وتوحده ، وتحب المؤمنين وتدين ربها بذلك ، وتبغض الكفار المكذبين وتدين لله بذلك (٢) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٧– ٢٨] .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح

---

(١) الكشاف (٣٥٩/٣) .
(٢) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٣٩) .

﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في مقالتك ، و ﴿ كُنت ﴾ بمعنى: أنت ، وقال : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْت ﴾ ولم يقل (سننظر في أمرك) لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم في قوله : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِه ﴾ صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك [كفاء] [1] لما قاله .

وفي قوله : ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه .

قوله : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا ﴾ في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام ، وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار [2] .

قال الشوكاني : وخص الهدهد بإرساله بالكتاب لأنه المخبر بالقصة ، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : تنح عنهم ، أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسل الملوك ، والمراد : التنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع ، وقيل : معنى التولي : الرجوع إليه ، والأول أولى لقوله : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي : تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول وما يتراجعون بينهم من الكلام [3] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ

---

(١) في الهامش : جفاء والتصويب من أحكام القرآن لابن العربي .

(٢) الجامع لأحكام القرآن بتصرف واختصار (٦/٤٩٠٥ – ٤٩٠٦) .

(٣) فتح القدير (٤/١٣٦) .

وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُون ﴾ [النمل : ٢٩- ٣٢] .

قال ابن كثير رحمه الله : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ ثم قرأته : ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُون ﴾ يعني : ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون (١) .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٣ - ٣٥].

قال ابن كثير رحمه الله : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنون : لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإنَّا عليه من القادرين ﴿ و ﴾ مع هذا ﴿ الأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِين ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر ، لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم ، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُون ﴾ تقول برأيها السديد : إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم

(١) قصص الأنبياء (٥٠٤) .

يخلص الأمر من بينكم إلا إليّ ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليّ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُون ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتُحفٍ تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان – عليه السلام – لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً ؛ لأنهم كافرون وهو وجنوده عليهم قادرون[1] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ✻ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُون ﴾ [النمل: ٣٦ – ٣٧] .

قال الشوكاني : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَان ﴾ أي : فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَال ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والاستفهام للاستنكار ، أي : قال منكراً لإمدادهم له بالمال مع علو سلطانه وكثرة ماله ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ أي : ما آتاني من النبوة والملك العظيم والأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذي هذه الهدية من جملته ، ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدم فقال: ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُون ﴾ توبيخاً لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء ، وأما أنا فلا أفرح بها ، وليست الدنيا من حاجتي ؛ لأن الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحداً من العالمين ، ومع ذلك أكرمني بالنبوة ، والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية والإزراء بهم والحط عليهم ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي: قال سليمان للرسول، ومعنى ﴿ لاَّ قِبَلَ لَهُم ﴾ لا طاقة لهم بها ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم ﴾ أي: لنخرجنهم

(١) قصص الأنبياء (٥٠٤) .

من أرضهم التي هم فيها ﴿ أَذِلَّةً ﴾ أي : حال كونهم أذلة بعدما كانوا أعزة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ قيل : هي حال مؤكدة للصغار ، وقيل : إن المراد بالصغار هنا الأسر والاستعباد ، وقيل : إن الصغار الإهانة التي تسبب عنها الذلة (١) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٣٨ ـ ٤٠] .

قال الألوسي : اختلفوا في مقصوده عليه السلام من استدعائه عرشها ؛ فعن ابن عباس وابن زيد أنه عليه السلام استدعى ذلك ليريها القدرة التي هي من عند الله تعالى وليغرب عليها ، وتقييد الإتيان بقوله : ﴿ قَبْلَ ﴾ إلخ ، لما أن ذلك أبدع وأعزب وأبلغ من الوقوع عادة وأدل على عظيم قدرة الله عز وجل وصحة نبوته عليه السلام وليكون اطلاعها على بدائع المعجزات في أول مجيئها (٢).

قال ابن كثير : لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها ، قبل قدومها عليه ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ يعني : قبل أن ينقضي مجلس حكمك ، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أي : وإني

(١) باختصار من فتح القدير (٤/٣٨) .

(٢) باختصار من روح المعاني (١٩/٢٠١ ، ٢٠٢) .

لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ قيل : هو رجل من مؤمني الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم ، وقيل : رجل من بني إسرائيل من علمائهم ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته ، وهذا أقرب ما قيل ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ أي : فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أي : هذا من فضل الله علي وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي : إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي : غني عن شكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين [1] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل ٤١: ٤٣] .

قال القرطبي : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ ﴾ يريد بلقيس ﴿ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق فلم تقر بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها ، قال عكرمة : كانت حكيمة فقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وقال مقاتل : عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها، ولو قيل لها : (أهذا عرشك) لقالت : نعم ، هو.

﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا ﴾ قيل: هو من قول بلقيس ، أي : أوتينا العلم بصحة

(١) قصص الأنبياء (٥٠٥ – ٥٠٦) باختصار .

نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره .
وقيل: هو من قول سليمان ، أي : أوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المدة ، وقيل : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها .
وقيل : هو من كلام قوم سليمان ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الوقف على ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ حسن ، والمعنى : منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر ، المعنى أي : صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه [عن أن تسلم] [١] .

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

قال ابن كثير رحمه الله : والغرض أن سليمان – عليه السلام – اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى ، وعرفت أنه نبي كريم وملِكٌ عظيم ، وأسلمت لله – عز وجل – وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً [٢] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤٩٢٤/٦) باختصار .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٦٦/٣) .

الفـوائـد والآثـار الإيمانيـة :

قال العلامة السعدي في فوائد هذه القصة العظيمة :

(١) **منها** : أن سليمان يعد من فضائل داود ومن مَنِّ الله عليه ، قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وهذا أعظم تزكية وأكبر فخر لسليمان .

(٢) **ومنها** : كثرة خير الله وفضله على عبيده الأخيار ، يمن عليهم بالأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة ، ثم يثني عليهم بها ، ويرتب عليها من الثواب أنواعاً منوعة ، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها .

(٣) **ومنها** : أنه يؤخذ من أن سليمان لما أتلف الخيل الجياد – التي ألهته عن طاعة الله – سخر الله له الريح والشياطين ، أن مَنْ ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

(٤) **ومنها** : أن الله أعطى سليمان ملكاً عظيماً فيه أمور لا يمكن أن تدرك بالأسباب وإنما هي من تقدير الملك الوهاب ، مثل تسخير الريح تبعاً لأمره ، وتسخير الشياطين ، وكون جنوده من الإنس والجن والطير ، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة ، يرسلها للجهات توصل منه الأخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات ، وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قَصَّ الله علينا نبأه في هذه القصة ، وكذلك الذي عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه ، وهذه آيات أنبياء ، فلهذا مهما بلغ الخلق في الترقي في علوم الطبيعة والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أعطيه سليمان [1] .

(٥) **قال القرطبي – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى:** ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ، إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم ، وقال ابن

(١) خلاصة تيسير اللطيف المنان (١٤٤ – ١٤٥) باختصار .

عون : سمعت الحسن يقول وهو في مجلس قضائه ، لما رأى ما يصنع الناس قال : والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وزعة . وقال الحسن أيضاً : لابد للناس من وازع . أي : من سلطان يكفهم ، وذكر ابن القاسم قال : حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن . أي : من الناس . قال ابن القاسم : قلت لمالك : ما يزع ؟ قال : يكف . قال القاضي أبو بكر ابن العربي : وقد جهل قومٌ المراد بهذا الكلام ، فظنُّوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن ، وهذا جهل بالله وحكمته . قال : فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق ، لا زيادة عليها ولا نقصان معها ، ولا يصلح سواها ، ولكن الظلمة خاسوا بها ، وقصروا عنها ، وأتوا ما أتوا بغير نية ، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها ، فلم يرتدع الخلق بها ، ولو حكموا بالعدل وأخلصوا النية لاستقامت الأمور وصلح الجمهور [1] .

(٦) وقال رحمه الله : وفي الآية ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم (عندي ما ليس عندك) إذا تحقق ذلك وتيقنه ، هذا عمر بن الخطاب مع جلالته ﷺ وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان، وكان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا : لا يتيمم الجنب ، وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت ، وكان غسل رأس المحرم معلوماً عند ابن عباس وخفي عن المِسْوَر بن مخرمة ، ومثله كثير فلا يطول به [2] .

(٧) وقال – رحمه الله – في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ الآية : روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد

---

(١) ، (٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/٤٨٨٤ – ٤٨٨٥) ، (٦/ ٤٨٩٨) .

ملّكوا بنت كسرى قال : « **لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة** »[1] قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ، ولا خلاف فيه . ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه ، وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ، ولا بأن يكتب لها سطور بأن فلانة مقدمة على الحكم ، وإنما سبيل ذلك التحكم والاستنابة في القضية الواحدة ، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير . قال ابن العربي : إن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس ، ولا تخالط الرجال ، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير ، لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها ، وإن كانت بَرزَةً [2] لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم وتكون مناظرة لهم ، ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده [3] .

(٨) وقال – رحمه الله – في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ اتفقوا على كتب ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ في أول الكتب والرسائل وعلى ختمها ؛ لأنه أبعد من الريبة ، وعلى هذا جرى الرسم ، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : أيما كتاب لم يكن مختوماً فهو أغلف [4] .

(٩) وقال – رحمه الله – في قوله تعالى ﴿ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ الآية : هذا من حسن نظرها وتدبيرها ، أي : إني أجرب هذا الرجل بهدية وأعطيه فيها نفائس من الأموال وأغرب عليه بأمور المملكة ، فإن كان ملكًا دنيويًا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازمنا في أمر

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (٤٤٢٥).
(٢) البرزة هي : الكهلة التي لا تحتجب احتجاب الشواب .
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/٤٨٩٩ – ٤٩٠٠) باختصار.
(٤) السابق (٦/٤٩٠٩) .

الدين ، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها [١] .

وقال – رحمه الله – : كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء – صلوات الله عليهم أجمعين – وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها على ما ذكرناه من كون سليمان مَلِكًا أَوْ نَبِيًا ، لأنه قال في كتابه : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهي الرشوة التي لا تحل ، وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحدٍ وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن من مشرك [٢] .

(١٠) **وقال القاسمي رحمه الله** : مما استنبط من آيات هذه القصة الجليلة أن في قوله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ استحباب تفقد الملك أحوال رعيته ، وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان فأنشد :

تَفَقُّدُ الإخوانِ مُسْتَحْسَنٌ ... فَمَن بَدَاهُ نِعْمَ مَا قَدْ بَدَا
سَنَّ سُلَيْمَانُ لَنَا سُنَّةً ... وَكَانَ فِيمَا سَنَّهُ مُقْتَدى
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ عَلَى مُلْكِهِ ... فَقَالَ مَا لِي لا أَرَى الهُدْهُدَا [٣]

انتهى بحمد الله تعالى ما جمعناه ، والله أسأل أن يكون العمل في رضاه ، وأن يرزقنا بره وذخره يوم نلقاه ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

* * *

(١) السابق (٤٩١٢/٦) .
(٢) السابق (٤٩١٤/٦) .
(٣) محاسن التأويل (٧١/١٣) .

الجـزء الثالث

مقدمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

إن الحمـد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شـرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهـده الله فلا مضل له ، ومـن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون ﴾

* ﴿ يَا أَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَـا زَوْجَـهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ .

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

أما بعد .

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

فهذا هو الجزء الثالث من كتاب « **تيسير المنان في قصص القرآن** » وقد مضى في الجزأين السابقين قصص الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وهذا الجزء في بقية القصص القرآني، ولعل قصص الأنبياء قد صنف فيه المصنفات الكثيرة، إلا أن بقية القصص لم يحظ بهذا الاهتمام ، فلم أر مصـنفًا اقتصر على هذا القصص ، مع أنه غني بالعبر والعظات كما سيقف القارئ الكريم في هذا الجزء إن شاء الله تعالى.

وقـد أفصـحنا عن طريقة البـحث في الجزأيـن السابقين ، وبينا الغـرض من هذا المصنف ، وكـيف أنه تصـفـيـة للقـصص القرآنـي من الخرافـات والإسـرائيليـات

والموضوعات ، وكذلك الضعيف الذي لم يصححه أحدٌ من الأئمة .

والموعظة بالقصة المشتملة على العبرة والعظة من أنجع المواعظ ، لأن النفس بطبيعتها تنجذب إلى القصة ، وتأخذ القصةُ بمجامع القلوب ، فإذا أودعت فيها الحكمة والعبرة كانت الغاية ، والقرآن الكريم لا يحكي القصص لمجرد أنه قصص لتسلية وتزجية الأوقات ، ولكنه يقص القصص من أجل التربية ، وترسيخ المعاني الإيمانية ، والأخلاق المرضية .

قال القاسمي : إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة هو الإيجاز في الأنباء التي يقصها ، والإشارة منها إلى روحها وسرها ، حرصًا على الثمرة من أول الأمر واقتصارًا على موضع الفائدة ، وبعدًا عن مشرب القصاص والمؤرخين؛ لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى ، ثم إن المفسرين رحمهم الله عُنوا بالبحث والأخذ والتلقي ، فكان من سلف منهم يرون فيما يرون أن من العلم تفصيل مجملات التنزيل ، وإبانة مبهماته ، حتى جُعِلَ ذلك فنًا برأسه، وأُلِّفَ فيه مؤلفات ، ولا بأس في التوسع من العلم والازدياد منه بأية طريقة كانت ، لا سيما وقد رفع عنا الحرج بالتحديث عن بني إسرائيل ، إلا أنه يؤاخذ من يجزم بتعيين مبهم ما إن كان جزمه من غير طريق القواطع ، فإن القاطع هو ما تواتر أو صح سنده إلى المعصوم صحة لا مَغْمَزَ فيها ، وهذا مفقود في الأكثر ...

إلى أن قال رحمه الله : فالمفسر أحسن أحواله أن يمشي مع التنزيل إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل ، ولا يأخذ من إيضاح مبهماته إلا بما قام عليه قاطع ، أو كان لا ينبذه العلم الصحيح ، وإلا فليعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك بل عن تشويهها ، والذي حمل السلف على قص ما نحن فيه هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب وموافقة من في طبقتهما لهما فيه اهـ ملخصًا [1] .

(١) محاسن التأويل باختصار (١٤ / ٦٨ ، ٦٩) .

وهذا بحمد الله ما انتهجناه في هذا الكتاب المبارك ، وإذا كانت النفوس البشرية تميل بطبيعتها إلى القصة ، وأكثر الناس يضيعون أعمارهم في مشاهدة الأفلام الهابطة والتمثيليات الساقطة من أجل التسلية ، مع أن فيها ضياع الأخلاق ، وهلاك الأديان ، وقتل حياء النساء ، وذهاب غَيرة الرجال ، فإنها لا تخلو من رؤية متبرجة شديدة التبرج والتهتك ، أو اختلاط ماجن بين الرجال والنساء ، أو شارب خمر ، أو عازف على آلات المعازف واللهو ، ثم هي ليست قصصًا من بحر الحقيقة والواقع ، ولكنها من نسج الخيال ومن وضع الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، ولا يفوت هؤلاء الكُتَّاب الذين يغلب عليهم التفرنج والأفكار الإباحية أن يُجَرِّئوا الناس على المعاصي والشهوات ، وأن يسكبوا في قلوبهم أنواع الشبهات ، ولا تخلو من الاستهزاء بالدين والسخرية من أولياء الله الصالحين . وماذا ينتظر من أناس تركوا دينهم وإسلامهم خلف ظهورهم ، ووجهوا وجوههم قبل الغرب الكافر ، يهدمون ما هدموا من فضيلة ، ويُحيون ما أحيَوا من فاحشة ورذيلة ، والله من ورائهم محيط .

فالحالة التي وصلت إليها أمة الإسلام في هذه العصور الغابرة لم تصلها في زمن من الأزمنة السالفة ؛ حيث ترك الناس التعزز بدينهم والتمسك بقرآنهم الذي نبههم الله عز وجل على أن فيه رفعة شأنهم وعلو قدرهم ، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] وساروا وراء الغرب الكافر ، ومنهم من يتهم الإسلام بأنه السبب فى تأخر المسلمين وعدم انطلاقهم في ميدان الحضارة والتقدم ، وهذه مغالطة فاحشة ؛ فإن أكثر المسلمين اليوم لا يعملون بشرع الله ، ولا يتحاكمون إليه، ولا يتعززون به ، ولا يقفون عند حدوده ، ومَنْ كان من أهل الإنصاف وأراد أن يعرف أثر الاسلام في تقدم الأمم والأفراد فلينظر إلى أزمنة الإسلام الزاهرة التي كان يطبق فيها شرع الله

عز وجل ويتعزز الناس بدينهم ، ويطيعون ربهم الذي خلقهم ورزقهم ، وكم نظلم نظام الإسلام عندما نجعل المسلمين اليوم هم الأمثلة الحية للنفس الإنسانية إذا قامت بدين الله عز وجل ولكن الجيل الفاضل الذي عمل بهذا الدين هم الصحابة والتابعون وتابعوهم من أهل القرون الخيرية ، وكان الإسلام في هذا الوقت هو الدين الظاهر في الأرض ، وكان الخليفة المسلم ينظر إلى السحابة في السماء فيقول لها : أمطري حيث تشائين ، فسوف يأتيني خراجك . ولا شك أن هذا هو المقياس الصحيح لنظام الإسلام وأهليته لقيادة البشرية .

وإذا نظرت إلى الساحة العالمية والعربية وجدت الإسلام وأهله اليوم في غربة ، وأن الحرب ضد الإسلام في كل مكان من بقاع الأرض ، وأن أشد الناس حربا للإسلام اليوم هم أهله وعشيرته ، وسجون العالم العربى مليئة بالشباب الذين رضوا بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولاً ، وما أحسن ما قاله بعضهم حين خرج الإنجليز من مصر : خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر . فما ابتلي به الإسلام والمسلمون أناس من جلدتهم ، ولكنهم دعاة على أبواب جهنم ، هم أيدي وأرجل الغرب الكافر في تنفيذ مخططاتهم ، فإلى الله المشتكى وبه المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بالله . وإنما نخاطب بهذا الكتاب شباب الصحوة الإسلامية المباركة الذين هم أمل الأمة في عودة شبابها ومجدها وعزها ، وذلك من باب التصفية التي هي أول أسباب النصر والتمكين ، حتى يتربى الناس على الإسلام صافيًا من الخرافات والضلالات والموضوعات . ثم هذه القصص التي أثبتها الله عز وجل في كتابه ليست من الأساطير والخيال ، ولكنها قصص حقيقية مضت في تاريخ البشرية ، ومن رحمة الله عز وجل وفضله على أمة خاتم الرسل وإمام المرسلين سجلها الله عز وجل لهم في كتابه الخالد ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ

من حكيم حميد ، يقصها الله عز وجل علينا بأسلوبه المعجز تربية للأمة ورفعًا لمستواها الفكري والإيماني ، فكيف لا تكون هذه القصص موضع اهتمام الذين ينادون بالتربية ، والذين يهتمون بالإعداد لنهوض الأمة من كبوتها ، ويحاولون الارتفاع بها إلى سالف عزتها وكرامتها .

وإذا كان أهل الدنيا ينزهون أعينهم وقلوبهم برؤية القصص الزائف المشتمل على المعاصي والمنكرات ، فإن أهل الإيمان الصادق يمتعون قلوبهم وأرواحهم بسماع القصص الحق ، الذي يقصه الله عز وجل عليهم ، يربيهم به ، ويرفع من شأنهم ، ويقوي إيمانهم ، فهم يجدون المتعة الروحية، ومع ذلك يؤجرون على قراءته وسماعه ، فمثلهم كمثل أم موسى ترضع ولدها وتطفئ بذلك ظمأ نفسها ، ومع ذلك تأخذ على ذلك أجرًا .

وهكذا المؤمن في جميع أحواله وأعماله ؛ لأنه يحب الإيمان ، وتوافق أسباب الإيمان هوى نفسه وراحة قلبه ، ومع ذلك يؤجر على ذلك أعظم الأجر ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٧-٨].

وكما قال النبي ﷺ : « **ثَلاثٌ مَنْ كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار** » [1].

ولكل نفس ما يناسبها ، فإن النفوس الخَيِّرَةَ الطيِّبة تُحب الإيمان وأسبابه وتميل إليه وتطمئن به ، والنفوس الشريرة تميل إلى الكفر والمعاصي ، والله تعالى أعلم بمواقع فضله وعدله . « يَهْدي من يشاء ويعصم ويعافِي فضلاً ، ويضِلُّ مَنْ

(١) رواه البخاري (٦٠/١) الإيمان ، ومسلم (١٣/٢) الإيمان ، والترمذي (٩١/١٠) الإيمان .

يشاء ويخذلُ ويبتلي عدلاً ، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله » [١] .

فنسأل الله العلي العظيم أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء همومنا وسمومنا ، وأن يَمُنَّ علينا وعلى المسلمين بفضله ، وأن يعجل لأعداء الإسلام عقوبته وعدله .

نعود إلى التعريف بهذا الجزء الثالث من القصص القرآني فنبين خطة البحث ، فقد بدأت كل قصة بذكر الآيات التي ذكرت في هذه القصة ؛ حتى تكون كالمتن والأصل الذي يدور حوله شرح أحداثها وبيان عبرها وعظاتها ، فإنها أقوى تعبيراً وأشد تأثيراً ، وهي المقصودة بالشرح والبيان ، ثم أردفت ذلك بالأحاديث الصحيحة التي تبين معانيها أو تكمل أحداثها ، إن كان ثَمَّ أحاديث ، كما في قصة موسى والخضر ، وقصة أصحاب الأخدود ، ثم ذكرت بعض أحداثها ، وألقيت الضوء على موطن العبرة والعظة في القصة تحت عنوان « بين يدي القصة » ثم تتبعت كتب التفاسير ، وكنت أقلب في الآية الواحدة أكثر من اثني عشر تفسيراً حتى أقف على أقرب المعاني وأطيب التفاسير ، وكما يقولون : اختيار الكلام أشد من نحْتِ السِّهام . ثم ختمت القصة بجمع الفوائد والأحكام واللطائف والآثار الإيمانية ؛ حتى يتم الانتفاع بهذا القصص العظيم والذكر الحكيم . وأرجو في ذلك كله أن أكون في عملي مخلصاً وللكتاب والسنة موافقاً ، وأرجو من الله عز وجل أن يتم علينا وعلى المسلمين نعمته ، وأن ينفع بهذا الكتاب بلاده وعباده ، وأن يدخر الله عز وجل لنا يوم تتقلب القلوب والأبصار ما تقر به أعيننا ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه ، والله الموفق والحمد لله رب العالمين .

* * * * *

---

(١) متن العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي (٦) ط. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .

١- قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة ٦٧ - ٧٣] .

بين يدي القصة :

هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بني إسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها ، ومن وجوه الاعتبار أن التنطع في الدين والإحفاء في السؤال مما يقتضي التشدد في الأحكام ، فمن شدد شُدِّدَ عليه؛ ولذلك نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ١٠١-١٠٢]

وفي الحديث الصحيح : « **ويكره لكم قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال** » [(١)] وقد امتثل سلفنا الأمر فلم يشددوا على أنفسهم ، فكان الدين عندهم حنيفيًا سمحًا ، ومن خَلَفِنَا مَنْ عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٣١٢) الرقاق ، وأحمد (٢/ ٣٢٧ ، ٣٦٠) والدارمي (٢/ ٣١١) الرقاق . وفي الحديث الآخر : « **أعظم الناس جرمًا مَنْ سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل مسألته** » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

أحكامًا استنبطها باجتهاده وأكثروا منها ، حتى صار الدين حِملاً ثقيلا على الأمة ، فسئمته وملت ، وألقته وتخلت .

جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب ، في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع ، حتى في القصة الواحدة ، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا ، ويهز النفس للاعتبار هزًا ، وقد راعى في قصص بني إسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إياها ، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها ، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات وابتلائهم بالحسنات والسيئات ، وكيف كانوا يحدثون فى أثر كل عقوبة توبة ، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة ، ثم يعودون إلى بطرهم وينقلبون الى كفرهم اهـ ملخصًا (١).

نقل ابن كثير – رحمه الله – عدة سياقات في هذه القصة ثم قال : وهذه السياقات عن عَبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف ، الظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل ، وهي مما يجوز نقلها ، ولكن لا نصدق ولا نكذب ، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا والله أعلم (٢).

وسوف نضرب على هذه الروايات صفحًا لما انتهجناه في هذا الكتاب من الاقتصار على الصحيح ، فلم يصح عن المعصوم ﷺ شيء في قصة القتيل الذي بسببه أمرهم الله عز وجل أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها حتى يخبر عن قاتله، ولنشرع في شرح الآيات الكريمات :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾[البقرة : ٦٧]

(١) تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا (١/٣٤٥، ٣٤٦) باختصار ط. دار المعرفة – بيروت.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/١١٠) دار المعرفة – بيروت ، للحافظ ابن كثير .

قال محمد رشيد رضا : كان في الآيات السابقة يذكر النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالتوبة فالرحمة ، كالتفضيل على العالمين ، وأخذ الميثاق ، والإنجاء من آل فرعون ، وما كان في أثر ذلك على ما أشرنا الآن وأجملنا ، وأوضحنا من قبل وفصلنا ، وفي هذه القصة اختلف النسق ، فذكر المخالفة بعد في قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ ثم المنة في الخلاص منها في قوله : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ إلخ ، وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص ، وهي ذبح البقرة، بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها [حيث لم يسبق في الكلام عهدٌ لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرةً ، فالمفاجأة بحكاية ما كان من ذلك الأمر والجدال الذي وقع فيه يثير الشوق في الأنفس إلى معرفة السبب ، فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه] إذ الحكمة في أمر الله أمةً من الأمم بذبح بقرة خفية وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها ، لا سيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخّاذة بالنفوس الهازّة للقلوب [١].

وظاهر الأمر أن نبيهم ﷺ أمرهم بذبح بقرة غير معينة ولكنهم تنطعوا وتشددوا فشدد الله عليهم ؛ فقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ أي بقرة كانت ، واعتبار الصفة تكلف كان الأولى بهم أن يتنزهوا عنه ، وأن يمتثلوا الأمر بذبح بقرة ، ولو كان المراد ذبح بقرة معينة لما استحقوا التعنيف على طلب البيان، بل كانوا يستحقون المدح عليه، فلما عنَّفَهُمُ الله تعالى في قوله : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ وفي قوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ علمنا تقصيرهم فى الإتيان بما أمروا به أولاً ، وذلك إنما يكون لو كان المأمور به أولاً ذبح بقرة معينة ، وقد روي عن ابن عباس أنه قال : لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأت منهم ، لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . وقد كانوا محتاجين إلى ذبح البقرة لمعرفة القاتل ، ومع ذلك لم يبين الله عز وجل لها صفاتٍ معينة ، فلو كانت

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/٣٤٦ ، ٣٤٧) .

معينة لكان ذلك تأخيرًا للبيان عن وقت الحاجة ، وهو غير جائز .

قال الرازي : واعلم أنا إذا فرعنا على القول بأن المأمور به بقرة أي بقرة كانت ، فلابد أن نقول : التكاليف مغايرة ، فكلفوا في الأول أي بقرة كانت ، وثانيا أن تكون لا فارضًا ولا بكرًا بل عوانًا ، فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون صفراء ، فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون مع ذلك لا ذلولاً تثير الأرض ولا تسقي الحرث . وإذا ثبتَ أن البيان لا يتأخر ، فلابد من كونه تكليفًا بعد تكليف ، وذلك يدل على أن الأسهل قد ينسخ بالأشق ، ويدل على جواز النسخ قبل الفعل ، ولكنه لا يدل على جواز النسخ قبل وقت الفعل ، ويدل على وقوع النسخ في شرع موسى عليه السلام وله أيضا تعلق بمسألة أن الزيادة على النسخ هل هو نسخ أم لا ، ويدل على حسن وقوع التكليف ثانيا لما عصى ولم يفعل ما كُلف أولاً .

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[البقرة: ٦٨]

قال القفال : قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ استفهام على معنى الإنكار، الهزء يجوز أن يكون في معنى المهزوء به ، كما يقال :كان هذا في علم الله ، أي : في معلومه ، والله رجاؤنا . ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا ﴾[المؤمنون : ١١٠].

وقال الزمخشري : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أتجعلنا مكان هزء ، أو أهل هزء ، أو مهزوء بنا ، والهزء نفسه فرط الاستهزاء .

وقال الرازي : القوم إنما قالوا ذلك لأنهم لما طلبوا من موسى عليه السلام تعيين القاتل فقال موسى : اذبحوا بقرة . لم يعرفوا بين هذا الجواب وذلك السؤال مناسبة ، فظنوا أنه عليه السلام يلاعبهم ، لأنه من المحتمل أن موسى عليه السلام أمرهم بذبح البقرة وما أعلمهم أنهم إذا ذبحوا البقرة ضرب القتيل

ببعضهـا فيصير حيًا ، فلا جرم وقع هذا القول موقع الهزء [١] . ويحتمل أنه عليه السلام وإن كان قد بين لهم كيفية الحال إلا أنهم تعجبوا من أن القتيل كيف يصير حيًا بأن يضربوه ببعض أجزاء البقرة فظنوا أن ذلك يجري مجرى الاستهزاء [٢].

قال القاسمي : وأشْعَر جوابهم ما ثبت مِنْ فظاظتهم ، إذ فيه سُوء الأدب على من ثبتت رسالته وقد علموها .

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ لأن الهزء في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهلٌ وسفه ، نفى عنه عليه السلام ما توهموه من قِبَلِه على أبلغ وجه وآكده ، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه ، بالاستعاذة منه استفظاعًا له واستعظامًا لما أقدموا عليه من العظيمة التي شافهوه عليه السلام بها . والعوذ : اللجأ مِنْ تخوف لكافٍ يكفيه . والجهل : التقدم في الأمور بغير علم [٣].

وقال صاحب المنار : وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال ، وإن لم تظهر حكمته بادي الرأي ، ولولا ذلك لامتثلوا وانتظروا النتيجة بعد ذلك ، ولما كان في جوابهم هذا رمي لموسى – عليه الصلاة والسلام – بالسفه والجهالة.

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : ألتجئ إلى الله وأعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزء بالناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة : ٦٨]

(١) وفي ذلك نظر وكان عليه أن ينسب التقصير فى الفهم إليهم والعيب في الرد السيئ عليهم ، وأن ينزه نبي الله عن القصور في البلاغ خاصة وقد ذكر الله عز وجل ذلك لبيان جفائهم وسوء أدبهم ، والأنبياء منزهون عن القصور والرذائل متصفون بالفضائل وكريم الشمائل .

(٢) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي المسمى بـ « مفاتيح الغيب » – ط . دار الكتب العلمية.(٣/١٠٨ ، ١٠٩) باختصار .

(٣) محاسن التأويل (٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣) .

فقوله تعالى : ﴿ لاَّ فَارِضٌ ﴾ أي : غير مُسِنَّةٍ انقطعت ولادتها ﴿ وَلا بِكْرٌ ﴾ لم تلد بالمرة ، والمراد بها : التي لم تلد كثيراً ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ عوان : النصف في السن من النساء والبهائم ، أي : هي بين ما ذكر من السنين الفارض والبكر [١] .

قال ابن كثير : أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ، وهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، ولكنهم شددوا فَشُدِّدَ عليهم فقالوا : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ أي : ما هذه البقرة وأي شيء صفتها ؟ قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا هشام بن علي عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فَشُدِّدَ عليهم . إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحدٍ عن ابن عباس [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

قال الألوسي : أي من ذبح البقرة ، ولا تكرروا السؤال ولا تتعنتوا ، وهذه الجملة يحتمل أن تكون من قول الله تعالى لهم ، ويحتمل أن تكون من قول موسى عليه السلام حرضهم على امتثال ما أمروا به شفقة منه عليهم [٣] .

وقال القرطبي : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُون ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنت ، فما تركوه ، وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ، وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه ، وعلى أن الأمر على الفور ، وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضاً ، ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمروا به فقال : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُون ﴾ وقيل : لا ، بل على التراخي ؛ لأنه لم يعنفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب . قاله : ابن خُوَيْز منداد [٤].

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/ ٣٤٨) لمحمد رشيد رضا . (٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١١٠)
(٣) تفسير روح المعاني (١/ ٢٨٨). (٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٨٢) .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٩]

قال الرازي : ثم إنه تعالى حكى سؤالهم الثاني ، وهو قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ واعلم أنهم لما عرفوا حال السن شرعوا بعده في تعرف حال اللون ، فأجابهم الله تعالى بأنها ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ والفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه ، يقال في التوكيد : أصفر فاقع ، وأسود حالك ، وأبيض يقق ، وأحمر قانٍ ، وأخضر ناضر [1] .

وقوله تعالى : ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ .

قال الألوسي : والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه أو رؤية أمر معجب رائق ، وأما نفسه فانشراح مستبطن فيه ، وبين السرور والحبور والفرح تقارب ، لكن السرور هو الخالص المنكتم ، سمي بذلك اعتبارًا بالإسرار، والحبور ما يرى حبره – أي : أثره – في ظاهر البشرة ، وهما يستعملان في المحمود . وأما الفرح فما يحصل بطرًا أو أشرًا ، ولذلك كثيرًا ما يذم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ والمراد هنا : عند بعض الإعجاب . مجازًا ، للزومه له غالبًا . والجملة صفة البقرة ، أي : تعجب الناظرين إليها . وجمهور المفسرين يشيرون إلى أن الصفرة من الألوان السارة ، ولهذا كان علي كرم الله تعالى وجهه يرغب في النعال الصفر ويقول : من لبس نعلاً أصفر قل همه . ونهى ابن الزبير ويحيى بن أبي كثير عن لباس النعال السود لأنها تغم [2] .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٧٠]

قال الزمخشري : مرة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها ، واستكشاف زائد ليزدادوا بيانًا لوصفها . عن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم بيوتهم ، فكتب إليه : بأيهما أبدأ ؟ فقال : إن قلت

(١) التفسير الكبير (٣/ ١١٠) .
(٢) روح المعاني (١ / ٢٨٩) باختصار .

لك بقطع الشجر سألتني بأي نوع منها أبداً . وعن عمر بن عبد العزيز : إذا أمرتك أن تعطي فلانًا شاة سألتني : أضائن أم ماعز ؟ فإن بينت لك قلت : أذكر أم أنثى ؟ فإن أخبرتك قلت : أسوداء أم بيضاء ؟ فإذا أمرتك فلا تراجعني [١] .

وقال القرطبي : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ استثناء منهم ، وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد ، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر [٢] .

وقال الرازي : قال الحسن : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **والذي نفسي بيده لو لم يقولوا إن شاء الله لحيل بينهم وبينها أبدًا** » واعلم أن ذلك يدل على أن التلفظ بهذه الكلمة مندوب في كل عمل يراد تحصيله ، ولذلك قال الله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٣] وفيه استعانة بالله ، وتفويض الأمر إليه [٣] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١] .

وقال ابن الجوزي : قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ قال قتادة : لم يذلها العمل فتثير الأرض . **قال ابن قتيبة** : يقال في الدواب : دابة ذلول ؛ بينة الذّل ، بكسر الذال ، وفي الناس : رجلٌ ذليل ؛ بين الذُّلّ ، بضم الذال .

﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ تقلبها للزراعة ، ويقال للبقرة المثيرة . قال الفراء : لا تقفن على ﴿ ذلول ﴾ لأن المعنى : ليست بذلول فتثير الأرض .

ومعنى ﴿ ولا تسقي الحرث ﴾ : لا يستقى عليها الماء لسقي الزرع .

قوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : مسلمة من العيوب . قاله ابن عباس وأبو العالية وقتادة ومقاتل .

والثاني : مسلمة من العمل .

---

(١) الكشاف (١ / ١٥١) باختصار .ط . الريان (١ / ١١٠) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٨٤) . (٣) التفسير الكبير (١١١/٣) باختصار .

والثالث : مسلمة من الشية . قاله مجاهد وابن زيد .

والرابع : مسلمة القوائم والخلق . قاله عطاء الخرساني .

فأما « الشية » فقال الزجاج : الوشي في اللغة خلط لون بلون . ويقال : وشيت الثوب أشيه شية ووشيًا ، كقولك : وديت فلانا أديه دية . ونصب ﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ على النفي ، ومعنى الكلام : ليس فيها لون يفارق سائر لونها . وقال عطاء الخرساني : لونها لون واحد [١] .

قال الشوكاني : فلما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبقى بعدها ريب ، ولا يخالج سامعها شك ، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه ، أقصروا من غوايتهم ، وانتبهوا من رقدتهم ، وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ ﴾ أي : أوضحت لنا الوصف ، وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها . فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ وامتثلوا الأمر الذي كان يَسِيرًا فعسروه ، وكان واسعًا فضيقوه ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ما أمروا به ؛ لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة ، فكان ذلك مظنة للاستبعاد ومحلاً للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم . وقيل : إنهم ما كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف . وقيل : لارتفاع ثمنها . وقيل : لخوف انكشاف أمر المقتول . والأول أرجح [٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:٧٢ ، ٧٣].

قال محمد رشيد رضا : هذه أول القصة المحتوية على المخالفة على ما أشرنا إليه ، وهي القتل ، ثم التنازع في القاتل ، ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح

---

(١) باختصار من زاد المسير لابن الجوزي (١/٩٨ ، ٩٩) المكتب الإسلامي .

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/٩٨) دار المعرفة – بيروت .

البقرة ، وما كان من إلحاحهم في السؤال على ما سبق ، فقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أسند فيه القتل إلى الأمة ، وإن كان القاتل واحدًا ، باعتبار ما تقدم من كونها في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . والتدارؤ تفاعل من الدرء ، وهو الدفع ، فمعناه التدافع ، وهو يدل على أنه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعي البراءة ويتهم غيره ، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها الحقيقة ، ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ من الإيقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لإخفاء القاتل ، لأنه لا يخفى عليه مكركم [١] .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٣]

قال الشوكاني : واختلف في تعيين البعض الذي أمروا بأن يضربوا القتيل به، ولا حاجة إلى ذلك ، مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفينا أن نقول : أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها ، فأي بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به ، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم ، إذا لم يرد به برهان .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ فأحياه الله ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أي : إحياء مثل هذا الإحياء ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي : علاماته الدالة على كمال قدرته . وهذا يحتمل أن يكون خطاباً لمن حضر القصة ، ويحتمل أن يكون خطابًا للموجودين عند نزول القرآن [٢] .

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/٣٥٠ ، ٣٥١).
(٢) فتح القدير للشوكاني (١/١٠٠) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١ - قال الزمخشري : فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ؟ قلت : كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها ولما جدد فيهم من الآيات العظام ، وهاتان قصتان ، كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين ، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال ، وما يتبع ذلك ، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع . ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها إن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : ﴿ اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثبيته ، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها ، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة [(١)] .

٢ - قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد ، وليس المزاح من الاستهزاء بسبيل ، ألا ترى أن النبي ﷺ كان يمزح والأئمة بعده [(٢)] .

٣ - وقال في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا . . . ﴾ الآية : في هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضبط بالصفة وحصر بها جاز السلم فيه ، وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعي والليث والشافعي ، وكذلك كل ما يضبط بالصفة ، لوصف الله

---

(١) الكشاف (١/١٥٤) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٨٢) .

تعالى البقرة في كتابه وصفاً يقوم مقام التعيين . وقال رسول الله ﷺ : « **لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها** » أخرجه مسلم [١] فجعل ﷺ الصفة تقوم مقام الرؤيا ، وجعل ﷺ دية الخطأ في ذمة مَنْ أوجبها عليه ديناً إلى أجل ، ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول الكوفيين ؛ أبي حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح ، حيث قالوا : لا يجوز السلم في الحيوان - وروي عن ابن مسعود وحذيفة وعبدالرحمن بن سمرة - لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشي وحركة ، وكل ذلك يزيد في ثمنه ويرفع من قيمته [٢] .

٤- قال القاسمي : قال الراغب : قال بعض الناس : في هذه الآية دلالة على نسخ الشيء قبل فعله ؛ فإن في الأول أمروا بذبح بقرة غير معينة ، وكان لهم أن يذبحوا أي بقرة شاءوا ، وفي الثاني والثالث أمروا بذبح بقرة مخصوصة ، فكأنهم نهوا عما كانوا أمروا به من قبل ، وليس كذلك ، فإن الأول أمر مطلق ، والثاني والثالث كالبيان له لمَّا راجعوا ، ولم يسقط عنهم ذبح البقرة بل زيد في أوصافها وكشف عن المراد بالأمر الأول . وفي الآية دلالة على جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة [٣] .

٥- وقال الشيخ أبو بكر الجزائري في هداية الآيات :

- بيان ما كان عليه قوم موسى من بني إسرائيل من العجرفة وسوء الأخلاق ليتجنب مثلها المسلمون .
- حرمة الاعتراض على الشارع ووجوب تسليم أمره أو نهيه ، ولو لم تُعرَف

---

(١) رواه البخاري بلفظ : « **لا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها** » (٩/٢٥٠) النكاح ، وأبوداود (٢١٣٦) النكاح ، والترمذي (١/٢٣٧) الأدب ، وأحمد (١/٣٨٠ ، ٤٦٠) ولم أقف عليه في صحيح مسلم فالله أعلم . وقال الحافظ : قال القاسمي : هذا أصل لمالك في سد الذرائع ، فإن الحكمة في هذا النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور فيفضي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة . فتح الباري (٩/٢٥٠) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٨٥ ، ٣٨٦) . (٣) محاسن التأويل (٢/١٥٦) .

فائدة الأمر والنهي وعلتهما .

– الندب إلى الأخذ بالمتيسر ، وكراهة التشدد في الأمور .

– بيان فائدة الاستثناء بقول (إن شاء الله) إذ لو لم يقل اليهود ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُون ﴾ ما كانوا ليهتدوا إلى معرفة البقرة المطلوبة .

– ينبغي تحاشي الكلمات التي قد يفهم منها انتقاص الأنبياء ، مثل قولهم : ﴿ الآن جئت بالحق ﴾ إذ مفهومه أنه ما جاءهم بالحق إلا في هذه المرة من عدة مرات سبقت [1] .

٦– وقال الرازي : وههنا سؤالان :

السؤال الأول : ما الفائدة في ضرب المقتول ببعض البقرة مع أن الله تعالى قادر على أن يحييه ابتداءً ؟

الجواب : الفائدة فيه لتكون الحجة أوكد وعن الحيلة أبعد ، فقد كان يجوز لملحد أن يوهم أن موسى عليه السلام إنما أحياه بضرب من السحر والحيلة ، فإنه إنما حيي عندما يضرب بقطعة من البقرة المذبوحة انتفت الشبهة في أنه لم يحيِ بشيءٍ انتقل إليه من الجسم الذي ضرب به ، إذا كان ذلك إنما حيي بفعل فعلوه هم ، فدل على أن إعلام الأنبياء إنما يكون من عند الله لا بتمويه من العباد، وأيضاً فتقديم القربان مما يعظم أمر القربان .

السؤال الثاني : هلا أمر بذبح غير البقرة ؟ وأجابوا بأن الكلام في غيرها لو أمروا به كالكلام فيها ، ثم ذكروا فيها فوائد ، منها التقرب بالقربان الذي كانت العادة به جارية ، ولأن هذا القربان كان عندهم من أعظم القرابين ، ولما فيه من مزيد الثواب لتحمل الكلفة في تحصيل هذه البقرة على غلاء ثمنها ، ولما فيه من حصول المال العظيم لمالك البقرة [2] .

* * * * *

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر جابر الجزائري (٥٨/١) .

(٢) التفسير الكبير (١١٥/٣) .

٢- قصة طـالـوت

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[البقرة :٢٤٦-٢٥٢].

بـين يدي القصة :

هذه فترة من فترات الضعف في بني إسرائيل من بعد موسى ، ثم هي قصة بداية الصحوة من هذه الفترة ، حيث استيقظت العقيدة في نفوس وجوه الناس منهم ، وكانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما مات نبي بعث نبي ، ولم

يرد بسند صحيح اسم هذا النبي الذي عاصر هذه القصة ، وقد اجتهد بعض المفسرين أو نقلوا عن السدي والكلبي من أخبار بني إسرائيل أن اسمه شمعون ، وقيل : يوشع بن نون ، ولم يرد ذلك في سند صحيح عن المعصوم ، وليس في تعيين اسمه كثير فائدة ، ولو كان في ذلك فائدة لأخبرنا الله عز وجل باسمه ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وبنو إسرائيل هم بنو إسرائيل ، في عنادهم وتمردهم وجدالهم وغدرهم ، وأعلم الناس بهم نبيهم ، فأراد أن يتأكد من هذه الروح الجهادية التي استيقظت في نفوسهم ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ فأظهروا الإيمان وحب الجهاد والارتفاع من حالة الذل والصغار التي وصلوا إليها ، ولكنهم في أول اختبار ظهرت طبائع النفوس التي امتلأت بحب الدنيا والظهور فيها ، وعدم التسليم لأمر الله عز وجل ونهْيه ، فبعد أن أخبرهم نبيهم أن الله عز وجل قد اختار طالوت ملكاً قالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ وكان الواجب عليهم أن يسلموا لأمر الله عز وجل ولكنها طبيعة اليهود كما مر بنا في قصة البقرة ، ثم اختبرهم ملكهم طالوت ليتأكد من صحة عزيمة جنوده ، ومن أجل أن تبقى معه الفئة المؤمنة التي تستحق النصر ، فبقيت معه بقية قليلة ، ولكنها مؤمنة صادقة ، فتنزَّل عليهم نصر الله عز وجل ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة . فهذا ملخص هذه القصة التي قصها الله تعالى علينا تربيةً لهذه الأمة ، وحتى يقف أصحاب الدعوة على أن الاغترار والحماس الظاهر دون الإيمان والتسليم والانقياد لأمر الله عز وجل لا يفيد الدعوة شيئاً ، وأن الثقة بالله عز وجل واليأس من الأسباب بعد الأخذ بها من أهم أسباب النصر والتمكين . ولاشك أن ما حدث في هذه القصة كان سبب الملك العظيم لبني إسرائيل ، وهو داود وسليمان – عليهما السلام – فليس في عصور بني إسرائيل أزهى من هذين العصرين .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ كأنها حادث واقع ومشهد منظور ، لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل من كبرائهم وأهل الرأي فيهم إلى نبي لهم ، ولم يرد في السياق ذكر اسمه ، وذكره هنا لا يزيد شيئاً في إيحاء القصة ، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل ، لقد اجتمعوا إلى نبي لهم وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال وأنه ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ، ووضح الطريق أمامهم للجهاد ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر ، فلابد للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل ، ولابد أن يتجرد في حسه الهدف ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فلا يغشيه الغبش الذي لا يدري معه أين يسير . وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم ، وثبات نيتهم ، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة ، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ [١] .

وقال ابن كثير : والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله ، في ذلك الزمان ، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء ، فقال لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢١٠) .

يقولون : نحن محروبون موتورون ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم . قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

قال الرازي ما ملخصه : اعلم أنه لما بين في الآية الأولى أنه أجابهم إلى ما سألوا ثم إنهم تولوا ، فبين أن أول ما تولوا إنكارهم إمرة طالوت ، وذلك لأنهم طلبوا من نبيهم أن يطلب من الله أن يعين لهم ملكاً ، فأجابهم بأن الله قد بعث لهم طالوتا ملكاً . ثم إن الله تعالى لما عينه لأن يكون ملكاً لهم أظهروا التولي عن طاعته والإعراض عن حكمه وقالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ واستبعدوا جدًا أن يكون هو ملكاً عليهم ، قال المفسرون : وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بني إسرائيل ، وهو سبط لاوي بن يعقوب ، ومنه موسى وهارون ، وسبط المملكة سبط يهوذا ، ومنه داود وسليمان ، وأن طالوت ما كان من أحد هذين السبطين ، بل كان من ولد بنيامين ، فلهذا السبب أنكروه ملكاً لهم وزعموا أنهم أحق بالملك منه ، ثم إنهم أكدوا هذه الشبهة بشبهة أخرى وهي قولهم : ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ وذلك إشارة إلى أنه فقير ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وتقرير هذا الجواب أنهم طعنوا في استحقاقه للملك بأمرين **أحدهما :** أنه

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (٤٧٩) .

ليس من أهل بيت الملك . **الثاني** : أنه فقير. والله تعالى بين أنه أهل للملك .

والوجه الأول في رد هذه الشبهة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾.

واعلم أن القوم لما كانوا مقرين بنبوة ذلك النبي كان إخباره عن الله تعالى أنه جعل طالوت ملكاً عليهم حجة قاطعة في ثبوت الملك له ، وإذا ثبت ذلك كان ملكاً واجب الطاعة وكانت الاعتراضات ساقطة .

والوجه الثاني في الرد على الشبهة قوله تعالى : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ وقرر ذلك بأن حصل له وصفان : **أحدهما**: العلم . **والثاني** : القدرة.

وهذان الوصفان أشد مناسبة لاستحقاقه الملك من الوصفين الأولين وبيانه من وجوه ؛ **أحدها** : أن العلم والقدرة من باب الكمالات الحقيقية ، والمال والجاه ليسا كذلك . **والثاني** : أن العلم والقدرة من الكمالات الحاصلة لجوهر نفس الإنسان ، والمال والجاه أمران منفصلان عن ذات الإنسان. **والثالث** : أن العلم والقدرة لا يمكن سلبهما عن الإنسان ، والمال والجاه يمكن سلبهما عن الإنسان . **والرابع** : أن العالم بأمر الحروب والقوي الشديد على المحاربة يكون الانتفاع به في حفظ مصلحة البلد وفي دفع شر الأعداء أتم من الانتفاع بالرجل النسيب الغني ، إذا لم يكن له علم يضبط المصالح وقدرة على دفع الأعداء ، فثبت بما ذكرنا أن إسناد الملك إلى العالم القادر أولى من إسناده إلى النسيب الغني .

ثم قال : ههنا مسائل :

المسألة الأولى : احتج أصحابنا في مسألة خلق الأعمال بقوله : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ وهذا يدل على أن العلوم الحاصلة للخلق إنما حصلت بتخليق الله تعالى وإيجاده .

المسألة الثانية : قال بعضهم : المراد بالبسطة في الجسم طول القامة ، وكان يفوق

الناس برأسه ومنكبه ، وإنما سمي طالوت لطوله ، وقيل : المراد من البسطة في الجسم الجمال ، وكان أجمل بني إسرائيل ، وقيل : المراد القوة ؛ وهذا القول عندي أصح ؛ لأن المنتفع به في دفع الأعداء هو القوة والشدة لا الطول والجمال .

المسألة الثالثة : أنه تعالى قدم البسطة في العلم على البسطة في الجسم ، وهذا منه تعالى تنبيه على أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية .

والوجه الثالث في الجواب عن الشبهة قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء﴾ تقريره أن الملك لله والعبيد لله ، فهو سبحانه يؤتي ملكه من يشاء ولا اعتراض لأحدٍ عليه في فعله ، لأن الملك إذا تصرف في ملكه فلا اعتراض لأحدٍ عليه في فعله .

والوجه الرابع في الجواب قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والتقدير : أنتم طعنتم في طالوت لكونه فقيراً ، والله تعالى واسع الفضل والرحمة ، فإذا فوض الملك إليه ، فإن علم أن الملك لا يتمشى إلا بالمال فالله تعالى يفتح عليه باب الرزق والسعة في المال ، ثم بين بقوله ﴿ عَلِيمٌ﴾ أنه تعالى مع قدرته على إغناء الفقير عالم بمقادير ما يحتاج إليه في تدبير الملك ، وعالم بحال ذلك الملك في الحاضر والمستقبل ، فيختار لعلمه بجميع العواقب ما هو مصلحته في قيامه بأمر الملك [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِه أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فيه سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

قال القاسمي : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِه ﴾ أي : علامة مُلْكه أنه من الله تعالى ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوت﴾ أي : يرد الله إليكم التابوت الذي أُخذ منكم . وهو صندوق التوراة على ما سنذكره ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : وقار وجلال وهيبة ، أو فيه سكون نفوس بني إسرائيل يتقوون به على الحرب ﴿ وَبَقِيَّةٌ ﴾

(١) باختصار وتصرف من التفسير الكبير (١٤٨/٦) .

أي: فضلة جملة ذهب جُلُّها ﴿ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ أي : من آثارهم الفاضلة ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي : في رد التابوت إليكم ﴿ لآيَةً لَّكُم ﴾ أن ملكه من الله تعالى ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بآيات الله وأنبيائه (١) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩].

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ ما ملخصه : يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل أنه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم ﴾ أي : مختبركم ﴿ بِنَهَرٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي : فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أي : فلا بأس عليه . قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ قال ابن جريج : قال ابن عباس : من اغترف منه بيده رَوِيَ ، ومن شرب منه لم يَرْوَ . وقد روى ابن جرير من طريق إسرائيل وسفيان الثوري ومِسْعَر بن كِدام عن أبي إسحاق السَّبيعي عن البراء بن عازب قال : «كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جازه معه إلا مؤمن» ورواه البخاري عن عبدالله بن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق عن جده عن البراء بنحوه (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

(١) محاسن التأويل (٣/٣٠٥ ، ٣٠٦) .
(٢) البخاري (٧/٣٢٩) المغازي .

قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي : استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم ، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عَدد ولا عُدد ، ولهذا قالوا : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] .

وقال القرطبي : قوله تعالى ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ الفئة : الجماعة من الناس والقطعة منهم ، من (فأوت رأسه بالسيف وفأيته) أي : قطعته . وفي قولهم ﷺ : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ﴾ الآية ، تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه .

قلت : هكذا يجب علينا نحن أن نفعل ، ولكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك ، حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا ، وفي البخاري : وقال أبو الدرداء : إنما تقاتلون بأعمالكم . وفيه مُسْنَدٌ أن النبي ﷺ قال : « **هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم** »[2] فالأعمال فاسدة ، والضعفاء مهملون ، والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة ، قال الله تعالى : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] وقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾ [المائدة : ٢٣] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] وقال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : ٤٠] وقال : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] فهذه أسباب النصر وشروطه ، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا ، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ، ولا من الدين إلا رسمه ، لظهور الفساد ولكثرة

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٠٢/١) .

(٢) البخاري (٢٨٣٦) الجهاد ، وأثر أبو الدرداء فقد أخرجه البخاري تعليقا كما ترى وأخرجه ابن المبارك موصولا في كتاب الجهاد (٣٠/١) .

الطغيان وقلة الرشاد ، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً ، براً وبحراً ، وعمّت الفتن ، وعظمت المحن ، ولا عاصم إلا من رحم (١) .

وقال الرازي : أما قوله : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ المراد منه : تقوية قلوب الذين قالوا : ﴿ لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ والمعنى : أنه لا عبرة بكثرة العدد ، إنما العبرة بالتأييد الإلهي والنصر السماوي ، فإذا جاءت الدولة فلا مضرة في القلة والذلة ، وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعدة (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٠] .

قال ابن كثير : طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر ، أي : يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال ، فسألوا التثبيت الظاهر والباطن ، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه ، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا ، وأنالهم ما إليه فيه رغبوا (٣) .

وقال الرازي ما ملخصه : فيه مسائل :

المسألة الأولى : المبارزة في الحرب هي أن يبرز كل واحدٍ منهم لصاحبه وقت القتال .

المسألة الثانية : أن العلماء والأقوياء من عسكر طالوت لما قرروا مع العوام والضعفاء أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وأوضحوا أن الفتح والنصرة لا يحصلان إلا بإعانة الله ، لا جرم لما برز عسكر طالوت إلى عسكر جالوت ، وأُروا القلة في جانبهم والكثرة من جانب عدوهم لا جرم اشتغلوا

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠٦٣/٢) .
(٢) التفسير الكبير (١٥٧/٦) .
(٣) قصص الأنبياء (٤٨٢) .

بالدعاء والتضرع فقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ ونظيره ما حكى الله عن قوم آخرين أنهم قالوا حين الالتقاء مع المشركين : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٧] وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ في كل المواطن ، وروي عنه في قصة بدر أنه ـ عليه السلام ـ لم يزل يصلي ويستنجز من الله وعده ، وكان متى لقي عدواً قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن شُرُورِهِمْ وَأَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ » [١] وكان يقول : « اللَّهُمَّ بِكَ أَصُولُ وَبِكَ أَجُولُ » [٢] .

المسألة الثالثة : الإفراغ : الصَّب ، والإفراغ : إخلاء الإناء مما فيه ، وإنما يخلو بصب كل ما فيه . وإذا عرفت هذا فنقول قوله : ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ يدل على المبالغة في طلب الصبر من وجهين :

أحدهما : أنه إذا صب الشيء في الشيء فقد أثبت فيه بحيث لا يزول عنه ، وهذا يدل على التأكيد .

والثاني : أن إفراغ الإناء هو إخلاؤه ، وذلك يكون بصب كل ما فيه .

المسألة الرابعة : اعلم أن الأمور المطلوبة عند المحاربة مجموع أمور ثلاثة :

فأولها : أن يكون الإنسان صبوراً على مشاهدة المخاوف والأمور الهائلة ، وهذا هو الركن الأعلى للمحارب ، فإنه إذا كان جباناً لا يحصل منه مقصود أصلاً .

---

(١) رواه أبوداود (١٥٢٣) الصلاة ، وأحمد (٤١٤/٤ ، ٤١٥) ، والبيهقي في السنن (٢٥٣/٥) ، والحاكم (١٤٢/٢) قسم الفيء وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأكبر ظني أنهما لم يخرجاه ووافقه الذهبي وابن حبان (٨٣/١١) رقم ٤٧٦٥ وقال المحقق [شعيب الأرناؤوط] : إسناده صحيح .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣٥٠/١١) عن ابن عباس ، وقال الهيثمي : فيه عثمان بن سعد المكتب ، وثقه أبونعيم وأبوحاتم وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات ، وضعفه محقق المعجم الكبير .

وثانيها : أن يكون قد وجد من الآلات والأدوات والاتفاقات الحسنة مما يمكنه أن يقف ويثبت ولا يصير ملجأ إلى الفرار .

وثالثها : أن تزداد قوته على قوة عدوه حتى يمكنه أن يقهر العدو .

إذا عرفت هذا فنقول : المرتبة الأولى هي المراد من قوله : ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ والثانية هي المراد بقوله : ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ والثالثة هي المراد بقوله : ﴿ وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١].

قال القاسمي : ﴿ فَهَزَمُوهُم ﴾ أي : هؤلاء القليلون ، أولئك الكثيرين ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بنصره ، إذ شجع القليلين وجَبَّنَ الكثيرين ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ ﴾ وكان في جيش طالوت ﴿ جَالُوتَ ﴾ الذي هو رأس الأقوياء ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ أي : أعطى الله داود ملك بني إسرائيل ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي : الفهم والنبوة ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ من صنعة الدروع وغيرها ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم ﴾ من أهل الشر ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ من أهل الخير ﴿ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ أي : بغلبة الكفار وظهور الشرك والمعاصي ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ الآية [الحج : ٤٠] ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي : منَّ عليهم بالدفع ، ولذلك قوى سبحانه هؤلاء الضعفاء وأعطى بعضهم الملك والحكمة ومن سائر العلوم ليدفع فساد الأقوياء بالسيف (٢) .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

(١) باختصار من التفسير الكبير (١٥٧/٦، ١٥٨) . (٢) محاسن التأويل (٢٠٩/٣) .

وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه ، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه ، فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران ، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ، ويُدال لأولياء الله على أعدائه ، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه [١] .

قوله تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٢]

قال القاسمي رحمه الله : ﴿ تلك ﴾ أي : المذكورات من إماتة الألوف وإحيائهم ، وتمليك طالوت ، وإتيان التابوت ، وانهزام جالوت ، وقتل داود إياه وتملكه ﴿ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ إذ هي أخبار غيوب تدل على كمال قدرته سبحانه وحكمته ولطفه ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أي : ننزل عليك جبريل بها ﴿ بِالْحَق ﴾ أي : اليقين الذي لا يُرتاب فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بما دلت عليه هذه الآيات من علمك بها من غير معلم من البشر ، ثم بإعجازها الباقي على مدى الدهر . وفي هذه القصص معتبر لهذه الأمة في احتمال الشدائد في الجهاد كما احتملها المؤمنون في الأمم المتقدمة ، كما أن فيها تسلية للرسول ﷺ من الكفار والمنافقين فكأنه قيل : قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء عليهم السلام في بني إسرائيل من الخلاف عليهم والرد لقولهم ، فلا يعظمن عليك كفر من كفر بك ، وخلاف من خالف عليك ؛ لأنك مثلهم ، وإنما بعث الكل لتأدية الرسالة ولامتثال الأمر على سبيل الاختيار والتطوع لا على سبيل الإكراه ، فلا عتب عليك في خلافهم وكفرهم ، والوبال في ذلك يرجع عليهم ، وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كالتنبيه على ذلك ، أشار له الرازي [٢] .

---

(١) قصص الأنبياء (٤٨٢) .

(٢) محاسن التأويل (٣/٢١٠) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- **قال العلامة محمد رشيد رضا ما ملخصه :** أذكر ما يظهر لي من السنن والأحكام الاجتماعية في آيات هذه القصة :

السُّنة الأولى : أن الأمم إذا اعتدي على استقلالها وأوقع الأعداء بها فهضموا حقوقها ، تنتبه مشاعرها لدفع الضيم وتفكر في سبيله ، فتعلم أنها الوحدة التي يمثلها الزعيم العادل والقائد الباسل ، فتتوجه إلى طلبه حتى تجده .

الثانية : أن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها إنما يكون على حقيقته وكماله في خواصها ، كما علمت من إسناد طلب الملك إلى الملأ .

الثالثة : متى عظم الشعور بوجوب حفظ الاستقلال ودفع ضيم الأعداء عنها فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها ، فيظن الناقص أن عنده ما عند الكامل ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ .

الرابعة : أن من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس ، وقد جعل الإسلام ذلك إلى أهل الحل والعقد ، والناس تبع لهم .

الخامسة : أن الناس لا يتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مخالفاً لمصلحتهم الاجتماعية .

السادسة : أن الأمم في طَور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة أصحاب الثروة الواسعة ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ .

السابعة : أن الشروط التي تعتبر في اختيار الرجل في الملك هو ما استفدناه من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ الآية .

الثامنة هي : ما أفاده قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ على أن مشيئة الله تعالى إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في تغيير أحوال الأمم ، بتغيير ما في أنفسهم ، وفي سلب ملك الظالمين ، وإيراث الأرض للصالحين .

التاسعة : أن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط الظفر واستقامة الأمر ، وقوانين الجندية في هذا الزمان مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره ، والمعقول وغير المعقول (١) .

العاشرة : أن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر والثبات وطاعة القواد الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد .

الحادية عشرة : أن الإيمان بالله والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجلاء .

الثانية عشرة : أن التوجه إلى الله بالدعاء مفيد في القتال ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء .

الثالثة عشرة : دفع الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة ، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء .

الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ يؤيد السنة التي يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي ، أو بقاء الأمثل . ومما يدل على ذلك كذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧] فهو يفيد أن سيول الحوادث ونيران التنازع تقذف زبد الباطل الضار في الاجتماع وتدفعه ، وتبقي إبريز الحق النافع الذي ينمو فيه العمران ، وإبريز المصلحة التي يتحلى بها الإنسان ، وهناك آيات أخرى في أن الحق يزهق الباطل (٢) .

---

(١) هذا وهم من الشيخ – غفر الله له – فإن طاعة ولي الأمر مقيدة بعدم مخالفة أمر الله عز وجل أو أمر رسوله ﷺ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وأصرح دليل في ذلك قصة سرية عبدالله بن حذافة السهمي حين أمر جنوده بأن يقتحموا النار فقالوا : من النار هربنا . وقال النبي ﷺ: « لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً » كما في البخاري (٤٣٤٠) وغيره .

(٢) باختصار وتصرف من تفسير القرآن الحكيم (٢/٤٩٢ – ٤٩٨) .

٢- وقال الأستاذ سيد قطب رحمه الله ما ملخصه :

العبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف ، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً .. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين بعد الهزيمة المنكرة والمهانة الفاضحة والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين ، ولقد جاءت لهم بملك داود ثم ملك سليمان ، وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض ، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه ، والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى ، وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام ، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت . وفي خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين :

من ذلك : أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها ، فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة .

وفي ثنايا التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة المؤمنة وكلها واضح في قيادة طالوت ، تبرز منها خبرته بالنفوس ، وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة ، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى ، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة ، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه ، ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة ، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الله الصادق للمؤمنين .

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة أن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته ، لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل ، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا :

﴿ لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف وإنما حكمت حكماً آخر فقالت : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ثم اتجهت لربها تدعوه : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ وهي تحس أن ميزان القوي ليس في أيدي الكافرين ، إنما هو في يد الله وحده ، وطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه [1] .

٣- وقال القاسمي : قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة هذه الآية الكريمة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .. الآية ، أنها دلت على أحكام :

الأول : وجوب الجهاد ، لأن الله تعالى إنما ذكر هذه القصة المشهورة في بني إسرائيل وما نالهم تحذيراً من سلوك طريقهم . **وأيضاً** : شرائع من قبلنا تلزمنا .

الثاني : أن الأمير يحتاج إليه في أمر الجهاد لتدبير أمورهم وقد كان ﷺ إذا بعث سرية أمَّرَ عليها أميراً .

الثالث : وجوب طاعة الأمير في أمر السياسة وتدبير الحرب لأن سياق الآية يقضي بذلك ، وفي الحديث عنه ﷺ **« أطيعوا الأمير ولو كان عبداً حبشيًا »** [2] .

وقد ذكر أهل علم المعاملة أنه ينبغي في الأسفار أن يجعل أهل السفر لهم أميراً ودليلاً وإماماً [3] وهذا محمود ؛ إذ بذلك ينقطع الجدال وتنتظم أمورهم . ويلزم مثل هذا في كل أمر يحتاج فيه إلى ترداد عن الآراء نحو أمور الأوقاف والمساجد والإمامة لكل مسجد ونحو هذا . **قال الحاكم** : وفيه دلالة على أن للأنبياء تشديد العهود والمواثيق فيما يلزمهم ، ووجه ذلك أنه قال ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ وهذا نوع من التأكيد عليهم [4].

---

(١) في ظلال القرآن باختصار (١/٢٥٦-٢٥٧).

(٢) رواه البخاري (١٣/١٣٠) الأحكام . بلفظ : **« اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة »** .

(٣) روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : **« إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم »** (٢٥٩١) الجهاد : القوم يسافرون يؤمرون أحدهم .

(٤) محاسن التأويل (٢/٢٠٢ ، ٢٠٣) باختصار .

٤- في هذه القصة كذلك عزاء للصحوة الإسلامية المعاصرة ، فإن الشباب المسلم في هذه الصحوة على ما فيه من نقص وعيب وزلل لم يبلغ درجة بني إسرائيل في ذلك ، فبنو إسرائيل هم الذين ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[البقرة : ٩٣] وهم الذين قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] وهم الذين قيل لهم : (قولوا : حِطة) أي : حُط عنا الذنوب ، فقالوا (حنطة) فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم ، ويظهر في الآيات سوء أدبهم مع الله عز وجل ومع نبيهم ، وغاية ما في شباب الصحوة إعراض البعض عن موجب الدليل إما لجهل أو تأويل ، وتقديم البعض هوى النفس وطاعة الأمراء على أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ ولاشك أن ذلك نقص في التربية ، ولكن نرجو من رحمة الله عز وجل أن يُرَشِّدَ مسارهم وأن يوفق سعيهم إلى اتباع الشرع الحنيف ، وتعظيم أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ وكما كان عاقبة الصحوة في بني إسرائيل النصر والظهور ، فنرجو أن يكلل الله عز وجل سعي الساعين وعمل العاملين لنصر الدين ، ورفع راية رب العالمين ، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم .

٥- في هذه القصة كذلك بيان أسباب النصر ، فمن ذلك القيادة الرشيدة التي تعرف طبيعة الجنود ، وتختبرهم حتى يقاتل معها العناصر الطيبة ، ولا يشترط أن يكون المقاتل كامل الإيمان أو عالماً من العلماء ، ولكن يكفي وجود أصل الإيمان والانقياد والتذكير إذا ذكر ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ومن ذلك : الثقة بنصر الله عز وجل والإيمان بأن النَّصْرَ من عند الله لا بالعَدَد ولا بالعُدَد ، وذلك بعد الأخذ بالأسباب والاعتماد بالقلوب على رب الأرباب . ومن ذلك : التضرع إلى الله عز وجل وطلب الثبات والتأييد منه تعالى . فهذه بعض أسباب النصر التي تظهر بجلاء في هذه القصة التي هي من أنفع القصص لشباب الصحوة الإسلامية .

* * *

٣- قصة ابني آدم

قال الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة : ٢٧-٣٢].

بين يدي القصة :

مناسبة هذه القصة لما قبلها أن الله عز وجل يخبر محمداً ﷺ أن أعداءه يريدون النيل منه ، ولا يدخلون في دينه ، وذلك لأنهم حسدوا محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضله ، من تفضيله بالرسالة ، وقد قال الله تعالى فيما تقدم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة : ١١] وإنما فضل الله محمداً ﷺ لأنه من المتقين ، واستحق اليهود والنصارى اللعنة بتمردهم وعصيانهم ، فناسب هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ والله تعالى يعصم من يشاء ويهدي فضلاً ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً ، والطاعات يولد بعضها بعضاً ، والمعاصي يولد بعضها بعضاً ، فمن جزاء الحسنة الحسنة بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وللصحابة الكرام . ومناسبة الآيات لما بعدها

أن الله عز وجل قبل أن يشرع القصاص ويعظم حرمة الدماء حكى كيف بدأ الشر والفساد في الأرض ، وقد قال النبي ﷺ: « **لا تقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه أول من سن القتل** » [١] فهذه القصة تحكي بداية الصراع بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وكيف أن المعصية يعقبها من الندم والحسرة والمرارة ما ينبغي للعاقل أن يتجنبها ، وذلك من العقوبات الدنيوية ، وعقوبة الآخرة أنها تجر إلى النار وبئس القرار ، وبالجملة هي حكاية المعصية والطاعة ، والشر والخير ، ولنشرع في شرح الآيات الكريمات .

يقول الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِين ﴾.

قال العلامة محمد رشيد رضا : ومعنى الجملة واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وسائر الناس ذلك النبأ العظيم ـ نبأ ابني آدم ـ تلاوة متلبسة بالحقِّ مظهرة له، بأن تذكره كما وقع مبيناً ما فيه من الحكمة ، والكشف عن غريزة البشر ، وهو ما جبلوا عليه من التباين والاختلاف ، الذي يفضي إلى التحاسد والبغي والقتل ؛ ليعلموا حكمة الله فيما شرعه في الدنيا من عقاب الباغين من الأفراد والجماعات والشعوب والقبائل ، وكون هذا البغي من اليهود على رسول الله ﷺ والمؤمنين ليس من أمر دينهم ، وإنما هو من حسدهم وبغيهم ، فهم في هذا كابني آدم إذ حسد شرهما خيرهما ، فبغى عليه فقتله ، وكانت عاقبة ذلك ما بينته هذه الآيات[٢].

وقال الشوكاني رحمه الله : وقد اختلف أهل العلم في ابني آدم المذكورين هل هما لصلبه أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى الأول، وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني

---

(١) رواه البخاري (٦/٤١٩) أحاديث الأنبياء ، (١٢/١٩٨) الديات .

(٢) تفسير القرآن الحكيم (٦/٣٤١) ، واستدل أصحاب هذا القول بقول الله تعالى بعد القصة : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وقال إنهما كانا من بني إسرائيل ، فضرب بهما المثل في إبانة حسد اليهود ، وكانت بينهما خصومة فتقربا بقربانين ، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل. قال ابن عطية : وهذا وهم ، كيف يجهل صورة الدفن أحدٌ من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب ؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم : واسمهما قابيل وهابيل [1] .

قال القاسمي: ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾وهو هابيل ﴿ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ وهو قابيل ﴿ قَالَ ﴾ قابيل لهابيل ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ على قبول قربانك ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : إنما أُتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قِبَلِي، فلم تقتلني؟ وما لَكَ لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول. فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعانٍ، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متّقٍ ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم !

وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له : ما يبكيك وكنت ؟ قال : إني أسمع الله يقول ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ كذا في « الكشاف » [2].

وقال الرازي : ثم حكى الله تعالى عن قابيل أنه قال لهابيل [3] ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ فقال هابيل : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : كأن هابيل قال : لِمَ تقتلني ؟ قال : لأن قربانك صار مقبولاً. فقال هابيل : وما ذنبي ؟ إنما يتقبل الله من المتقين . وقيل : هذا من كلام الله تعالى لنبيه محمد ﷺ اعتراضاً

---

(١) فتح القدير (٢/٣٠) . (٢) محاسن التأويل (٦/١٥٦) .

(٣) قال العلامة أحمد شاكر رحمه الله : أما أنهما ابنا آدم لصلبه ، فهو القول الثبت الصحيح الذي يدل عليه سياق الآيات مؤيداً بالسنة الصحيحة كما سيأتي . وأما تسميتهما «قابيل وهابيل» فإنما هو من نقل العلماء عن أهل الكتاب ، ولم يرد به القرآن ولا جاء في سنة ثابتة فيما نعلم ، فلا علينا أن لا نجزم به ولا نرجحه ، وإنما هو قول قيل. هامش عمدة التفسير (٤/١٢٣) .

بين القصة ، كأنه تعالى بين لمحمد ﷺ أنه إنما لم يتقبل قربانه لأنه لم يكن متقيًا.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى عن الأخ المظلوم أنه قال : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال الرازي : وفي الآية سؤالان :

السؤال الأول : وهو أنه : لِمَ لَمْ يدفع القاتل عن نفسه مع أن الدفع عن النفس واجب ؟ وهب أنه ليس بواجب ، فلا أقل من أنه ليس بحرام ، فَلِمَ قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟.

والجواب من وجوه : الأول : يحتمل أن يقال : لاح للمقتول بأمارات تغلب على الظن أنه يريد قتله فذكر له هذا الكلام على سبيل الوعظ والنصيحة ، يعني : أنا لا أجوز من نفسي أن أبدأك بالقتل الظلم والعدوان ، وإنما لا أفعله خوفاً من الله تعالى . وإنما ذكر له هذا الكلام قبل إقدام القاتل على قتله وكان غرضه منه تقبيح القتل العمد في قلبه، ولهذا يروى أن قابيل صبر حتى نام هابيل فضرب رأسه بحجر كبير فقتله.

والوجه الثاني في الجواب : أن المذكور في الآية ﴿ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ يعني : لا أبسط يدي إليك لغرض قتلك ، وإنما أبسط يدي إليك لغرض الدفع . وقال أهل العلم : الدافع عن نفسه يجب عليه أن يدفع بالأيسر فالأيسر ، وليس له أن يقصد القتل ، بل يجب عليه أن يقصد الدفع ، ثم إن لم يندفع إلا بالقتل جاز له ذلك .

الوجه الثالث : قال بعضهم : المقصود بالقتل إن أراد أن يستسلم جاز له ذلك ، وهكذا فعل عثمان رضي الله عنه . وقال النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة : « **ألق كمك على وجهك وكن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل** »[1].

---

(١) رواه أحمد (٥/١١٠) والآجري في الشريعة (ص ٤٣،٤٢) والطبراني في الكبير

الوجه الرابع : وجوب الدفع عن النفس أمر يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع .

وقال مجاهد : إن الدفع عن النفس ما كان مباحاً في ذلك الوقت .

السؤال الثاني : لم جاء الشرط بلفظ الفعل ، والجزاء بلفظ اسم الفاعل ، وهو قوله : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ ﴾ ؟

والجواب : ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع ، ولذلك أكده بالباء المؤكد للنفي[1].

وقال ابن كثير : وقوله له لما توعده بالقتل : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ دل على خلق حسن وخوف من الله تعالى وخشية منه وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله .

ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » ، قالوا يا رسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « **إنه كان حريصاً على قتل صاحبه** »[2] .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٩].

قال العلامة السعدي : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ ﴾ أي : ترجع ﴿ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ أي : إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني ، فإني أوثر أن تقتلني فتبوء بالوزرين ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ دل هذا على أن القتل

= (١٨٨/١) وقال الألباني: ورجاله ثقات غير الرجل الذي لم يسم ، لكن يشهد له حديث جندب بن سفيان. إرواء الغليل (١٠٤/٨) وانظر كذلك لشواهده التلخيص الحبير (٨٤/٤) كتاب الصيال .

(١) التفسير الكبير (١٦٢/١١ ، ١٦٣) .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير (٤٨) والحديث في البخاري (٨٥/١) الإيمان ، (١٩٢/١٢) الديات ، (١٣/ ٣١، ٣٢) الفتنة ، ومسلم (١٠/١٨) الفتن .

من كبائر الذنوب وأنه موجب لدخول النار [١] .

وقال العلامة محمد رشيد رضا : أي: إني أريد بما ذكرت من اتقاء مقابلة الجناية بمثلها أن ترجع أنت إذا فعلتها متلبساً بإثمي وإثمك : أي: إثم قتلك إياي وإثمك الخاص بك الذي كان من شؤمه عدم قبول قربانك . وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما . وفيه وجه آخر ، وهو أنه مبني على كون القاتل يحمل في الآخرة إثم مَنْ قتله إن كان له آثام ، لأن الذنوب والآثام التي فيها حقوق للعباد لا يغفر الله تعالى منها شيئاً حتى يأخذ لكل ذي حقٍّ حقه ، وإنما القصاص في الآخرة بالحسنات والسيئات ، فيعطي المظلوم من حسنات الظالم ما يساوي حقه إن كان له حسنات توازي ذلك ، وما نقص من هذا أو ذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار . وفي ذكر المتكلم إثمه وإثم أخيه تواضع وهضم لنفسه بإضافة الإثم إليها على الوجه الثاني ، وتذكير للمخاطب بأنه ليس له حسنات توازي هذا الظلم الذي عزم عليه ، ولذلك رتب عليه قوله : ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار في الآخرة ، لأنك تكون ظالماً ، والنار جزاء كل ظالم ، فتكون من أهلها حتماً . ترقى في صرفه عن عزمه من التبرؤ إليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان سبب التقبل عند الله تعالى ، وهو التقوى ، إلى تنزيه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها ، إلى تذكيره بما يجب من خوف الله تعالى رب العالمين ، الذي لا يرضيه ممن وهبهم العقل والاختيار إلا أن يتحروا إقامة سنته في تربية العالم ، وإبلاغ كل حي يقبل الكمال إلى كماله ، إلى تذكيره بأن المعتدي يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه بعد الله تعالى في القصاص والجزاء ، إلى تذكيره بعذاب النار وكونها مثوى الظالمين الفجار ،

(١) تيسير الكريم المنان (٢/٢٧٩ ، ٢٨٠) .

فماذا كان من تأثير هذه المواعظ في نفس الحاسد الظالم ؟ [1] .

قال الله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

قال الرازي : قال المفسرون : سهلت له نفسه قتل أخيه . ومنهم من قال : شجعته . وتحقيق الكلام أن الإنسان إذا تصور من القتل العمد العدوان كونه من أعظم الكبائر ، فهذا الاعتقاد يصير صارفاً له عن فعله ، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المتمرد عليه الذي لا يطيعه بوجه البتة ، فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها صار هذا الفعل سهلاً عليه ، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه فهذا هو المراد بقوله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ [2] .

وقال القاسمي : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ أي : رخصت وسهلت له نفسه ، والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ما سولته نفسه ، أي : الذي حقه أن يحفظه من كل من قصده بالسوء بالتحمل على نفسه ﴿ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ديناً إذ صار كافراً حاملاً للدماء إلى يوم القيامة ، ودنيا إذ صار مطروداً مبغضاً للخلائق . وقد أخرج الجماعة ، غير أبي داود ، عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل** » [3] .

وقال محمد رشيد رضا: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي: من جنس الذين خسروا أنفسهم بإفساد فطرتها ، وخسروا أقرب الناس إليهم وأبرهم بهم في الدنيا وهو الأخ الصالح التقي ، وخسروا نعيم الآخرة إذ لم يعودوا أهلاً لها لأنها دار المتقين [4].

---

(١) ، (٤) تفسير القرآن الحكيم (٣٤٤/٦ ، ٣٤٥) ، (٣٤٦/٦) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٦٤/١١).

(٣) محاسن التأويل (١٦٢/٦) والحديث تقدم تخريجه ص (٣٤٤) .

قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٣١] .

قال العلامة السعدي : فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به ؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : يثيرها ليدفن غراباً آخر ميتاً ﴿ لِيُرِيَهُ ﴾ بذلك ﴿ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ أي : بدَنَه ؛ لأن بدن الميت يكون عورة ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسار [1] .

وقال محمد رشيد رضا : لما كان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم ، ولما كان هذا النوع من الخلق «الإنسان» موكولاً إلى كسبه واختياره في عامة أعماله لم يعرف القاتل الأول كيف يواري جثة أخيه المقتول الذي يسوؤه أن يراها بارزة – فالسوءة : ما يسوء ظهوره ، ورؤية جسد الميت ولاسيما المقتول يسوء كل من ينظر إليه ويوحشه – وأما سائر أنواع الحيوانات فَتُلْهَم عمل ما تحتاج إليه إلهاماً في الأكثر ، وقلما يتعلم بعضها من بعض شيئاً ، وقد علمنا الله تعالى أن القاتل الأول تعلم دفن أخيه من الغراب ، ويدلنا ذلك على أن الإنسان في نشأته الأولى كان في منتهى السذاجة ، وأنه لاستعداده الذي يفضل به سائر أنواع الحيوان كان يستفيد من كل شيءٍ علماً واختباراً ويرتقي بالتدريج ؛ ذلك بأن الله تعالى بعث غراباً إلى المكان الذي هو فيه فبحث في الأرض ، أي : حفر برجليه فيها يفتش عن شيءٍ ، والمعهود أن الطير تفعل ذلك لطلب الطعام ، والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث في الأرض ، لأنه قال : ﴿ يَبْحَثُ ﴾ ولم يقل (بحث) والمضارع يفيد الاستمرار ، فلما أطال البحث أحدث حفرة في

(١) تيسير الكريم المنان (٢/٢٨٠) .

الأرض ، فلما رأى القاتل الحفرة وهو متحير في أمر مواراة سوْءة أخيه ، زالت الحيرة واهتدى إلى ما يطلب ، وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض ، هذا هو المتبادر من الآية .

وقال أبومسلم : إن من عادة الغراب دفن الأشياء ، فجاء غراب فدفن شيئاً فتعلم منه ذلك . وهذا قريب أيضاً ، ولكن جمهور المفسرين قالوا : إن الله بعث غرابين لا واحداً ، وأنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها ، وما جاء هذا إلا من الروايات التي مصدرها الإسرائيليات [١] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

قال الألوسي ما ملخصه : ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ كلمة جذع وتحسر ، والويلة كالويل : الهلكة .كأن المتحسر ينادي هلاكه وموته ويطلب حضوره ، بعد تنزله منزلة مَنْ ينادي ، ولا يكون طلب الموت إلا ممن كان في حال أشد منه ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ ﴾ تعجب من عجزه عن كونه مثله ؛ لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه مع كونه أشرف منه ﴿ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ وكان ندمه على قتله لما كابد فيه من التحير في أمره ، وتلمذة الغراب ، فإنها إهانة ، ولذا لم يلهم من أول الأمر ما ألهم [٢] .

وعقب الله عز وجل هذه القصة قصة الصراع بين الخير والشر ، قصة الجريمة وما يعقبها من حسرة وندم في الدنيا ، وعذاب وعقاب وخسارة وسفال في

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (٦/٣٤٦) .
(٢) روح المعاني باختصار وتصرف (٦/١١٦ ، ١١٧) .

الآخرة ، بقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[المائدة : ٣٢] .

قال الشيخ أبو بكر الجزائري : يقول تعالى إنه من أجل قبح جريمة القتل وما يترتب عليها من مفاسد ومضار لا يقادر قدرها ، أوجبنا على بني إسرائيل لكثرة ما شاع بينهم من القتل وسفك الدماء ، فقد قتلوا الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس لأجل هذه الضراوة على القتل ، فقد قتلوا رسولين : زكريا ويحيى ، وهَمُّوا بقتل كل من المُرْسَلَين العظيمين عيسى ومحمد – صلى الله عليهما وسلم – من أجل ذلك شددنا عليهم في العقوبة ؛ إذ مَنْ قتل منهم نفساً بغير نفس ، أي : فوراً وقصاصاً ، أو قتلها بغير فساد قامت به في الأرض وهو حرب الله ورسوله والمؤمنين ، فكأنما قتل الناسَ جميعاً ، بمعنى : يعذب عذاب قتل الناس جميعاً يوم القيامة ، ومن أحياها بأن استوجبت القتل ، فعفا عنها وتركها لله إبقاءً عليها ، فكأنما أحيا الناس جميعاً ، كل هذا فعله الله تعالى تنفيراً لهم من القتل الذي أصروا عليه ، وترغيباً لهم في العفو الذي جافوه وبعدوا عنه.

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ يخبر تعالى عن حالهم مسلياً رسوله محمداً ﷺ (١) .

*** *** ***

(١) باختصار من أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (١/٥٢٤ ، ٥٢٥) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- روى ابن جرير عن الحسن – هو البصري – قال :كان الرجلان اللذان في القرآن اللذان قال الله: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَق ﴾ من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان من بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات.

قال العلامة أحمد شاكر : وهذا غريب جداً وفي إسناده نظر [1] . **وقد رده** [2] عقيبه بما ملخصه : أن الله تعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة ، والمخاطبون يعلمون أن القربان لم يكن مشروعاً إلا في بني آدم ، فلو كان المراد رجلين من بني إسرائيل لم يكن في قوله : ﴿ ابْنَيْ آدَمَ ﴾ فائدة جديدة .

ثم رده مرة أخرى (ص: ٢١٩-٢٢٠) بأنه خطأ لأن رسول الله ﷺ قد أخبر عن هذا القاتل الذي قتل أخاه أنه أول من سن القتل ، وقد كان لاشك القتل قبل إسرائيل، فكيف قبل ذريته ، فخطأ من القول أن يقال : أول من سن القتل رجل من بني إسرائيل . **ثم رده مرة ثالثة** (ص: ٢٢٤) عند قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية بأن الرجلين اللذين وصف الله صفتهما في هذه الآية لو كانا من بني إسرائيل لم يجهل القاتل دفن أخيه ومواراة سوءة أخيه ، ولكنهما كانا من ولد آدم لصلبه ؛ ولم يكن القاتل منهما أخاه علم سنة الله في عباده الموتى ، ولم يدر ما يصنع بأخيه المقتول اهـ.

قال أحمد شاكر : وهذا كله كلام قوي نفيس [3] .

٢- وفي هذه القصة تعظيم لحرمة الدماء ، وقد كانت في الشرائع السالفة عظيمة وازدادت في هذا الدين حرمة ، قال النبي ﷺ : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » فقيل له : يا رسول الله هذا القاتل فما بال

(١) ، (٣) عمدة التفسير (٤/١٢٨ ، ١٢٩) .　　(٢) أي : ابن جرير رحمه الله.

المقتول ؟ قال : **« إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »** [١] وقال ﷺ في أعظم اجتماع شهدته البشرية : **« إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا، في بلدكم هذا »**[٢] وقال ﷺ : **« من حمل علينا السلاح فليس منا »** [٣] وقال ﷺ : **« سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »**[٤] فالواجب على من يرجو الله واليوم الآخر ، ألا يستبيح دم أخيه المسلم لأدنى شبهة ، وأن يفر بدينه من الفتن إذا خشي أن يلوث نفسه بدم حرام.

وسد النبي ﷺ الذرائع إلى هذا الذنب العظيم ، فنهى أن يشير المسلم إلى أخيه المسلم بالسلاح ، فقال ﷺ : **« لا يشيرن أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار »**[٥] .

ورأى النبي ﷺ رجلاً مر في المسجد بِأَسْهُمٍ قد بدا نصولها ، فأمره أن يأخذ بنصولها حتى لا يخدش مسلماً [٦] .

والاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم من أعظم البغي ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٤٢] والبغي مصرعة يصرع أهله في الدنيا والآخرة ، لذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[يونس :٢٣] وقال النبي ﷺ: **« ما من ذنب أحرى أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا من**

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٤٧) .

(٢) رواه مسلم (٩/١٨٢-١٨٤) الحج ، وأبوداود (٥/٣٧٥-٣٧٧) المناسك ، وابن ماجه (٢/١٠٢٥) المناسك .

(٣) رواه البخاري (١٣/٢٣) الفتن .

(٤) رواه البخاري (١/١١٠) الإيمان ، ومسلم (٢/٥٤) الإيمان .

(٥) رواه البخاري (١٣/٢٦) الفتن، ومسلم (١٦/١٧٠) البر والصلة، ورواه أيضاً بلفظ : **« من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه »** (١٦/١٦٩)، والترمذي (٩/٧) أبواب الفتن .

(٦) الحديث رواه البخاري عن جابر بن عبدالله قال : مر رجل بسهام في المسجد فقال له رسول الله ﷺ : **« أمسك بنصالها »** قال : نعم. (١٣/٢٦) الفتن ؛ ومسلم (٦/١٦٨) البر والصلة.

البغي ، وما من حسنة أحرى أن يعجل لصاحبها الثواب من صلة الرحم »[1]
وقال ابن مسعود ﷺ: لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكًا .
وقال بعضهم :

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ البَـغْيَ يَصْـرَعُ أَهْـلَـهُ
وأَنَّ عَلَـى البَـاغِـي تَـدُورُ الدَّوائـرُ

فنسأل الله تعالى أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يمن علينا بأسباب رحمته وموجبات مغفرته ، إنه قريبٌ مجيبٌ .

٣- في هذه القصة كذلك : بيان ثمرة التقوى ، وكيف أنها سبب لقبول الأعمال التي بها نجاة العبد في الدنيا والآخرة ؛ فإن المعول على القبول ، وشرط القبول تقوى الله عز وجل ، قال بعض السلف : لو أعلم أن الله عز وجل يقبل مني سجدة بالليل وسجدة بالنهار لطرت شوقاً إلى الموتِ ، إن الله عز وجل يقول : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾.

٤- من الدروس المستفادة من هذه القصة كذلك عظم الابتداع في دين الله عز وجل وأن من ابتدع بدعة ضلالة تحمل وزرها ووزر من عمل بها ، كما أن من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، قال النبي ﷺ : **« لاَ تُقْتَل نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه كان أول من سَنَّ القتل»** [2] والويل لأئمة الشر والفساد والابتداع في دين رب العباد، فإنهم يحملون أوزارهم وأوزار من يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون .

---

(١) رواه الترمذي (٩/٣١٦) أبواب: صفة القيامة ، وابن ماجه (٤٢١١) وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وهو في الصحيحة رقم ٩١٧ .
(٢) تقدم تخريجه ص (٣٤٤) .

٥- في قول المؤمن من ولدي آدم ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] أدب حسن للمؤمن عند الفتنة ، وقد أرشد إلى ذلك رسول الله ﷺ وقد سأله سعد بن أبي وقاص قال : يا رسول الله إن دخل عَلَيَّ بيتي وبسط يده إليّ ليقتلني ! فقال رسول الله ﷺ : « كن كخير ابني آدم » وتلا هذه الآية [1] .

ويجوز للمسلم أن يدفع ما يقصد ماله أو أهله أو دمه بما يندفع به ، ومهما دفع بالأيسر لا ينتقل إلى ما هو أشد ، وإن كان لا يندفع إلا بالقتل جاز له قتله ، وهو ما يسمى في كتب الفقه بدفع الصائل ، والصائل هو المعتدي .

٦- في القصة كذلك بيان عقوبات المعاصي وكيف أنها يولد بعضها بعضاً ، فتهاون ابن آدم في حدود الله عز وجل وما اقترفه من معاصٍ كان سبباً في عدم قبول قربانه ، ثم كان عدم قبول قربانه وقبول قربان أخيه سبباً في حسد أخيه والإقدام على سفك دمه. وفيها كذلك خطر الحسد والبغضاء ، وقد حذرنا النبي ﷺ منهما فقال : « دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، وهي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين »[2] وقد أمرنا الله عز وجل بالاستعاذة به من شره ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[سورة الفلق].

(١) رواه أبوداود (٤٢٣٧) الفتن ، والترمذي (٤٨/٩، ٤٩) الفتن ، وأحمد (١٨٥/١) وقال الترمذي : وهذا حديث حسن . وصححه الألباني في الإرواء (١٠٤/٨) وصحيح الترمذي ١٧٨٥ .

(٢) رواه الترمذي (٣١٤/٩ ، ٣١٥) صفة القيامة وقال أبوعيسى : هذا حديث قد اختلفوا في روايته عن يحيى بن أبي كثير فروى بعضهم عن يحيى بن أبي كثير عن يعيش بن الوليد عن مولى الزبير ولم يذكروا فيه عن الزبير ، وقال عبدالقادر الأرناؤوط: للحديث شاهد لأوله عند الترمذي من حديث أبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهما وحسنه الألباني .

٤- قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا * وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا * وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا

قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا * وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا * وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾[الكهف : ٩-٢٦]

بين يدي القصة :

هذه القصة التي سجلها الله عز وجل لنا في محكم كتابه ، تتلقاها الأجيال المؤمنة التي آمنت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً ، ويظهر فيها بجلاء ما تفعله عقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين ، من التعالي على الشهوات والإخلاص لرب الأرض والسماوات ، فهي قصة فتية في رَيعَانِ الشباب وغلبة الشهوة ، ومع ذلك أعرضوا عن زيف الدنيا الزائل لما كثرت المعاصي ودبَّ الشرك ، حتى انتصر له أهله بإجبار النَّاس عَلَيْهِ ، كما أشار إليه قولهم : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ إنهم لا يعرفون عندما يعتزلون قومهم أين يذهبون ، وكيف يعيشون ، وأيُّ بقعة يسكنون ، فإنهم لا يعرفون بلداً مُوَحِّدًا يذهبون إليه ، ولكن الإيمان الذي مَلأَ قلوبهم والهدى الذي أكرمهم الله به وزادهم هدى يجعلهم يثقون بأن الله عز وجل سوف يجعل لهم مخرجاً ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق :٤] فلم يتزودوا غير تقوى الله عز وجل ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾[البقرة: ١٩٧] واعتزلوا الشرك والمشركين وكلهم ثقة في الله عز وجل ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ كم يمكثون في الكهف ؟ يومًا أو

بعض يوم ، والقضية لا تزال قائمة ، وسوف يضطرون إلى الرجوع إلى قومهم مرة ثانية ، إنهم لا يفكرون بالأسباب الأرضية ولكن ثقتهم وتوكلهم على رب البرية ، إنهم لا يرون المخرج ولكنهم يؤمنون بأن الله عز وجل سوف يجعل لهم مخرجًا ، كيف يكون المخرج ؟ لا يعلمون كيف يكون ، ولكن الله عز وجل قادرٌ على أن يجعل لهم مخرجاً ، وقد وعد الله عز وجل أهل التقوى بالمخرج ، ما خطر ببالهم أن الله عز وجل سوف ينقلهم من زمان إلى زمان ، ومن عصر إلى عصر ، من عصر انتشر فيه الشرك وانتصر له المشركون إلى عصر أهله مسلمون ، ويشير إليه قولهم : ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ إنه الإيمان بالله الذي جعلهم يحسنون توكلهم على الله وثقتهم به ، فرفع شأنهم وأنجاهم من الشرك والمشركين ، وجعلهم قصة من قصص الإيمان تتلى على مر الأزمان ، فما أحوج الشباب المسلم وسائر المسلمين إلى دراسة قصص القرآن .

ولنشرع في شرح الآيات الكريمات فإنها أقوى تأثيراً وأبلغ بياناً وتعبيراً .

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله : هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار ، ثم بسطها بعد ذلك فقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يعني : يا محمد ﴿ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب ، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى وأنه على ما يشاء قادر ، ولا يعجزه شيء

أعجب من أخبار أصحاب الكهف كما قال ابن جريج عن مجاهد ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول : قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك [1] .

وقال الشنقيطي : ﴿ أَمْ ﴾ في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة عن التحقيق ، ومعناها عند الجمهور (بل والهمزة) وعند بعض العلماء بمعنى (بل) فقط ، فعلى القول الأول فالمعنى : بل أحسبت . وعلى الثاني فالمعنى : بل حسبت .

وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة أن الله يقول لنبيه ﷺ : إن قصة أصحاب الكهف ، وإن استعظمها الناس وعجبوا منها ، فليست شيئاً عجيباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا ؛ فإن خلقنا للسماوات والأرض ، وجعلنا ما على الأرض زينةً لها ، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيداً جرزاً - أعظم وأعجب مما فعلنا بأصحاب الكهف ، ومن كوننا أنمناهم هذا الزمن الطويل ثم بعثناهم .
والكهف : الثقب المتسع في الجبل ، فإن لم يك واسعاً فهو غار .

واختلف العلماء في المراد بالرقيم في هذه الآية على أقوال كثيرة ، قيل : الرقيم اسم كلبهم ، وهو اعتقاد أمية بن الصلت حيث يقول :

وَلَيْسَ بِهَا إلا الرَّقِيمُ مُجَاوِرًا ... وَصَيْدُهُمُ وَالقَوْمُ فِي الكَهْفِ هُمَّدُ

وعن الضحاك أن الرقيم بلدة بالروم ، وقيل : اسم الجبل الذي فيه الكهف . وقيل : اسم للوادي الذي فيه الكهف ، والأقوال فيه كثيرة ، وعن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما الرقيم ؛ أكتاب أم بنيان ؟

وأظهر الأقوال عندي بحسب اللغة العربية وبعض آيات القرآن أن الرقيم معناه : المرقوم ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، من (رقمت الكتاب) إذا كتبته ، ومنه قوله تعالى :

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٧٢، ٧٣) .

﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ الآية [المطففين : ٢٠] سواء قلنا إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به ، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم ، أو صخرة نقشت فيها أسماؤهم ، والعلم عند الله تعالى .

والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين ، أحدهما معطوف على الآخر ، خلافاً لمن قال إن أصحاب الكهف طائفة ، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى .

واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماءهم وفي أي محلٍّ من الأرض كانوا كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن ، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها [(١)] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] .

قال الرازي ما ملخصه : التقدير : اذكر إذ أوى . ومعنى أوى الفتية في الكهف : صاروا إليه وجعلوه مأواهم . قال : فقالوا ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي : رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك ، وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء . وقوله : ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ يدل على عظمة تلك الرحمة ، وهي التي تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا ﴾ أي : أصلح ، من قولك (هيأت الأمر فتهيأ) ﴿ مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ الرشد والرشاد نقيض الضلال ، وفي تفسير اللفظ وجهان : الأول التقدير : وهيِّئ لنا أمرنا ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين . الثاني : اجعل أمرنا رشداً كله. كقولك : رأيت منك رشداً [(٢)] .

---

(١) باختصار من أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي (٤/١٨-٢٠) السلفيون يتحدثون .

(٢) التفسير الكبير (٢١/٧٠).

ثم قال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف : ١١].

قال القرطبي : عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم ، وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالعجز عن الإتيان بمثله ، قال الزجاج : منعناهم عن أن يسمعوا ، لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم أي : سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها .

وأما تخصيص الآذان ؛ فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم ، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يستحكم نوم إلا من تعطل السمع . ومن ذكر الأذن في النوم قوله ﷺ : « **ذَاكَ رجل بال الشيطان في أذنه** » (١) أخرجه في الصحيح ، أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويل النوم لا يقوم الليل.

و ﴿ عَدَدًا ﴾ نعت للسنين ، أي : معدودة ، والقصد به العبارة عن التكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عرف (٢) .

وقال الشنقيطي : وضربه – جل وعلا – في هذه الآية كناية عن كونه أنامهم ، ومفعول ﴿ضَرَبْنَا﴾ محذوف ، أي : ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع فلا يسمعون شيئاً يوقظهم ، والمعنى : أنامهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات .

وقال أبو حيان في البحر في قوله ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾ : عبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم ، ومنه ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ وضرب الجزية ، وضرب البعث ، وقال الفرزدق :

---

(١) رواه البخاري (٣/٣٤) التهجد ، ومسلم (٦/٦٣) صلاة المسافرين ، والنسائي (٣/٢٠٤) قيام الليل وقال الحافظ : هو كناية عن سد الشيطان أذن الذي ينام عن الصلاة حتى لا يسمع الذكر . وقيل : معناه أن الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل فحجب سمعه عن الذكر ، وقيل : هو كناية عن ازدراء الشيطان به .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/٣٩٨٠) باختصار.

ضَرَبَتْ عَلَيْكَ العنكبوتُ بِنَسْجِهَا وَقضى عَلَيْكَ بِـهِ الكِتَابُ المُنْـزَلُ (١)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف : ١٢]

قال القاسمي : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي : أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ أي : لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع ، وهو : أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم أشد إحصاءً ! أي : إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم ، فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدو ، فيتم لهم رشدهم في شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته (٢) .

وقال الشنقيطي : ولم يبين هنا شيئاً عن الحزبين المذكورين ، وأكثر المفسرين على أن أحد الحزبين هم أصحاب الكهف ، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية . وقيل : هما حزبان من أهل المدينة المذكورة ، كان منهم مؤمنون وكافرون . وقيل : هما حزبان من المؤمنين في زمن أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم . قاله الفراء وعن ابن عباس : الملوك الذين تداولوا ملك المدينة حزب ، وأصحاب الكهف حزب . إلى غير ذلك من الأقوال ، والذي يدل عليه القرآن أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف ، وخير ما يفسَّر به القرآن القرآن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ وكأن الذين قالوا : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول . ولقائل أن يقول : قوله عنهم ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ يدل على أنهم لم يحصوا مدة لبثهم ، والله تعالى أعلم .

وقد يجاب عن ذلك بأن رد العلم إلى الله لا ينافي العلم ، بدليل أن الله أعلم

(١) أضواء البيان (٢٢/٤) باختصار .

(٢) محاسن التأويل (١٠/٧).

نبيه بمدة لبثهم في قوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ الآية ، ثم أمره برد العلم إليه في قوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ الآية [١].

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣].

قال ابن كثير رحمه الله : من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية ، وهم الشباب ، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل ، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً.

﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ كما قال: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[محمد: ١٧] وقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤] وقال : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾[الفتح : ٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم فالله أعلم . والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية ، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم ، لمباينتهم لهم ، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح ، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب ، وأنه مقدم على دين النصرانية ، والله أعلم [٢].

---

(١) أضواء البيان (٤/٢٢ ، ٢٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٧٤) باختصار.

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : ١٤].

قال الألوسي : قويناهم بالصبر، فلم تزحزحها عواصف فراق الأوطان وترك الأهل والنعيم والإخوان ، ولم يزعجها الخوف من مَلِكهم الجبار ، ولم يَرُعْها كثرة الكفار. وأصل الربط : الشد المعروف، واستعماله فيما ذكر مجاز كما قال غير واحد ، وفي الأساس : ربطت الدابة ؛ شددتها برباط ، والمربط الحبل [١] .

وقال الشنقيطي : ويفهم من هذه الآية الكريمة : أن من كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعالى يقوي قلبه ويثبته على تحمل الشدائد والصبر الجميل ، وقد أشار تعالى إلى وقائع من هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله في أهل بدر مخاطباً نبيه ﷺ وأصحابه : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية [الأنفال : ١١-١٢] ، وكقوله في أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص:١٠] .

وأكثر المفسرين على أن قوله : ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ أي: بين يدى ملك بلادهم ، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان يزعمون أن اسمه دقيانوس .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : ١٤].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى ، قالوا إن ربهم هو رب السماوات والأرض ، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهاً وأنهم لو فعلوا ذلك قالوا شططاً، أي: قولاً ذا شطط. وأصل مادة

(١) روح المعاني (١٥/٢١٨) .

الشطط: مجاوزة الحد، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا تشطط ﴾[ص : ٢٢] وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع خالق السماوات والأرض معبوداً آخر فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في غاية الجور والتعدي؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود، لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شئونه [1] .

قوله تعالى : ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف : ١٥].

قال القاسمي : ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد أنهم عبدوها ، وفي الإشارة تحقير لهم ﴿ لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم ﴾ أي : على عبادتهم أو إلهيتهم أو تأثيرهم ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي : حجة بينة وسلطان ظاهر؛ فإن الدين لا يؤخذ إلا به. **قال القاشاني:** دليل على فساد التقليد، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله وتأثيره ووجوده محال كما قال: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾[النجم : ٢٣] أي : أسماء بلا مسميات لكونها ليست بشيء ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي: لا مساوي له في الظلم والكفر. إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان، فهم ظالمون في حق الله، لافترائهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها [2].

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف : ١٦].

قال الرازي : اعلم أن المراد أنه قال بعضهم لبعض ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ واعتزلتم الشيء الذي يعبدونه إلا الله ، فإنكم لم تعتزلوا عبادة الله ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ قال الفراء : هو جواب (إذ) كما تقول : إذ فعلت كذا فافعل كذا .

---

(١) أضواء البيان (٤/٢٩ ، ٣٠) .

(٢) محاسن التأويل (١١/١٣) .

ومعناه : اذهبوا إليه واجعلوه مأواكم ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي : يبسطها عليكم ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية (مَرْفِقًا) والباقون (مِرْفَقًا) قال الفراء : وهما لغتان ، واشتقاقهما من الارتفاق [١] .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧].

قال الزمخشري ما ملخصه: ﴿ تَزَاوَرُ ﴾ أي : تمايل ، أصله (تتزاور) فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ جهة اليمين ، وحقيقتها الجهة المسماة باليمين ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ تقطعهم ، لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ وهم في متسع من الكهف. والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم، وقيل : في منفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آياته ، يعني أن ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم ، فلطف بهم وأعانهم ، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة ، وأن من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة ، ومن تعرض للخذلان فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله [٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف : ١٨].

---

(١) التفسير الكبير (٢١/٨٤).
(٢) باختصار من الكشاف (٢/٧٠٧ ، ٧٠٨).

قال ابن كثير ما ملخصه : ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى ، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد ، كما قال الشاعر : ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم

وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين . قال ابن عباس : لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض . وقوله: ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: الوصيد : الفناء . وقال ابن عباس : بالباب . وقيل : بالصعيد ، والصحيح أنه بالفناء وهو الباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي : مطبقة مغلقة.

قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب ، وهذا من سجيته وطبيعته ، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب ؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، كما ورد في الصحيح [1] ولا صورة ولا جنب ولا كافر كما ورد في الحديث الحسن [2] . وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر

---

(١) رواه البخاري (١٠/٤٠٥) اللباس .

(٢) رواه أبوداود (٢٢٤) الطهارة وليس فيه (ولا كافر) والنسائي (١/١٤١) الطهارة ، قال الأرناؤوط : وفيه نجى الحضرمي لم يوثقه غير ابن حبان وضعفه الألباني . وقال الحافظ : يحتمل كما قال الخطابي أن المراد بالجنب من يتهاون بالاغتسال ويتخذ تركه عادة لا من يؤخره ليفعله قال ويقويه أن المراد بالكلب غير ما أذن في اتخاذه وبالصورة ما فيه روح وقال النووي : وفي الكلب نظر ويحتمل أن يكون المراد بالجنب في حديث علي من لم يرتفع حدثه كله ولا بعضه وإذا توضأ ارتفع بعض حدثه على الصحيح . عون المعبود (١/٣٧٨) .

وخبر وشأن . وقوله تعالى : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي : أنه تعالى ألقى عليهم المهابة ، بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم ؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحدٌ ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة، والحجة البالغة ، والرحمة الواسعة [1] .

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ .

قال الشوكاني ما ملخصه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ الإشارة إلى المذكورة قبله ، أي : وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم ، وفيه تذكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعاً . ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال : ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي : ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث ، لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال ، وظهور القدرة الباهرة ، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها ، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار . وجملة ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل ، أي : كم مدة لبثكم في النوم ؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهدونه في العادة ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال المفسرون : إنهم دخلوا الكهف غدوة ، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا ﴿ يوما ﴾ فلما رأوا الشمس قالوا ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وكان قد بقيت بقية من النهار ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي: قال البعض الآخر هذا القول إما على طريق الاستدلال ، أو كان ذلك إلهاماً لهم

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٧٦) باختصار .

من الله سبحانه ، أي : أنكم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أعرضوا عن التحاور في مدة اللبث، وأخذوا في شيء آخر . والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي : ينظر أي أهلها أطيب طعاماً وأحل مكسباً أو أرخص أسعاراً ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي : يدقق النظر حتى لا يُعْـرَف ، أو لا يغبن ، والأول أولى ، ويؤيده ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ ثم عللوا ذلك بقولهم[1] ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف :٢٢].

قال الرازي : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي : يَطَّلِعوا ويشرفوا على مكانكم أو على أنفسكم ، من قولهم (ظهرت على فلان) إذا علوته (وظهرتُ على السطح) إذا صرت فوقه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] أي : عالين. وكذلك قوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة : ٣٣] أي: ليعليه. وقوله : ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم ، والرجم بمعنى القتل كثير في التنزيل كقوله: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾[هود : ٩١] وقوله : ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ [الدخان : ٢٠] وأصله الرمي ، **قال الزجاج :** أي يقتلوكم بالرجم ، والرجم أخبث أنواع القتل ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ أي : يردوكم إلى دينهم ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ أي : إذا رجعتم إلى دينهم لن تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة .

قال الزجاج : قوله ﴿ إِذًا أَبَدًا ﴾ يدل على الشرط ، أي : ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم أبداً . **قال القاضي :** ما على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين، فأحدهما فيه هلاك النفس ، وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل ، والآخر هلاك الدين بأن يردوا إلى الكفر[2] .

(١) فتح القدير باختصار (٣/٢٧٥ ، ٢٧٦).
(٢) التفسير الكبير (٢١/٨٨).

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١].

قال الزمخشري : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ وهو البعث ؛ لأن حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث . و﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ ﴾ متعلق بـ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ أي : أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث ، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد ، وبعضهم يقول : تبعث الأجساد مع الأرواح ليرتفع الخلاف وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت [1] .

وقال ابن كثير : ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أي : سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين : أحدهما : أنهم المسلمون منهم . والثاني : أهل الشرك منهم . فالله أعلم ، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ، ولكن هل هم محمودون أم لا ، فيه نظر ؛ لأن النبي ﷺ قال : « **لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد** » يحذر ما فعلوا [2] . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها [3] .

---

(١) الكشاف (٧١١/٢).

(٢) رواه البخاري (٥٣٢/١) الصلاة، ومسلم (١٣/١٢/٥) المساجد وقوله: (يحذر ما فعلوا) مدرج في الخبر من قول عائشة رضي الله عنها.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧٨/٣) وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بحث في مسألة إقامة المساجد على القبور .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٢].

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف ، فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أي : قول بلا علم ، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد .

ثم حكى الثالث وسكت عليه وأقره بقوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم ﴾ فدل على صحته وأنه هو الواقع في نفس الأمر . وقوله : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا وقفنا .

وقوله تعالى : ﴿ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ أي : من الناس . قال قتادة : قال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل كانوا سبعة . وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال : أنا من القليل ، كانوا سبعة . فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة ، وهو موافق لما قدمناه .

قوله : ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي : سهلاً هيناً ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿ وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي : فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب ، أي : من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لاشك فيه ولا مرية فيه ، الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال [1].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٧٨) باختصار .

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾[الكهف : ٢٣،٢٤].

قال ابن جرير : وهذا تأديب من الله عز وجل لنبيه ﷺ عهد إليه ألا يجزم على ما يحدث من الأمور أنه كائن لا محالة إلا أن يصله بمشيئة الله ؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله . وإنما قيل له ذلك ـ فيما بلغنا ـ من أجل أنه وعد سائليه عن المسائل الثلاث اللواتي قد ذكرناها فيما مضى ، اللواتي إحداهن المسألة عن أمر الفتية من أصحاب الكهف أن يجيبهم عنهن غدا يومهم ولم يستثن ، فاحتبس الوحي عنه فيما قيل من أجل ذلك خمس عشرة ، حتى حزنه إبطاؤه ، ثم أنزل الله عليه الجواب عنهنَّ ، وعرف نبيه سبب احتباس الوحي عنه، وعلمه ما الذي ينبغي أن يستعمل في عداته [١] .

وقوله : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .

قال الرازي : قوله : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ ﴾ غير مختص بوقت معين ، بل هو يتناول كل الأوقات، فوجب أن يجب عليه هذا الذكر في أي وقت حصل هذا التذكر، وكل من قال وجب هذا الذكر قال إنه إنما وجب لدفع الحنث ، وذلك يفيد المطلوب، واعلم ان استدلال ابن عباس رضي الله عنهما ظاهر في أن الاستثناء لا يجب أن يكون متصلاً ، أما الفقهاء فقالوا : إنا لو جوزنا ذلك لزم ألا يستقر شيءٌ من العقود والأيمان[٢]. يحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن

(١) جامع البيان (١٥١/١٥/٨) .

(٢) قال الشنقيطي : والتحقيق الذي لا شك فيه أن الاستثناء لا يصح إلا مقروناً بالمستثنى منه ، وأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين ، ولو كان الاستثناء المتأخر يصح لما علم في الدنيا أنه تقرر عقد ولا يمين ولا غير ذلك ؛ لاحتمال طرو الاستثناء بعد ذلك، وهذا في غاية البطلان كما ترى . ونقل رحمه الله عن ابن العربي المالكي أنه قال: سمعت

عباس في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه ، فقال أبوحنيفة رحمه الله: هذا يرجع عليك ؛ فإنك تأخذ البيعة بالأيمان ، أتفرض أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن المنصور كلامه ورضي به .

واعلم أن حاصل هذا الكلام يرجع إلى تخصيص النص بالقياس ، وفيه ما فيه. وأيضاً فلو قال (إن شاء الله) على سبيل الخفية بلسانه بحيث لا يسمعه أحدٌ فهو معتبر ودافع للحنث بالإجماع ، مع أن المحظور الذي ذكرتم حاصل فيه، فثبت أن الذي عولوا عليه ليس بقوي ، والأولى أن يحتجوا في وجوب كون الاستثناء متصلاً بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد، قال تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة :١] وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ [الإسراء : ٣٤] فالآتي بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه لأجل هذه الآيات [١] .

وقال ابن كثير : وقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي : إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك [٢] .

وقال ابن جرير : وإذ نسي الإنسان أن يقول (إن شاء الله) قال : فتوبته من ذلك أو كفارة ذلك أن يقول : ﴿ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ

فتاة ببغداد تقول لجارتها : لو كان مذهب ابن عباس صحيحاً في الاستثناء ما قال الله تعالى لأيوب : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص : ٤٤] بل يقول : استثن بـ (إن شاء الله) . أضواء البيان (٧٩/٤) باختصار .

(١) التفسير الكبير (٩٤/٢١) باختصار.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧٨/٣).
(٣) جامع البيان (١٥٢/١٥/٨) .

أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٥ ، ٢٦].

قال الألوسي : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ أحياء مضروباً على آذانهم ﴿ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ وهي جملة مستأنفة مبينة ـ كما قال مجاهد ـ لما أجمل في قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ واختار ذلك غير واحد ، قال في الكشاف : فعلى هذا قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ تقرير لكون المدة المضروب فيها على آذانهم هي هذه المدة ، كأنه قيل : قل الله أعلم بما لبثوا ، وقد أعلم ، فهو الحق الصحيح الذي لا يحوم حوله شك قط . وفائدة تأخير البيان التنبيه على أنهم تنازعوا في ذلك أيضاً لذكره عقيب اختلافهم في عدة أشخاصهم ، وليكون التذييل بقول (الله أعلم) محاكياً للتذييل بقوله سبحانه : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وللدلالة على أنه من الغيب الذي أخبر به عليه الصلاة والسلام ليكون معجزاً له. ولو قيل : (فضربنا على آذانهم سنين عدداً) وأوتي به مبيناً أولاً لم يكن فيه هذه الدلالة ، فهذه عدة فوائد ، والأصل الأخيرة انتهى [1]

وقال القاسمي : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ أي : بمقدار لبثهم ، فلا تقفوا ما ليس لكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه كما قال : ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها ، أي : أنه هو وحده العالم به ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أي : ما أبصره لكل موجود وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه شيء ، ولا يحجب بصره وسمعه شيء [2].

---

(١) روح المعاني (١٥/٢٥١ ، ٢٥٢).
(٢) محاسن التأويل (٧/٣٢) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[الكهف : ١٠]: هذه الآية صريحة في الفرار بالدين ، وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة . وقد خرج النبي ﷺ فاراً بدينه ، وكذلك أصحابه ، وهجروا أوطانهم ، وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين .

وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك إن كنت بين أظهرهم، وقال ابن المبارك في تفسير العُزلة: أن تكون مع القوم ، إذا خاضوا في ذكر الله فخض معهم ، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت . وقد اعتزل رجالٌ من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم .

وذكر ابن المبارك قال : حدثنا وهيب بن الورد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ، وقد حدثتني نفسي ألا أخالطهم فقال: لا تفعل! إنه لابد لك من الناس، ولابد لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمَّ سَمِيعًا، أعمى بَصِيرًا، سكوتاً نطوقاً [١] اهـ.

ولا شك أن الناس يختلفون في مشروعية الاعتزال ، فمن كان قوي الإيمان يؤثر في غيره دون أن يتأثر بهم كثير تأثير ، فالمستحب في حقه أن يخالط الناس ، وأن يؤثر فيهم بالخير ما استطاع . ومن كان ضعيف الإيمان ولا يؤثر فيهم، ويخشى عليه الفتنة بهم وضياع دينه وإيمانه، فالمستحب في حقه اعتزالهم.

أما اعتزال أهل الشر والفساد إذا عصوا الله عز وجل أو خاضوا فيما يغضب الله ، فواجب على كل مسلم يرجو الله واليوم الآخر، وإذا كان الناس يطيعون

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن (٥/٣٩٧٧-٣٩٧٩)

ويعصون ، فعلى المسلم أن يخالطهم في الطاعة ، كصلاة الجماعة والجمعة، ودروس العلم ، وتشييع الجنائز ، وعيادة المرضى ، وأن يعتزلهم إذا عصوا الله عز وجل وكذلك في المكروهات وفضول المباحات، والله أعلم .

٢- اختلف العلماء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ فزعم بعض المفسرين أنه لم يكن كلباً حقيقيًا ، وهذا خلاف ظاهر القرآن ، وأشار الشنقيطي رحمه الله إلى أن قوله : ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ قرينة على أنه كلب حقيقي .

وقال القرطبي في مشروعية اقتناء الكلب :

ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : **« من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان »** [1] وروي في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : **« من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط »** [2] قال الزهري : وذكر لابن عمر قول أبي هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة كان صاحب زرع [3] .

فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية ، وجعل النقص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة ، إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لنجاسته على ما يراه الشافعي ، أو لاقتحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعة فيه ، والله أعلم .

وقال في إحدى الروايتين **« قيراطان »** وفي الأخرى **« قيراط »** وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب إحداهما أشد أذى من الآخر ، كالأسود الذي

---

(١) رواه البخاري (٩/٥٢٣) الصيد ، ومسلم (١٠/٢٣٨) المساقاة ، ومالك في الموطأ (٢/٩٦٩) الاستئذان ، والنسائي (٧/١٨٧) الصيد .

(٢) رواه البخاري (٥/٨) الحرث والمزارعة ، ومسلم (١٠/٢٤٠) المساقاة ، والنسائي (٧/١٨٩) الصيد ، وأبو داود (٢٨٢٧) الصيد .

(٣) وقوله : «فذكر لابن عمر...» في رواية مسلم .

أمر عليه السلام بقتله وقال: « **عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان** »[(١)] ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط .

وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معها لا الذي يحفظها في الدار من السراق ، وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق ، وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع[(٢)] .

٣- وقال القرطبي أيضا : قال ابن عطية : وحدثني أبي ﷺ قال : سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحبَّ أهلَ الخير نال من بركتهم ، كلبٌ أحب أهل فضل وصَحِبَهُم فذكره الله في محكم تنزيله[(٣)] .

٤- قال الشنقيطي في قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف : ١٩] :

في قوله : ﴿ أَزْكَىٰ ﴾ قولان للعلماء :

أحدهما : أن المراد بكونه ﴿ أَزْكَىٰ ﴾ أطيب لكونه حلالاً ، ليس مما فيه حرام ولا شبهة . **والثاني** : أن المراد بكونه أزكى أنه أكثر ، كقولهم : (زَكَا الزَّرْعُ) إذا كثر، وكقول الشاعر :

قَبَائِلُنَا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلاثَةٌ وَلَلسَّبعِ أَزْكى مِن ثَلاثٍ وَأَطْيَبُ

والقول الأول هو الذي يدل له القرآن ، لأن أكل الحلال والعمل الصالح أمر الله به المؤمنين كما أمر المرسلين قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ الآية [المؤمنون :٥١] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا

(١) رواه مسلم (٢٣٧/١٠) المساقاة ، وأبو داود (٢٨٢٩) الصيد .
(٢) الجامع لأحكام القرآن باختصار (٣٩٨٧/٥ ، ٣٩٨٨) .
(٣) السابق (٣٩٨٨/٥) .

رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [البقرة : ١٧٢] ويكثر في القرآن إطلاق مادة الزكاة على الطهارة كقوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ [الأعلى :١٤] وقوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ [الشمس :٩] وقوله : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾ [النور : ٢١] وقوله : ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ [الكهف : ٨١] وقوله : ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴾ الآية [الكهف : ٧٤] إلى غير ذلك من الآيات ، فالزكاة في هذه الآيات ونحوها يراد الطهارة من أدناس الذنوب والمعاصي ، فاللائق بحال هؤلاء الفتية الأخيار المتقين أن يكون مطلبهم في مأكلهم الحلّية والطهارة لا الكثرة . وقد قال بعض العلماء: إن عهدهم بالمدينة فيها مؤمنون يخفون إيمانهم وكافرون وأنهم يريدون الشراء من طعام المؤمنين دون الكافرين وأن ذلك هو مرادهم بالزكاة في قوله : ﴿ أزكى طعاماً ﴾ وقيل: كان فيها أهل كتاب ومجوس . والعلم عند الله تعالى [١] .

٥- وقال رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة ، لأن قوله في أصحاب الكهف ﴿ إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ ظاهر في إكراههم على ذلك وعدم طواعيتهم ومع هذا قال عنهم : ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ فدل ذلك على أن ذلك الإكراه ليس بعذر ، ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن شهاب [٢] في الذي دخل النار في ذباب قرّبه مع الإكراه بالخوف من القتل ؛ لأن صاحبه الذي امتنع أن يقرب ولو ذباباً قتلوه ، ويشهد له أيضاً دليل الخطاب ، أي : مفهوم المخالفة في قوله ﷺ: « **إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** » [٣]

---

(١) أضواء البيان (٤/٤٤ ، ٤٥) .

(٢) رواه أحمد في الزهد (١٥ ، ١٦) وأبونعيم في الحلية (١/٢٠٣) موقوفاً على سلمان بسند صحيح ولا يصح مرفوعاً .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) الطلاق ، والحاكم (٢/١٩٨) الطلاق وقال : صحيح على=

فإنه يفهم من قوله : « تجاوز لي عن أمتي » أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز لهم عن ذلك ، أما هذه الأمة فقد صرح الله تعالى بعذرهم بالإكراه في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل : ١٠٦] والعلم عند الله تعالى(١) .

٦- شاع استدلال بعض من بُخِسَ حظه في العلم والهداية بقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] على جواز بناء المساجد على قبور الصالحين ، وهذا من الجهل بمكان ، فإنها حكاية عن مقالة أهل الجاه والسلطان ، والغالب عليهم الجهل ، وهم يريدون أن يخلدوا ذكرى هؤلاء الفتية الذين ثبتت لهم هذه الكرامة ، فقولهم هذا ليس حجة شرعية يجب المصير إليها بتسليم أن شرع مَنْ قبلنا شرع لنا ، وهي محل خلاف ، مع أن الحكم صريح ، والخبر صحيح في شرعنا بحرمة هذا الفعل ، ولعن فاعله ، وهي أشد صيغ التحريم ، قال النبي ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٢) ولما أخبر ﷺ عن كنيسة الحبشة وما فيها من التصاوير قال : « أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره ثم صوروا تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة » (٣) ولو لم يرد في ذلك أخبار صحيحة صريحة لكان القول بالحرمة كذلك هو المتعين ؛ لأن ذلك من أعظم ذرائع الشرك ، فكم من دعاء وذبح ونذر وتوكل وخوف ورجاء وغير ذلك من العبادات تصرف لغير الله عز وجل ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

ورد العلامة الألباني هذه الشبهة في كتابه البديع (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد) من ثلاثة وجوه :

= شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الإرواء رقم (٨٢) وحسنه النووي في الأربعين .

(١) أضواء البيان (٧٣/٤ ، ٧٤) . (٢) تقدم تخريجه ص (٣٧١).

(٣) رواه البخاري (٦٢٤/١) الصلاة ، ومسلم (١١/٥) المساجد ، والنسائي (٤١/٢، ٤٢) المساجد .

الأول : أن الصحيح المتقرر في علم الأصول أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة ، منها قوله ﷺ : «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي**» فذكرها، وآخرها «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**» فإذا تبين هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية لو كانت تدل على أن جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا .

الثاني : هب أن الصواب قول مَنْ قال « شريعة من قبلنا شريعة لنا » فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه ، وهذا الشرط معدوم هنا ، لأن الأحاديث تواترت في النهي عن البناء المذكور ، كما سبق ، فذلك دليل على أن ما في الآية ليس شريعة لنا .

الثالث : لا نسلم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا ، غاية ما فيها أن جماعة من الناس قالوا : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ فليس فيها التصريح بأنهم كانوا مؤمنين ، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين متمسكين بشريعة نبي مرسل ، بل الظاهر خلاف ذلك ، قال الحافظ ابن رجب في « فتح الباري في شرح البخاري » (٦٥/٢٨٠) من « الكواكب الدراري » في شرح حديث « **لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » : وقد دل القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث ، وهو قول الله عز وجل في قصة أصحاب الكهف : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور ، وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى ، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى [1] .

*** *** ***

(١) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد باختصار (٤٨-٥٠) ط . جمعية إحياء التراث الإسلامي ، وحديث «**لعن الله اليهود...**» تقدم تخريجه ص (٣٧١) .

٥- قصة صاحب الجنتين

قال الله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

بين يدي القصة :

هذه القصة الثانية في هذه السورة المباركة سورة الكهف ، الحافلة بالقصص القرآني الزاخر بالعبر والعظات والحكم والآيات ، وهي قصة واقعة حقيقية خلافاً لمن زعم من المفسرين من أنها مَثَل ضربه الله عز وجل لورودها بصفة المثل في قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ... ﴾ ولكنها والله أعلم لقوة دلالتها على ما سيقت من أجله استحقت اسم المثل ، كما قال الله عز وجل : ﴿ أَمْ

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] فلما كان شأنهم غريباً ودلالة ما حدث لهم من تأخير النصر وما أصابهم من البأساء والضراء ، عبر الله تعالى عن خبرهم بالمثل فقال : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ .

وسبق هذه القصة من الآيات التي تعظم شأن الإيمان ، وترغب في صحبة المؤمنين وتزهد في أهل الدنيا الذين اغتروا بزينتها وفتنوا بزخارفها ، فقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

ثم بين الله عز وجل عاقبة الكفر وعاقبة الإيمان ، ثم قصَّ القِصةَ التي نحن بصددها ، وكيف أن أهل الدنيا الذين يغترون بزينتها ولا يؤمنون بالآخرة عرضة لخسارة الدنيا والآخرة ، وأنهم يعاقبون بالحسرة والندم والحرمان في الدنيا ، ثم ينقلبون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى .

ثم عقب الله عز وجل هذه القصة بضرب المثل للحياة الدنيا ، وبيان أن الباقيات الصالحات خيرٌ ثواباً وخيرٌ أملاً . فقال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٥ ، ٤٦]

فتمت بذلك الموعظة ، وتنوع أسلوب الخطاب ، وجمع بين الترغيب والترهيب ، والقصة ، وضرب المثل ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ولنشرع في تفسير الآيات الكريمات :

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف : ٣٢ ، ٣٣]

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا عليهم بأموالهم وإحسانهم ، فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين ، جعل الله لأحدهما جنتين – أي : بستانين – من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مثمرٌ مقبلٌ في غاية الجودة ، ولهذا قال : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أي : أخرجت ثمرها ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أي : ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾ أي : والأنهار متفرقة فيهما هنا وهناك [١] .

وقال الشوكاني : قوله ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسَة الفقراء ، فهو على هذا متصل بقوله ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ وقد اختلف في الرجلين ؛ هل هما مقدران أو محققان ؟ فقال بالأول بعض المفسرين ، وقال بالآخر بعض آخر ، واختلفوا في تعيينهما ، فقيل : هما أخوان من بني إسرائيل ، وقيل : هما أخوان مخزوميان من أهل مكة ، أحدهما مؤمن والآخر كافر ، وقيل : هما المذكوران في سورة الصافات في قوله : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [الصافات : ٥١] [٢]

وقال الرازي ما ملخصه : قوله تعالى ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ فاعلم أن الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات :

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٨٣) .

(٢) فتح القدير (٣/٢٨٥) .

الصفة الأولى : كونها جنة ، وسمي البستان جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الأشجار ، وأصل الكلمة من الستر والتغطية .

والصفة الثانية: وحففناهما بنخل ، أي : وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ [الزمر : ٧٥].

الصفة الثالثة : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ والمقصود منه أمور :

أحدها : أن تكون الأرض جامعة للأقوات والفواكه .

وثانيها : أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف ، ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض .

وثالثها : أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى ، فكانت منفعتها دارة متواصلة .

الصفة الرابعة : قوله تعالى ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أي : لم تنقص ، والظلم : النقصان . يقول الرجل : ظلمني حقي . أي : نقصني .

الصفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾ أي : كان النهر يجري في داخل تلك الجنتين . وقوله : ﴿ خِلالَهُمَا ﴾ أي : وسطهما وبينهما.

الصفة السادسة : قوله تعالى ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ هو جمع ثمار أو ثمرة ، وذكر أهل اللغة أنه بالضم أنواع الأموال من الذهب والفضة وغيرهما ، وبالفتح حمل الشعر [1].

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ✻ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ✻ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٤-٣٦]

---

(١) التفسير الكبير (٢١/١٠٦) باختصار .

قال القاسمي : ﴿ وَكَانَ لَهُ ﴾ أي : لصاحب الجنتين ﴿ ثَمَرٌ ﴾ أي : أنواع من المال غير الجنتين من «ثَمَّرَ ماله» إذا كثره ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي : يراجعه الكلام ، تعييراً له بالفقر وفخراً عليه بالمال والجاه ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ أي : أنصاراً وحشماً ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ أي : بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها ، كما يدل عليه السياق ومحاورته له ، وإفراد الجنة هنا مع أن له جنتين كما مر ، إما لعدم تعلق الغرض بتعددها ، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى، وإما لأن الدخول يكون في واحدة فواحدة . وقيل : الإضافة تأتي لمعنى اللام ، فالمراد بها العموم والاستغراق ، أي : كل ما هو جنة له يتمتع بها، فيفيد ما أفادته التثنية مع زيادة ، وهي الإشارة إلى أنه لا جنة له غير هذه ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أي : بما يوجب سلب النعمة ، وهو الكفر والعجب ، وفي **(العناية)** : ظلمه لها إما بمعنى : تنقيصها وضررها لتعريض نعمته للزوال ونفسه للهلاك ، أو بمعني : وضع الشيء في غير موضعه ، لأن مقتضى ما شاهده التواضع المبكي لا العجب بها وظنها أنها لا تبيد أبدا والكفر بإنكار البعث ، كما يدل عليه قوله : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ ﴾ أي : تهلك وتفنى ﴿ هَذِهِ ﴾ أي : الجنة ﴿ أَبَداً ﴾ لاعتقاده أبدية الدهر ، وأن لا كون سوى ما تقع عليه مشاعِرُهُ ، ولذا قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾ (١) .

قال الزمخشري : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ وهو معجب بما أوتي مفتخر به ، كافر لنعمة ربه مُعَرِّض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظلم ، إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته لطول أمله ، واستيلاء الحرص عليها ، وتمادي غفلته ، واغتراره بالمهلة ، واطراحه النظر في عواقب أمثاله ، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به

(١) محاسن التأويل (١١/٤٢) .

منادية عليه ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير ، وكما يزعم صاحبه ، ليجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا ، تطمعاً وتمنياً على الله وادعاءً لكرامته عليه ومكانته عنده ، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله، وأن معه الاستحقاق أينما توجه ، كقوله ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت : ٥٠] ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [1] [مريم : ٧٧] .

وقال الشنقيطي : وما تضمنته هذه الآية الكريمة ــ من جهل الكفار ، واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا ، وظنهم أن الآخرة كالدنيا ينعم عليهم فيها أيضاً بالمال والولد كما أنعم عليهم في الدنيا – جاء مبيناً في آيات أخر كقوله في « فصلت : ٥٠ » : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ وفي « مريم : ٧٧ » : ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ وقوله في « سبأ : ٣٥ » ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وقوله في هذه السورة الكريمة : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾.

وبين جل وعلا كذبهم واغترارهم فيما ادعوه ، من أنهم يجدون نعمة الله في الآخرة كما أنعم عليهم بها في الدنيا، في مواضع كثيرة كقوله: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم : ٤٤ ، ٤٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[آل عمران : ١٧٨] وقوله: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾[سبأ : ٣٧] وقوله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد:٢] إلى غير ذلك من الآيات[2].

(١) الكشاف (٢/ ٧٢١ ، ٧٢٢) .
(٢) أضواء البيان (٤/ ١٠٠، ١٠١).

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٣٧، ٣٨].

قال محمد نسيب الرفاعي اختصاراً لكلام ابن كثير :

يخبر تعالى عما وعظه به صاحبه المؤمن زاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه كما قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة : ٣٨] أي : كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية لا ينكرها أحد ويعلمها من نفسه ، فإن كل أحدٍ من المخلوقات يعلم أنه كان عدماً ، ولا يستند وجوده إلى شيءٍ من المخلوقات ، لأنها مثله ، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيءٍ ، ولهذا قال المؤمن ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي : لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿ وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (١).

وقال الزمخشري : ﴿ خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أي : خلق أصلك ؛ لأن خلق أصله سبب في خلقه ، فكان خلقه خلقاً له ﴿ سَوَّاكَ ﴾ عدَّلك وكمَّلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال ، جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث كما يكون المكذب بالرسول ﷺ كافراً (٢) .

وقال القاسمي : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ أي : لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ، ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات ، وقد قرأ ابن عامر ﴿ لَكِنَّا ﴾ بإثبات الألف وصلاً ووقفاً ،

---

(١) تيسير العلي الكبير لاختصار تفسير ابن كثير ، اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته محمد نسيب الرفاعي (٧٥/٣) مكتبة المعارف – الرياض .
(٢) الكشاف (٧٢٢/٢) .

والباقون بحذفها وصلاً وبإثباتها وقفاً . فالوقف وفاق ، وأصله (لكن أنا) وقرئ كذلك ، فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون في مثلها فصار « لكن » ثم ألحق الألف إجراءً للوصل مجرى الوقف ؛ لأن الوقف على « أنا » بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل « لكن أنا » وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين « لكنّ » المشددة . قال الزمخشري : ونحوه قول القائل :

وَتَرْمِينَنِي بِالطَّرْفِ أَيْ أَنتَ مُذْنِبٌ   وَتَقْلِينَنِي لكِنْ إِيَّاكِ لا أَقْلِي

أي : لكن أنا لا أقليك .

ويقرب منه قول الآخر :

وَلَــوْ كُنْــتَ ضَبِّيـاً عَرَفْتَ قَرَابَتِي   وَلَكِنْ زَنْجِيٌّ عَظِيمُ المشَافِرِ

أي : ولكنك [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ [الكهف : ٣٩]

قال ابن كثير : أي : هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعمَ به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ ولهذا قال بعض السلف: مَنْ أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة [2].

وقال الشوكاني : أي : هلا قُلْتَ ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ تحضيضاً له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته.

---

(١) محاسن التأويل (٤٤/١١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨٤/٣).

قال الزجاج : لا يقوى أحد على ما في يده من ملكٍ ونعمة إلا بالله ، ولا يكون إلا ما شاء الله . ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال : ﴿ إن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [الكهف : ٤٠ ، ٤١] .

قال ابن جرير : يقول جل ذكره مخبراً عن قيل المؤمن الموقن للمعاد إلى الله للكافر المرتاب في قيام الساعة : إن ترن أيها الرجل أنا أقلَّ منك مالاً وولداً في الدنيا ، فعسى ربي أن يرزقني خيراً من بستانك هذا ، ويرسل عليها - يعني : على جنة الكافر التي قال لها ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴾- حسباناً من السماء، يقول : عذاباً من السماء ترمي به رمياً وتقذف ، والحُسبان جمع حسبانة ، وهي المرامي ، وقوله : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ يقول عز ذكره : فتصبح جنتك هذه أيها الرجل أرضاً ملساء لا شيء فيها ، قد ذهب كل ما فيها من غرس ونبت وعادت خراباً بلاقع زلقاً ، لا يثبت في أرضها قدم ، لامْلِسَاسِها ودُرُوس ما كان نابتاً فيها .

وقوله : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ يقول : أو يصبح ماؤها غائراً . فوضع الغور وهو مصدر مكان الغائر[2] .

وقال الزمخشري : إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة ﴿ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك ، والحسبان مصدر كالغفران والبطلان ، بمعنى : الحساب ، أي : مقداراً قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها[3] .

(١) فتح القدير (٣/٢٨٧) . (٢) باختصار من جامع البيان (٨/١٥/١٦٣).
(٣) الكشاف (٢/٧٢٣).

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٢].

قال الرازي : ثم أخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية ، وأصله من إحاطة العدو ، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك ، ومنه قوله : ﴿ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف : ٦٦] ثم قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ وهو كناية عن الندم والحسرة ، فإن مَنْ عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى ، وقد يمسح إحداهما على الأخرى ، وإنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنَّة التي وعظه أخوه فيها وعذله ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي : ساقطة على عروشها فيمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكرم ، فهذه العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها ، ويمكن أن يراد من العروش السقوف ، وهي سقطت على الجدران ، وحاصل الكلام أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ والمعنى أن المؤمن لما قال : ﴿ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ فهذا الكافر تذكر كلامه وقال : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾.

قال الشوكاني : المعنى أنه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجئ إليها وينتصر بها ، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ﴿ مَا كَانَ ﴾ في نفسه ﴿ مُنتَصِرًا ﴾ أي: ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله لجنته وانتقامه منه [2] .

---

(١) التفسير الكبير (١٠٩/٢١) .
(٢) فتح القدير (٢٨٨/٣) .

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾.

قال ابن كثير : اختلف القراء ههنا ؛ فمنهم من يقف على قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ويبتدئ بقوله : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ ثم اختلفوا في قراءة الولاية فمنهم من فتح الواو ، من الوَلاية ، فيكون المعنى : هنالك الموالاة لله ، أي: هنالك كل أحدٍ مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، كقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر : ٨٤] وكقوله إخباراً عن فرعون : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١، ٩٢] ومنهم من كسر الواو ، من الوِلاية ، أي : هنالك الحكم لله الحق . ثم منهم مَنْ رفع ﴿ الْحَقُّ ﴾ على أنه نعت للولاية ، كقوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٦] ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله كقوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أي : جزاءً ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي : الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير [١] .

*** *** ***

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٨٤ ، ٨٥) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- قال سيد قطب رحمه الله : قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس ، صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ، ويحسبُ هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فلن تخذله القوة ولا الجاه ، وصاحبه نموذجٌ للرجل المؤمن المعتز بإيمانه الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلاً على المنعم ، موجبة لحمده وذكره لا لجحوده وكفره [1] .

٢- قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] قال أشهب : قال مالك : ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا . وقال ابن وهب : قال لي حفص بن ميسرة : رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة : **«ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة»** أو قال : **«كنز من كنوز الجنة»** قلت : بلى . قال : **«لا حول ولا قوة إلا بالله ، إذا قالها العبد قال الله عز وجل : أسلم عبدي واستسلم»** [2] أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى ، وفيه فقال : **«يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة ؟»** في رواية **«على كنز من كنوز الجنة»** قلت : ما هي يا رسول الله ؟ قال : **«لا حول ولا قوة إلا بالله»**[3]

---

(١) في ظلال القرآن (٣/٢٢٧٠) .

(٢) رواه الترمذي (١٣/٩٠) الدعاء ، وأحمد (٢/٣٣٣) . وقال أبوعيسى : ليس إسناده بمتصل مكحول لم يسمع من أبي هريرة . وصححه الألباني بشواهد انظر الصحيحة ١٥٢٨ .

(٣) رواه البخاري (١١/١٩١) الدعوات، ومسلم (١٧/٢٧)الذكر والدعاء وأبوداود (١٥١٢) الصلاة.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال النبي ﷺ : « **من رأى شيئاً فأعجبه فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين** » [١] .

٣- أشار بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى عن الكافر : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ إلى أن الدنيا هي جنة الكافر ، وأشار الشنقيطي إلى تضعيف ذلك ، ولاشك أن الدنيا هي سجن المؤمن وجنة الكافر ، حيث إن الكافر ليس له في الآخرة خلاق، فالدنيا بالنسبة إلى آخرته هي جنته لأنه لا يراعي فيها حدود الحلال والحرام ، فالحلال ما حل بيده والحرام ما حُرم منه ولم يجد وسيلة إليه ، والمؤمن يرى الشيء فيشتهيه فيقول : إنك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك . المؤمن يعلم أنه مؤاخذ في سمعه وبصره وجميع جوارحه ، فهو يحبس نفسه عن المعاصي ويحبسها على الطاعات ، والكافر واقفاً مع حظوظه وشهواته ، لا يلتفت ؛ في رضى الله عز وجل أم في غضب الله ؟

والذي أنكره الشنقيطي – والله أعلم – أن هذا هو المراد بالآية الكريمة، وإن كانت الدنيا هي سجن المؤمن وجنة الكافر كما صح الحديث بذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر** » [٢] **قال النووي** : معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة ، مكلف بفعل الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان ، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد [٣].

*** *** ***

(١) الكلم الطيب ص (١٩٩) طبعة وقفية ، جمعية إحياء التراث الإسلامي .
(٢) رواه مسلم (٩٣/١٨) الزهد ، والترمذي (١٩٩/٩) أبواب الزهد .
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (٩٣/١٨) .

٦- قصة موسى والخضر

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا *

فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٠-٨٢].

وقد وردت قصة الخضر وموسى في سنة النبي ﷺ بأطول من ذلك ، ونحن نسوق القصة كما رواها البخاري من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال : « **قام موسى خطيباً في بني إسرائيل ، فقيل له : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعتَبَ الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، وأوحى إليه : بل عبد من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال أي : رب كيف السبيل إليه ؟ قال : تأخذ حوتاً في مكتل فحيثما فقدت الحوت فاتبعه . فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فنزلا عندها . قال : فوضع موسى رأسه فنام** » قال سفيان : وفي حديث غير عمرو قال : « **وفي أصل الصخرة عين يقال لها (الحياة) لا يصيب من مائها شيءٌ إلا حيي ، فأصاب الحوت من ماءِ تلك العين . قال : فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ، فلما استيقظ موسى قال لفتاه : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ الآية . قال : ولم يجد النصب حتى جاوز ما أمره به ، قال له فتاه يوشع بن نون : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ الآية . قال: فرجعا يقصَّان في آثارهما ، فوجدا في البحر كالطاق ممر الحوت ، فكان لفتاه عجباً وللحوتِ سرباً . قال : فلما انتهيا إلى الصخرة إذ هما برجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى ، قال : وأنَّى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾؟ قال له الخضر : يا موسى إنك على علم من علم الله علمكَهُ الله لا أعلمه ، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه . قال : بل أتبعك . قال : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ**

لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فانطلقا يمشيان على الساحل ، فمرت بهما سفينة ، فعُرِفَ الخضر، فحملوهم في سفينتهم بغير نَوْلٍ – يقول : بغير أجر – فركبا السفينة . قال : ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر ، فقال الخضر لموسى : ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره . قال : فلم يفجأ موسى إذ عمد الخضرُ إلى قَدوم فخرق السفينة ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ . . . ﴾ الآية ، فانطلقا ، إذا هما بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر برأسه فقطعه ، قال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ فقال بيده هكذا فأقامه ، فقال له موسى : إنا دخلنا هذه القرية فلم يضيفونا ولم يطعمونا و﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « وددنا أن موسى صبر حتى يقصَّ علينا من أمرهما » قال: وكان ابن عباس يقرأ : وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وأما الغلام فكان كافراً [1] .

بين يدي القصة :

لاشك أن هذه القصة تحتمل مجلداً لما فيها من الفوائد والحكم والآيات والعبر والعظات ، فإن بدايتها كما في الحديث كانت عتاباً من الله عز وجل لموسى عليه السلام حينما نسب العلم إلى نفسه ، ولم يرد العلم إلى الله عز وجل ثم ما فيها من تواضع فرحل ﷺ طلباً للعلم ، ثم في أدبه مع الخضر بيان لأدب المتعلم مع العالم حيث قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ وكيف أنه رأى ما لا صبر له على إنكاره من الأمور التي ظاهرها مفاسد محضة ، وفي

(١) رواه البخاري (٨/٢٧٦، ٢٧٧) التفسير ، ومسلم (١٥/١٣٧-١٤٢) الفضائل والترمذي (١٢/٢-٧) التفسير .

باطنها من الحكم والغايات ما لا يعلمه إلا الله عز وجل . وموسى عليه السلام كان عنده من محبة الحق والغيرة والقوة في الحق ، بحيث إنه لم يصبر على طول صحبة الخضر عليهما السلام وكان الخضر قد تنبأ بذلك فقال : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ وكما أن في القصة آداب طلب العلم وآداب العالم والمتعلم، ففيها أيضاً آداب العالم مع ربه عز وجل وكان أول هذه الآداب :

إذا سئل العبد : أي الناس أعلم ؟ فلا ينسى أن ينسب العلم إلى الله عز وجل وقد قال الخضر لموسى عندما رأى عصفوراً وقف على حرف السفينة وغمس منقاره في البحر : ما علمي وعلمك وعلم جميع الخلائق في علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

ومن ذلك عدم نسبة الشر إلى الله عز وجل أدباً مع الله عز وجل مع أن الله عز وجل هو خالق الخير والشر، فالشر المحض ليس إليه ، بل في كل ما قدره الله عز وجل وقضاه حكم وغايات قد تخفى على البشر ، وظهر هذا الأدب مع الله عز وجل عند قوله : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فنسب الإرادة إلى نفسه وقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ وقد علمنا القرآن ذلك في مواضع كثيرة ، منها قوله عز وجل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ [آل عمران : ٢٦] مع أنه عز وجل مقدر الخير والشر ، ومن ذلك قوله عز وجل حاكياً عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٨٠] وقد قال النبي ﷺ: « والخير كله بيديك والشر ليس إليك » (١) .

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٥٩/٦) صلاة المسافرين .

وقال النووي ما ملخصه : قال الخطابي وغيره : فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله تعالى ومدحه بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها على جهة الأدب . وفيه خمسة أقوال : أحدها : معناه : لا يتقرب به إليك قاله الخليل بن أحمد والنضر بن شميل وإسحق بن راهويه ويحيى بن معين وأبوبكر بن خزيمة والأزهري وغيرهم .

وفي القصة كذلك من الأحكام الفقهية والأصولية : بيان تعريف المسكين وما يفترق به عن الفقير ، والراجح أنهما يأتيان بمعنى واحد ويأتي المسكين بمعنى أنه عنده ما لا يكفيه ، والفقير هو الذي ليس عنده شيء ﴿ قال أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ فسماهم مساكين مع أن معهم سفينة . وفيها دفع المفسدة العظمى بالمفسدة الصغرى .

ولنشرع في شرح الآيات الكريمات فإن ما ذكرناه زهرة من رياض أو قطرة من حياض .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠] .

قال ابن الجوزي : سبب خروج موسى عليه السلام في هذا السفر ما روى ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ ... وذكر الحديث وقد تقدم آنفاً ثم قال : فأما التفسير فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ المعنى : واذكر ذلك .

وفي موسى قولان : **أحدهما** : أنه موسى بن عمران . قاله الأكثرون ، ويدل عليه ما روي في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر . قال : كذب عدو الله ، أخبرني أبي بن كعب ... فذكر الحديث [1] .

= والثاني : حكاه الشيخ أبو حامد عن المزني وقال غيره أيضاً معناه لا يضاف إليك على انفراده لا يقال يا خالق القردة والخنازير ، ويا رب الشر ، ونحو هذا ، وإن كان خالق كل شيء ، ورب كل شيء ، وحينئذٍ يدخل الشر في العموم . والثالث : معناه : والشر لا يصعد إليك إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح . والرابع : والشر ليس شراً بالنسبة إليك ، فإنك خلقته بحكمة بالغة ، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين .

والخامس : حكاه الخطابي أنه كقولك : فلان إلى بني فلان إذا كان عداده فيهم أو صفوه إليهم . باختصار من شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٥٩) .

(١) تقدم تخريجه ص (٣٩٧) .

والثاني : أنه موسى بن ميسا . قاله ابن إسحاق ، وليس بشيء للحديث الصحيح الذي ذكرناه . فأما فتاه فهو يوشع بن نون من غير خلاف ، وإنما سمى فتاه لأنه كان يلازمه ويأخذ عنه العلم ويخدمه .

ومعنى ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ لا أزال ، والمعنى: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، أي : ملتقاهما ، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخضر فيه ، قال قتادة : بحر فارس وبحر الروم ، فبحر الروم نحو المغرب وبحر فارس نحو المشرق.

وقوله : ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ قال ابن قتيبة : الحُقُب : الدهر ، والحِقَب السنون واحدتها حقبة [1] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ [الكهف : ٦١]

قال ابن كثير : وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ، وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثَمَّة . فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وهناك عين يقال لها (عين الحياة) فناما هنالك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام وطفر من المكتل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أي : مثل السرب في الأرض[2].

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف : ٦٢] .

قال الرازي : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي : موسى وفتاه الموعد المعين وهو الوصول إلى الصخرة بسبب النسيان وذهبا كثيراً وتعبا وجاعا ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ قَالَ الفتى ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ

(١) باختصار من زاد المسير (٥/١٦١-١٦٤). (٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٩٢).

﴿الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (١) .

قال الزمخشري : لما طلب موسى عليه السلام الحوت ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية ، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك ، كأنه قال : أرأيت ما دهانا إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت (٢) .

وقال القاسمي : أي : خبر الحوت ، وإسناد النسيان إليهما أولاً إما بمعنى نسيان طلبه والذهول عن تفقده لعدم الحاجة إليه ، وإما للتغليب بناءً على أن الناسي إنما كان يوشع وحده ، فإنَّهُ نسي أن يخبر موسى بشأنه العجيب ؛ فيكون كقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من المالح ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي : لك ، و ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بدل من الهاء في ﴿أَنسَانِيهُ﴾ أي : وما أنساني ذكره إلا الشيطان ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي : أمراً عجيباً ، إذ سار الماء عليه سرباً(٣).

قوله تعالى : ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤] .

قال الشوكاني : أي قال موسى لفتاه : ذلك الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع هو الذي كنَّا نطلبه ، فإن الرجل الذي نريده هو هنالك ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي : رجعا على الطريق الذي جاءا منه يقصان أثرهما ، لئلا يخطئا طريقهما . والقصص في اللغة اتباع الأثر (٤) .

قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥].

قال الرازي ما ملخصه : قال الأكثرون إن ذلك العبد كان نبيًا ، واحتجوا

(١) التفسير الكبير (١١/٢١/١٢٥) بتصرف .
(٢) الكشاف (٢/٧٣٣).
(٣) محاسن التأويل (١١/٦١، ٦٢) باختصار .
(٤) فتح القدير (٣/٢٩٩) باختصار.

عليه بوجوه : **الأول** : أنه تعالى قال : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ والرحمة هي النبوة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : ٨٦] والمراد من هذه الرحمة : النبوة ، ولقائل أن يقول : نُسَلِّمُ أن النبوة رحمةً أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة.

الحجة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وهذا يقتضي أنه تعالى علمه لا بواسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من علمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبيًا يعلم الأمور بالوحي من الله .

الحجة الثالثة : أن موسى عليه السلام قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم .

الحجة الرابعة : أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى حيث قال له : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ وأما موسى فإنه أظهر التواضع له حيث قال : ﴿ لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ .

الحجة الخامسة : احتج الأصم على نبوته بقوله في أثناء القصة : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : ٨٢] ومعناه : فعلته بوحي الله .

الحجة السادسة : ما روى أن موسى عليه السلام لما وصل إليه قال : السلام عليك . فقال : وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل . فقال موسى عليه السلام : من عرفك هذا ؟ قال : الذي بعثك إليّ . قالوا : وهذا يدل على أنه إنما عرف ذلك بالوحي ، والوحي لا يكون إلا مع النبوة [1] .

وقال الشوكاني : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ هو الخضر في قول جمهور المفسرين وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة ، وخالف في ذلك من لا يعتد

---

(١) باختصار من التفسير الكبير (١١/٢١/١٢٦ ، ١٢٧) .

بقوله فقال : ليس هو الخضر بل عالم آخر . ثم وصفه الله سبحانه فقال : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عندنا ﴾ قيل : الرحمة هي النبوة ، وقيل : النعمة التي أنعم الله بها عليه ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وهو ما علمه الله سبحانه من علم الغيب الذي استأثر به . وفي قوله : ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم وتعظيم له . قال الزجاج : وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء ؛ من طلب العلم والرحلة في ذلك ، ما يدل على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه . ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال [1] .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦].

قال القاسمي : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ أي : أصحبك ﴿ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ أي: من لدن ربك ﴿ رُشْدًا ﴾ أي: علماً ذا رشد أي: هدى وإصابة خير. **قال القاضي:** وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه ، واستأذن أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه ، أي : وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم [2] .

قوله : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٧-٦٨].

قال القرطبي : قال الخضر: قال الخضر: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أي : إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه ، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبر بوجه الحكمة فيه ، ولا طريق الصواب ، وهو معنى قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ والأنبياء لا يقرون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير، أي : لا يسعك السكوت ، جرياً

(١) فتح القدير (٣/٢٩٩) .
(٢) محاسن التأويل (١١/٦١، ٦٢).

على عادتك وحكمك (١).

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ .

قال الزمخشري : رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله ، علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عن مشاهدة الفساد شيءٌ لا يطاق ، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه بريءٌ من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين ، وأنه لابد لما يُستسمَج ظاهره من باطن حسن جميل ، فكيف إذا لم يعلم (٢) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

قال القاسمي : أي : لا تفاتحني بالسؤال عن شيءٍ أنكرته مني ولم تعلم وجه صحته حتى أبتدئك ببيانه. وهذا من آداب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع (٣).

قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف : ٧١] .

قال ابن جرير رحمه الله : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، يتعرضان الناس يلتمسان من يحملهما ، حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر بهما من السفن شيءٌ أحسن ولا أجمل ولا أوثق منها ، فسألا أهلها أن يحملوهما فحملوهما ، فلما اطمأنا فيها ولججت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له ومطرقة ، ثم عمد إلى ناحية فيها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها ، ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها ثم جلس عليها يرقعها ، قال له موسى ورأى أمراً أفظع به : ﴿ أَخَرَقْتَهَا

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/٤٠٥٦) .
(٢) الكشاف (٢/٧٣٤) .
(٣) محاسن التأويل (١١/٦٤) .

لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾[1] وقوله : ﴿ إِمْرًا ﴾ أي : منكراً أو عجيباً .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف : ٧٢ - ٧٣] .

قال ابن كثير : فعندما قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يعني : وهذا الصنع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها ، لأنك لم تحط بها خُبْراً ولها دخل ، هو مصلحة ولم تعلمه أنت ، ﴿ قَالَ ﴾ أي: موسى ﴿ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أي: لا تضيق عليّ ولا تشدد علي ، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**كانت الأولى من موسى نسياناً**»[2].

وقال ابن الجوزي : قوله : ﴿ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ في هذا النسيان ثلاثة أقوال : **أحدها** : أنه على حقيقته ، وأنه نَسيَ ، روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « **أن الأولى كانت نسياناً من موسى** » . **والثاني** : أنه لم ينس ، ولكنه من معاريض الكلام قاله أبي بن كعب وابن عباس . **والثالث** : أنه بمعنى الترك فالمعنى : لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه ذكره ابن الأنباري[3] .

قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف : ٧٤ - ٧٦] .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَه ﴾ في البخاري

---

(١) جامع البيان (٨/١٥/١٨١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٩٧) .
وقوله : «كانت الأولى من موسى نسياناً » من رواية البخاري في التفسير (٨/ ٢٦٢) ومسلم (١٥/١٤١) الفضائل .

(٣) زاد المسير (٥/١٧١) .

قال يعلى قال سعيد : وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ لم تعمل بالخبث .

وفي الصحيحين وصحيح الترمذي (١) : ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، قال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال : هذه أشد من الأولى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ لفظ البخاري وفي التفسير أن الخضر مر بغلمان يلعبون ، فأخذ بيده غلاماً ليس فيهم أضوأ منه وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه ، قال أبوالعالية : لم يره إلا موسى ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام (٢) .

قلت : ولا اختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة فإنه يحتمل أن يكون دمغه أولاً بالحجر ، ثم أضجعه فذبحه ، ثم اقتلع رأسه ، والله أعلم بما كان من ذلك وحسبك بما جاء في الصحيح (٣) .

قال الألوسي ما ملخصه : قال أي : موسى عليه السلام : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ ﴾ تفعله من الأعاجيب ﴿ بَعْدَهَا ﴾ أي : بعد هذه المرة أو بعد هذه المسألة : ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ أي : فلا تكن صاحبي ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أي : وجدت عذراً من قبلي ، **وقال النووي :** معناه : قد بلغت إلى الغاية التي

---

(١) البخاري (٢٦٤/٨) التفسير . باب : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ ، مسلم (١٣٩/١٥-١٤٠) الفضائل ، والترمذي (٧٠٢/١٢) التفسير .

(٢) رواية البخاري في التفسير (٢٦٤/٨) « وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين » .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤٠٥٩/٥ ، ٤٠٦٠) .

تعذر بسببها في فراقي حيث خالفتك مرة بعد مرة . وصح عن النبي ﷺ أنه قال : « **رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، لكن أخذته من صاحبه ذمامة فقال ذلك** » [١] .

قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٧-٧٨].

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى مخبراً عنهما أنهما ﴿ فَانطَلَقَا ﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ روى ابن جريج عن ابن سيرين أنها الأيكة ، وفي الحديث : « **حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما** » أي : بخلاء ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل ، والانقضاض هو السقوط . وقوله : ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ أي : فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنَّه رده بيده ودعمه حتى رد ميله ، وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي : لأجل أنهم لم يُضَيِّفُونَا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً ، ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ أي : لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، فهو فراق بيني وبينك ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أي : بتفسير ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [٢] .

---

(١) روح المعاني (٢/١٦) باختصار . والحديث من رواية مسلم في الصحيح (١٤٤/١٥) الفضائل . وقال النووي : قال أصحابنا فيه استحباب ابتداء الإنسان نفسه في الدعاء وشبهه من أمور الآخرة وأما حظوظ الدنيا فالأدب فيها الإيثار وتقديم غيره على نفسه. وقوله : « **أخذته من صاحبه ذمامة** » أي : استحياء لتكرار مخالفته وقيل : ملامة ، والأول هو المشهور . شرح النووي هامش (١٤٤/١٥ ، ١٤٥) باختصار .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٩٧/٣ ، ٩٨) وانظر في (ص٤١٣) الكلام على إرادة الجدار.

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] .

قال الشنقيطي : ظاهر هذه الآية الكريمة أن ذلك الملك يأخذ كل سفينة صحيحة كانت أو معيبة ، لكنه يفهم من آية أخرى أنه لا يأخذ المعيبة ، وهي قوله : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي : لئلا يأخذها ، وذلك هو الحكمة في خرقه لها المذكور في قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ ثم بين أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب ، لأن عيبه يزهده فيها ، ولأجل ما ذكرنا كانت هذه الآية الكريمة مثالاً عند علماء العربية لحذف النعت : أي : وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غير معيبة بدليل ما ذكرنا (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف : ٨٠-٨١] .

قال القاسمي : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ ﴾ أي : الذي قتلته ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا ﴾ أي : لو تركناه ﴿ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أي : ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك ، فيخشى أن يُعْديهما بدائه ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ أي : بقتله ﴿ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ أي : طهارة عن الكفر والطغيان ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أي : رحمة بأبويه وبرا (٢) .

وقال القرطبي : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ جاء في صحيح الحديث : « أنه طبع يوم طبع كافراً » (٣) وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ .

---

(١) أضواء البيان (١٨٠/٤) .
(٢) محاسن التأويل (٦٧/١١) .
(٣) الحديث رواه مسلم (١٤٥/١٥) الفضائل ، وقال النووي : قال القاضي : هذا حجة بينة لأهل السنة لصحة أصل مذهبهم في الطبع والرَّين والأكنة والأغشية والحجب =

ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً وقد تقدم...

قال : ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد ، وإن كانوا قطعاً من الأكباد ، ومن سلّم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء .

قال قتادة : لقد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى ، فإن قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب [1].

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٨٢] .

قال الفخر الرازي : وأما المسألة الثالثة وهي : إقامة الجدار ، فقد أجاب العالم عنها بأن الداعي له إليها أنه كان تحت ذلك الجدار كنز ، وكان ذلك ليتيمين في تلك المدينة ، وكان أبوهما صالحا ، ولما كان ذلك الجدار مشرفاً على السقوط ، ولو سقط لضاع ذلك الكنز ، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ، ورعاية لحق صلاح أبيهما، فأمرني بإقامة ذلك الجدار ، رعاية لهذه المصالح ، وفي الآية فوائد :

الفائدة الأولى : أنه تعالى سمى ذلك الموضع قرية حيث قال : ﴿ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وسماه أيضاً مدينة حيث قال : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ .

الفائدة الثانية : اختلفوا في هذا الكنز ، فقيل : إنه كان مالاً وهذا هو الصحيح لوجهين : **الأول** : أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال .

والثاني : أن قوله : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ يدل على أن ذلك الكنز هو المال.

والسد وأشباه هذه الألفاظ الواردة في الشرع في أفعال الله تعالى بقلوب أهل الكفر والضلال . شرح النووي هامش (١٥/١٤٥) .

(١) الجامع لأحكام القرآن باختصار (٥/٤٠٧٥-٤٠٧٧) .

وقيل : إنه كان علماً بدليل أنه قال : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال ، إذ كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ الآية [التوبة : ٣٤] .

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء ، وعن جعفر بن محمد كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء ، وعن الحسن بن علي أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بما حفظ الله مال الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما قال : فأبي وجدي خير منه .

قوله : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني : إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحدٍ وهو تحمل الضرر الأدنى ، لدفع الضرر الأعلى ، كما قررناه .

ثم قال : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ يعني: ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي ، وإنما فعلته بأمر الله ووحيه ، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع . بقي في الآية سؤال وهو أنه قال : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وقال : ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ وقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ كيف اختلفت الإضافة في هذه الإرادات الثلاث وهي كلها في قصة واحدة وفعل واحد ؟ والجواب: أنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه ، فقال : أردت أن أعيبها ، ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية ، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى ، لأن المتكفّل بمصالح الأبناء ؛ لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى [١] .

---

(١) باختصار : التفسير الكبير (١١/٢١/١٣٨) .

الفــوائــد والآثــار الإيمــانيــة :

١- قال الشنقيطي رحمه الله ما ملخصه :

مسألة : اعلم أن العلماء اختلفوا في الخضر : هل هو حي إلى الآن أو هو غير حي ، بل ممن مات فيما مضى من الزمان ؟ فذهب كثير من أهل العلم إلى أنه حي ، وأنَّهُ شرب من عين تسمى عين الحياة ، وممن نصر القول بحياته القرطبي في تفسيره ، والنووي في شرح مسلم وغيره ، وابن الصلاح والنقاش وغيرهم .

قال ابن عطية : وأطنب النَّقاش له في هذا المعنى – يعني حياة الخضر وبقاءه إلى يوم القيامة ، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب وغيره وكلها لا تقوم على ساق – انتهى بواسطة نقل القرطبي في تفسيره.

وحكايات الصالحين عن الخضر أكثر من أن تحصر ، ودعواهم أنه يحج هو وإلياس كل سنة ، ويروون عنهما بعض الأدعية كل ذلك معروف ، ومستند القائلين بذلك ضعيفٌ جداً ، لأن غالبه حكايات عن بعض مَنْ يظن به الصلاح ومنامات وأحاديث مرفوعة عن أنس وغيره ، وكلها ضعيف لا تقوم به حجة .

ومن أقواه عند القائلين به آثار التَّعزية حين توفي النبي ﷺ .

والاستدلال على حياة الخضر بآثار التعزية مردود من وجهين :

الأول : أنَّه لم يثبت ذلك بسند صحيح ، قال ابن كثير في تفسيره: وقال النووي وغيره في بقاء الخضر إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين . ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه وذكروا في ذلك حكايات عن السلف وغيرهم ، وجاء ذكره في بعض الأحاديث ، ولا يصح شيءٌ من ذلك ، وأشهرها حديث التعزية ، وإسناده ضعيفٌ .

الثاني : أنه على فرض أن حديث التعزية صحيح لا يلزم من ذلك عقلاً ولا شرعاً ولا عرفاً أن يكون ذلك المعزي هو الخضر ، بل يجوز أن يكون غير الخضر من مؤمني الجن ، لأن الجن هم الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ودعوى أن ذلك المعزي هو الخضر تحكم بلا دليل ، وقولهم كانوا يرون أنه

الخضر ليس حجة يجب الرجوع إليها ، لاحتمال أن يخطئوا في ظنهم ، ولا يدل ذلك على إجماع شرعي معصوم، ولا متمسك لهم في دعواهم أنه الخضر كما ترى.

ثم قال رحمه الله : الذي يظهر لي رجحانه بالدليل في هذه المسألة أن الخضر ليس بحيٍ بل توفي لعدة أدلة :

الأول : ظاهر عموم قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] فقوله : ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ نكرة في سياق النفي فهي تعم كل بشر؛ فيلزم ذلك نفي الخلد عن كل بشر من قبله ، والخضر بشر من قبله .

الثاني : قوله ﷺ: **« اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض »** [(١)] ومحل الشاهد منه قوله ﷺ : **« لا تعبد في الأرض »** فعلٌ في سياق النفي . فاعلم أن ذلك النفي يشمل بعمومه وجود الخضر حيًا في الأرض ، لأنه على تقدير وجوده حياً في الأرض فإن الله يعبد في الأرض .

الثالث : إخباره ﷺ بأنه على رأس مائة سنة من الليلة تكلم فيها بالحديث لم يبق على وجه الأرض أحدٌ ممن هو عليها تلك الليلة ، فلو كان الخضر حياً في الأرض لما تأخر بعد المائة المذكورة [(٢)] .

الرابع : أن الخضر لو كان حياً إلى زمن النبي ﷺ لكان من أتباعه ولنصره وقاتل معه لأنه مبعوث إلى جميع الثقلين الإنس والجن والآيات الدالة على عموم رسالته كثيرة جداً كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ويوضح هذا أنه تعالى بين في سورة « آل عمران » أنه أخذ على جميع النبيين الميثاق المؤكد أنهم إذا جاءهم نبينا ﷺ

---

(١) رواه مسلم (٨٤/١٢) الجهاد والسير ، والترمذي (٢١١/١١) التفسير ، وأحمد (٣٠/١ ، ١٧٧/٣٢) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٥/١) العلم ، ومسلم (٩٠/١٦) الفتن ، وأبوداود (٤٣٢٦) الملاحم . قال الحافظ : قال ابن بطال : إنما أراد رسول الله ﷺ أن هذه المدة تخترم الجيل الذي هم فيه فوعظهم بقصر أعمارهم وأعلمهم أن أعمارهم ليست كأعمار من تقدم من الأمم ليجتهدوا في العبادة . فتح الباري (٢٥٦/١) .

مصدقاً لما معهم أن يؤمنوا به وينصروه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ٨١].

لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه.

فتحصل أن الأحاديث المرفوعة التي تدل على وجود الخضر حياً باقياً لم يثبت منها شيءٌ ، وأنه قد دلت الأدلة المذكورة على وفاته كما قدمنا إيضاحه[1] .

وقال رحمه الله ما ملخصه : قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ [الكهف : ٧٧] .

هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة التي يستدل بها القائلون بأن المجاز في القرآن زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة وإنما هي مجاز ، وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة ، لأن الله تعالى يعلم للجمادات إرادات وأفعالاً وأقوالاً لا يدركها الخلق كما صرح تعالى بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه في قوله جل وعلا : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها ، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة .

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة : ٧٤] لأن تلك الخشية بإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه .

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: « **إني لأعرف حجراً كان يُسلّم عليّ بمكة** »[2] وما ثبت في صحيح البخاري من

(١) باختصار من أضواء البيان (٤/١٦٣-١٧١) .

(٢) رواه مسلم (١٥/٣٦) الفضائل ، والترمذي (١٣/١٠٠) المناقب .

حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ جزعاً لفراقه [١] فتسليم ذلك الحجر وحنين ذلك الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه كما صرح بمثله في قوله : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ . وبذلك تعلم أن لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها ، لإمكان أن يكون الله علم منه إرادة الانقضاض ، وإن لم يعلم خلقه تلك الإرادة ، وهذا واضحٌ جداً كما ترى ، مع أنه من أساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل كما في قول الشاعر :

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ ... وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

أي : يميل إلى صدر أبي براء [٢] .

٣- وقال القاسمي رحمه الله : قال السيوطي في « الإكليل » : في هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم في السفر ، واستحباب الرحلة في طلب العلم ، واستزادة العالم من العلم ، واتخاذ الزاد للسفر ، وأنّه لا ينافي التوكل ، ونسبة النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازاً وتأدباً عن نسبتها إلى الله تعالى ، وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ، ولو كان دونه في المرتبة . واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه ، وتقديم المشيئة في الأمر ، واشتراط المتبوع على التابع ، وأنه يلزم الوفاء بالشروط وأن النسيان غير مؤاخذ به ، وأن « للثلاث » اعتباراً في التكرار ونحوه وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة ، وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللئام ، وجواز أخذ الأجر على الأعمال ، وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شيء لا يكفيه ، وأن الغصب حرام . وأنه يجوز إتلاف بعض مال الغير ، أو تعييبه لوقاية باقية ، كمال المودع واليتيم ، وإذا

---

(١) رواه البخاري (٢/٣٩٧) الجمعة والنسائي (٣/١٠٢) الجمعة والترمذي (١٣/١١١) المناقب ، ورواه ابن ماجة (١٤١٥) بزيادة « **لو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة** » . وقال الألباني : هذه المعجزة متواترة عن النبي ﷺ ، وقد جمع قسطاً كبيراً من طرقها الحافظ ابن كثير في البداية والسيوطي في الخصائص .

(٢) أضواء البيان (٤/١٧٨ ، ١٧٩) باختصار .

تعارض مفسدتان ارتكب الأخف ، وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه ، وأنه تجب عمارة ما يخاف منه ، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب ، وأنه يجوز دفن المال في الأرض انتهى . وقال البيضاوي : ومن فوائد هذه القصة أنه لا يعجب المرء بعلمه ، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه فلعل فيه سراً لا يعرفه ، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم ، ويُراعي الأدب في المقال ، وأن ينبه المجرم على جرمه، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى [1] .

٤- وقال رحمه الله ما ملخصه : ذكر الناصر في « الانتصاف » شذرات من لطائف بعض الآي المذكورة فنأثرها عنه :

قال عليه الرحمة : ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحق ، وأنه قال حين خرق السفينة: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ولم يقل « لِتُغْرِقَنَا » فنسي نفسه واشتغل بغيره في الحالة التي كل أحدٍ فيها يقول (نفسي نفسي) لا يلوي على مال ولا ولد وتلك حالة الغرق ، فسبحان من جبل أنبياءَه وأصفياءَه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم ، صلوات الله عليهم أجمعين وسلامه .

ثم قال القاسمي : أبدى بعضهم سراً للتعبير أولاً « بتستطيع » ثم أخيراً « بتسطع » بحذف التاء : قال : لما أن فسر الخضر لموسى وبين له تأويل ما لم يصبر معه ووضحه وأزال المشكل قال : « تسطع » بحذف التاء ، وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلاً ، فقال : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف ، كما قال : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف : ٩٧] هو الصعود إلى أعلاه ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف : ٩٧] وهو أشق من ذلك . فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

وقال الشهاب : إنما خصَّ هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر في القصة ناسب تأخير الخفيف منه ، وأما كونه للإشارة إلى أنه خفَّ على موسى ﷺ ما لقيه

(١) محاسن التأويل (١١/٦٨ ، ٦٩) .

ببيان سببه فيبعد أنّهُ في الحكاية لا المحكي . انتهى .

وما ألطف قول الشهاب في مثله : هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرك [١] .

٥- وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ فيه مسألتان :

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستذل المبالغ في حسن الأدب ، المعنى : هل يتفق لك ويخف عليك وهذا كما في الحديث : هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ [٢] .

الثانية : في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول ، والفضل لمن فضله الله ، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه ، لأنه نبي والنبي أفضل من الولي وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة والله أعلم [٣] .

٦- وقال رحمه الله : قال شيخنا الإمام أبوالعباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه [٤] الأحكام الشرعية ، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم ، وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية

---

(١) باختصار من محاسن التأويل (١١/ ٧٠ - ٧٣) .

(٢) رواه مالك في الموطأ (١/١٨) الطهارة ، وأبوداود (١١٨) الطهارة والنسائي (١/٧١-٧٢) الطهارة من حديث عبدالله بن زيد في كيفية الوضوء عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أنه قال لعبدالله بن زيد بن عاصم وهو جد عمرو بن يحيى المازني وكان من أصحاب رسول الله ﷺ : « هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ » وأصل الحديث في البخاري (١/٣٥٦) الوضوء ، ومسلم (٣/١٢١-١٢٣) الطهارة .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/٤٠٥٥ ، ٤٠٥٦) . (٤) لعلها هدم ولا يستقيم المعنى إلا بذلك.

فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم ، وقد جاء فيما ينقلون : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » [1].

قال شيخنا رضي الله عنه : هذا القول زندقة وكفر ، يقتل قائله ولا يستتاب لأنه إنكار ما علم من الشرائع ، فإن الله تعالى قد أجرى سنته وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه ، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه ، المبينون شرائعه وأحكامه ، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج :٧٥] وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وقال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢١٣] إلى غير ذلك من الآيات ، وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي ، واليقين الضروري ، واجتماع السلف والخلف على أنه لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه ولا يعرف شيءٌ منها إلا من جهة الرسل ، فمن قال إن هناك طريقاً آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام الذي جعله الله خاتم أنبيائه ورسله ، فلا نبي بعده ولا رسول ، وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى ، وأنه يعمل بمقتضاه ، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة

(١) رواه أحمد (٤/٢٢٨) والدارمي (٢/٢٤٦) البيوع بلفظ « استفت نفسك » قال النووي في الأربعين حديث حسن رويناه في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن .
وقال الحافظ ابن رجب : في إسناد هذا الحديث أمران يوجب كل منهما ضعفه : أحدهما : الانقطاع بين أيوب والزبير فإنه رواه عن قوم لم يسمعهم . والثاني : ضعف الزبير هذا قال الدارقطني روى أحاديث مناكير وضعفه ابن حبان أيضاً إلى أن قال وقد روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من وجوه متعددة وبعض طرقه جيدة، جامع العلوم والحكم (٢٣٦-٢٣٧)الحلبي.

فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة ، فإن هذا نحو ما قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ فِي رُوعِي »(1) . الحديث

٧- وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي عليه رحمة ربنا العلي في فوائد وأحكام هذه القصة : منها: تواضع الفاضل للتعلم ممن هو دونه . فإن موسى بلا ريب أفضل من الخضر .

– ومنها : تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يَتَمهَّر فيه ، ممن مَهَرَ فيه وإن كان دونه في العلم درجات ، فإن موسى من أكابر أولي العزم من الرسل الذين مَنَحَهُمُ الله وأعطاهم من العلوم ما لم يعط سواهم ، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده ، فلهذا اشتد حرصه على التعلم منه .

– ومنها : أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير ، وكل علم فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير من طريق الشر ، أو وسيلة إلى ذلك ، فإنه من العلم النافع ، وما سوى ذلك فإما أن يكون ضاراً ، أو ليس فيه فائدة لقوله : ﴿ أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشْداً ﴾ [الكهف : ٦٦] .

– ومنها : أن من ليس له صبر على صحبة العالم ولا قوة على الثبات على طريقة التعلم فإنه قاصر ليس بأهل التلقي ، فمن لا صبر له لا يدرك العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى إليه . فإن الخضر اعتذر عن موسى أنه لا يصبر على علمه الخاص .

– ومنها : فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف ، ويراعي أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإنَّ قتل

(1) الجامع لأحكام القرآن (٤٠٧٩/٥ ، ٤٠٨٠) . والحديث رواه القضاعي في مسند الشهاب (١٨٥/٢) رقم ١١٥١ عن ابن مسعود وقال الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر : إسناده صحيح لولا الرجل الذي لم يسم . وقد أخرجه الحاكم (٤/٢) وصححه على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي عن جابر دون قوله : « إن روح القدس نفث في روعي » ورواه أبونعيم في الحلية (٢٧/١٠) عن أبي أمامة. وصححه الألباني بشواهده وكذلك عبدالقادر الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول .

الغلام الصغير شر، ولكن بقاءه حتى يبلغ أعظم شراً ، وبقاء الغلام من دون قتل وإن كان في ظاهر الحال أنه خير فالخير ببقاء أبويه على دينهما خير من ذلك ، فلذلك قتله الخضر بعد ما ألهمه الله الحقيقة فكان إلهامه الباطني بمنزلة البينات الظاهرة في حق غيره .

ومنها : القاعدة الكبيرة الأخرى ، وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة يجوز بلا إذن ، حتى ولو ترتب عليه إتلاف بعض المال ، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم ، وتحت هاتين القاعدتين من الفوائد ما لا حصر له .

ومنها : أنه ينبغي للعبد أن لا يفارق صاحبه في حال من الأحوال ويترك صحبته بل يفي له بذلك ، حتى لا يجد للصبر محلاً ، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها ، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة [1] .

٨- ورد في سبب تسمية الخضر ما رواه أبوهريرة عن النبي ﷺ قال : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء » [2] .

قال الحافظ: وقد زاد عبدالرزاق في مصنفه بعد أن أخرجه بهذا الإسناد: الفرو الحشيش الأبيض وما أشبهه . قال عبدالله بن أحمد بعد أن رواه عن أبيه عنه: أظن هذا تفسيراً من عبدالرزاق انتهى. وجزم بذلك عياض وقال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش وهذا موافق لقول عبدالرزاق. وعن ابن الأعرابي: الفروة أرض بيضاء ليس فيها نبات وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه [3] .

*** *** ***

(١) تيسير الكريم المنان في خلاصة تفسير القرآن (١٤٧ - ١٤٩) باختصار وانظر بقية الفوائد من صفحة (١٤٦ - ١٤٩) .

(٢) رواه البخاري (٦/٤٩٩) أحاديث الأنبياء ، والترمذي (٩/١٢) التفسير.

(٣) باختصار من الفتح (٦/٤٩٩) .

٧- قصة ذي القرنين

قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا * كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف : ٨٣-٩٨] .

بين يدي القصة :

هذه القصة الرابعة في هذه السورة المباركة ، والقصة جواب لمن سأل من مشركي مكة تبعاً لليهود عن رجل يلقب بذي القرنين ، وطريقة القرآن في القصص الإعراض عن التفصيل الذي ليس وراءه عبرة ولا حكمة ، والاكتفاء بالإشارات التي تتضمن العبر والعظات ، وقد اختلف الناس في ذي القرنين هل

كان نبياً أم مَلِكاً ولم يأت خبر عن معصوم في إثبات نبوته ، وما استدلوا به من قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ غير ناهض لما زعموه ، ثم اختلفوا كذلك في اسمه فرجح الرازي والقاسمي أنه الإسكندر ، واحتجوا بأنه الذي ملك المشارق والمغارب ، والصحيح عدم الجزم بذلك ، والذي يظهر من سياق الآيات أنه ملك مؤمن أعطاه الله عز وجل من أسباب الملك والقدرة ما بلغ به مشارق الأرض ومغاربها ، وأنه كان عادلاً يُقرِّبُ أهل الإيمان ويعذب أهل الفسوق والعصيان ، كما يظهر من قوله : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ وهذا شأن الملك المسلم الذي يرفع أهل الدين ويعذب الكفار والفاسقين . عكس ما يفعله كثير من حكام المسلمين الذين يَدَّعُون أهل الأوثان ويعذبون أهل الإسلام ، وسجون الأرض مملوءة بالشباب المسلم الذي رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، وأكثر القائمين على الحكم في بلاد المسلمين إن لم يكن جميعهم ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، والله عز وجل وصف المؤمنين الصادقين فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] ومن مظاهر صلاح هذا الملك أنه تعفف عمَّا في أيدي الناس ، فلما قيل له :﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ قال : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ كما قال سليمان عليه السلام : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ [النمل : ٣٦] .

فمحصّل القصة أنه ملكٌ قد دانت له المشارق والمغارب ، ويساعد أهل الإيمان ويعذب أهل الأوثان ، وأنه يقوم بمصالح رعيته ، ويسعى بالإصلاح في الأرض ، وأشارت الآيات إلى ذلك إجمالاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَنَقُولُ لَهُ

مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ وصرحت كما في نهاية القصة من إقامة السد، وأومأت إلى ذلك في قوله : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ فكأنه أقام لهم من المباني التي تحمي أجسادهم من حر الشمس ، أو صرف لهم الملابس والأغطية ، فهذا يفهم من سياق الآيات ، ولنشرع في نقل كلام العلماء في تفسيرها والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

قال الرازي : اختلف الناس في أن "ذي القرنين" من هو ، وذكروا فيه أقوالاً :
الأول : أنه هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني ، قالوا والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذي القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ وأيضاً بلغ ملكه أقصى المشرق بدليل قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ .

وأيضاً بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال ، وبدليل أن السد المذكور في القرآن يقال في كتب التواريخ إنه مبني في أقصى الشمال ، فهذا الإنسان المسمى بذي القرنين في القرآن قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال ، وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض ، ومثل هذا الملك البسيط لا شك أنه على خلاف العادات ، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر، وأن لا يبقى مخفياً مستتراً ، والمَلِك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر .

إلى أن قال : فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكلية أو ما يقرب منها ، وثبت بعلم التواريخ أن الذي هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني .

والقول الثاني : قال أبوالريحان الهروي المنجم في كتابه الذي سماه بالآثار

الباقية عن القرون الخالية قيل : إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقش الحميري ، فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها ، وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال :

قَدْ كَانَ ذُو القَرْنَيْنِ قَبْلِيَ مُسلِمًا ... مَلِكًا عَلا فِي الأَرْضِ غَيْرَ مُفَنَّدِ

بَلَغَ المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبَابَ مُلْكٍ مِن كَرِيمٍ سَيِّدِ

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ؛ لأن الأذواء كانوا من اليمن ، وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذي ، كذي النادي ، وذي نواس ، وذي النون وغير ذلك ..

والقول الثالث : أنه كان عبدًا صالحاً ملكه الله الأرض ، وأعطاه العلم والحكمة ، وألبسه الهيبة ، وإن كنا لا نعرف أنه مَنْ هُوَ .

والقول الرابع : أنَّ ذا القرنين مَلَكٌ من الملائكة . عن عمر أنه سمع رجلاً يقول : يا ذا القرنين فقال : اللهم اغفر ، أمَا رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء ، حتى تسموا بأسماء الملائكة . فهذا جملة ما قيل في هذا الباب ، والقول الأول أظهر لأجل الدليل الذي ذكرناه اهـ [1] .

وما رجحه غير راجح والله أعلم ، وأقرب الأقوال هو الثالث ، وهو ما دل عليه ظاهر القرآن ، فمعه الدليل ، وغيره يحتاج إلى دليل صحيح يجب المصير إليه ، ولا دليل ، والله أعلى وأعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ .

قال ابن كثير : أي : أعطيناه مُلكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات ؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ قرني

---

(١) التفسير الكبير (١١/٢١/١٣٩-١٤٠) باختصار .

الشمس مشرقها ومغربها [1] .

قال الزمخشري : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي: من أسباب كل شيء أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه ﴿ سَبَبًا ﴾ طريقاً موصلاً إليه ، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ، فأراد بلوغ المغرب ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ يوصله إليه حتى بلغ ، وكذلك أراد المشرق فأتبع وأراد بلوغ السدين فأتبع سبباً [2] .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٦-٨٨]

وقال الشوكاني : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي : نهاية الأرض من جهة المغرب ؛ لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط ، وهو لا يمكن المضي فيه ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي (حامية) أي : حارة ، وقرأ الباقون ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ أي : كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ الضمير في عندها إما للعين أو للشمس قيل : هم قوم لباسهم جلود الوحش ، وكانوا كفاراً ، فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم فقال : ﴿ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ أي : إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر ، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حُسْنٍ أو أمراً حسناً ، مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد : دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع ﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين مختاراً للدعوة التي هي الشق الأخير من الترديد ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴾ في الآخرة ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ فيها ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي: منكراً فظيعاً [3].

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠١/٣) . (٢) الكشاف (٧٤٣/٢) .
(٣) فتح القدير (٣٠٨/٣) .

وقال ابن كثير رحمه الله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أي : أمة من الأمم ، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم ، وقوله : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم ، وحكّمه فيهم ، وأظفره بهم ، وخيره إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء منّ أو فدى ، فعرض عدله وإيمانه فيما أبداه ، وبيانه في قوله : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أي : استمر على كفره وشركه بربه ، فسوف نعذبه ، قال قتادة : بالقتل .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء ، وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ ﴾ أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل : ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد : معروفاً[1] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا * كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .

قال الرازي : اعلم أن الله تعالى لما بين أولاً أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مغرب الشمس ، أتبعه ببيان أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مطلع الشمس ، فبين الله تعالى أنه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ، وفيه قولان : **الأول :** أنه ليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم ؛ فلهذا السبب إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب واغلة في الأرض ، أو غاصوا في الماء ، فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش ، وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش ، حالهم بالضد من أحوال سائر الخلق .

والقول الثاني : أن معناه أنّه لا ثياب لهم ، ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبداً ، ويقال في كتب الهيئة إن حال أكثر الزنج كذلك ، وحال كل من يسكن

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/١٠٢-١٠٣) .

البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك [١] .

وقال الطبري : وأما قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ فإن معناه: ثم أتبع سبباً كذلك حتى إذا بلغ مَطلع الشمس و(كذلك) من صلة ﴿ أَتْبَعَ ﴾ وإنما معنى الكلام ثم أتبع سبباً حتى بلغ مطلع الشمس كما أتبع سبباً حتى بلغ مغربها.

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ يقول : وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علماً لا يخفى علينا مما هنالك من الخلق وأحوالهم وأسبابهم ولا من غيرهم شيء ، وبالذي قلنا في معنى الخبر قال أهل التأويل [٢] .

وقال الزمخشري : قيل بلغ مطلع الشمس مثل ذلك ، أي : كما بلغ مغربها وقيل : تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذين تغرب عليهم يعني أنهم كفرة مثلهم ، وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم [٣].

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكهف : ٩٢-٩٣] .

قال القاسمي : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي : طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ قرأ بفتح السين وضمها ، أي: بين الجبلين اللذين سد ما بينهما ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا ﴾ أي : من ورائهما أمة من الناس ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم [٤] .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف : ٩٤ - ٩٥] .

يقول ابن كثير رحمه الله ما ملخصه : حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان

---

(١) التفسير الكبير (١٤٣/٢١/١١) .
(٢) جامع البيان (١٢/١٦/٨).
(٣) الكشاف (٧٤٦/٢).
(٤) محاسن التأويل (١٨/١١) .

متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيثون فيها فساداً ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين : « **إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك فيقول : ابعث بعث النار فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج** »[1] .

وفي مسند أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « **ولد نوح ثلاثة : سام أبو العرب وحام أبو السودان ويافث أبو الترك** »[2] قال بعض العلماء : هؤلاء من نسل يافث أبي الترك وقال : إنما سمي هؤلاء تركاً لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجرأة[3] .

قال القرطبي رحمه الله ما ملخصه : قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ فيه مسألتان : **الأولى :** قوله تعالى ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب ﴿ خَرْجًا ﴾ أي : جُعْلاً والخرج أخصُّ من الخراج يقال : أدِّ خَرْجَ رأسك وخراج مدينتك.

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أي : ردماً ، والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل ، وثوب مردم أي : مرقق . وقال عكرمة وأبو عمرو ابن العلاء وأبو عبيدة : ما كان من خلقة الله لم يشارك فيه أحدٌ بعمل فهو

---

(١) رواه أحمد (٦/٤٤١) عن أبي الدرداء وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٩٣) إسناده جيد وللحديث شواهد في مسند البزار وأبو يعلى والطبراني .

(٢) رواه الترمذي (١٣/٢٨٣) المناقب وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وأحمد (٥/٩-١١) وفيه عنعنة الحسن البصري وفي سماع الحسن من سمرة كلام ، انظر جامع الأصول (٤/٤٠) ولم يذكره الألباني في صحيح الترمذي .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/١٠٣-١٠٤) باختصار .

بالضم ، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح ، ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا ﴿ سَدًّا ﴾ بالفتح وقبله ﴿ بَيْنَ السُّدَّيْنِ ﴾ بالضم وهي قراءة حمزة والكسائي .

الثانية : في هذه الآية دليل على اتخاذ السجون ، وحبس أهل الفساد فيها ، ومنعهم من التصرف لما يريدونه ، ولا يتركون وما هم عليه ، بل يوجعون ضرباً ويحبسون ، أو يكلفون ويطلقون ، كما فعل عمر رضي الله عنه [1] .

قوله تعالى : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

قال الألوسي : أي : الذي مكني ﴿ فِيهِ رَبِّي ﴾ وجعلني فيه سبحانه مكيناً قادراً من الملك والمال وسائر الأسباب ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي: مما تريدون أن تبذلوه إليّ من الخرج ، فلا حاجة بي إليه ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي : بما يتقوى به على المقصود من الآلات كزبر الحديد أو من الناس ، أو الأعم منهما [2] .

وقال القرطبي : وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة ؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجاً لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان ، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل ، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج .

وقرأ ابن كثير وحده ﴿مَا مَكَّنَنِي﴾ بنونين، وقرأ الباقون ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾[3].

قوله تعالى : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكهف : ٩٦] .

قال الشوكاني : ومعنى الآية أنهم أعطوه زبر الحديد [4] فجعل يبني بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أي : قال للعملة انفخوا على هذه الزبر بالكيران ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ أي : جعل ذلك المنفوخ فيه وهو الزبر ناراً ؛ أي

---

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن (٤٠٩٨/٥) .

(٢) روح المعاني (٣٩/١٦-٤٠) . (٣) الجامع لأحكام القرآن (٤٠٩٩/٥).

(٤) قال أكثر المفسرين : زبر الحديد هي قطعه .

كالنار في حرها ، وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ . قيل: كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليه الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة ، وهو معنى قوله : ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ .

قال أهل اللغة : القطر : النحاس الذائب ، والإفراغ : الصب ، وكذا قال أكثر المفسرين [1] . وقالت طائفة : القطر : الحديد المذاب ، وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنباري : هو الرصاص الذائب [2] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ، ولا قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه ، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً . فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله. فيستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم ،

---

(١) وحجتهم قوله تعالى : ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ :١٢] وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة الضحاك والسدي .

(٢) فتح القدير (٣١٣/٣) .

فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء . فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيقتلهم بها »
قال رسول الله ﷺ : **« والذي نفس محمدٍ بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم »** [١] ورواه أحمد أيضاً عن حسن هو ابن موسى الأشهب عن سفيان عن قتادة به ، وكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : حدث أبو رافع .
وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة ثم قال : غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، وإسناده جيد قوي ، ولكن متنه في رفعه نكارة ، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته [٢] ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون : غداً نفتحه . فيأتون من الغد وقد عاد كما كان فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون كذلك فيصبحون وهو كما كان فيلحسونه ويقولون : غداً نفتحه . ويلهمون أن يقولوا (إن شاء الله) فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه . وهذا متجه ، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه ، فحدث به أبو هريرة ، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه والله أعلم .

---

(١) رواه ابن ماجة (٤٠٨٠) الفتن ، وأحمد (٢/٥١٠، ٥١١) وابن حبان (١٩٠٨ موارد) ، والحاكم (٤/٤٨٨) وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . وصححه الألباني في الصحيحة (رقم ١٧٣٥) .

(٢) قال الألباني في الرد على كلام الحافظ ابن كثيرمن نكارة متنه لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته : لكن الآية لا تدل من قريب ولا بعيد أنهم لم يستطيعوا ذلك أبداً فالآية تتحدث عن الماضي والحديث عن المستقبل الآتي فلا تنافي ولا نكارة ، بل الحديث يتمشى تماماً مع القرآن في قوله: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ .

ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه ومن نكارة هذا المرفوع قول الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ – قال سفيان أربع نسوة – قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : « **لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا** » وحلق ، قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : «**نعم إذا كثر الخبث** » [1] هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث الزهري ، ولكن سقط في رواية البخاري ذكر أم حبيبة وأثبتها مسلم ، وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإسناد: منها رواية الزهري عن عروة وهما تابعيان ، ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده كلهن يروي بعضهن عن بعض ، ثم كل منهن صحابية ، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان ﷺ [2] .

قوله تعالى : ﴿ **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾ [الكهف : ٩٨] .

قال الزمخشري : ﴿ **هَذَا** ﴾ إشارة إلى السد ، أي : هذا السد نعمة من الله و ﴿ **رَحْمَةٌ** ﴾ على عباده . أو هذا الاقتدار والتمكين من تسويته ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي** ﴾ يعني : فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي جعل السد ﴿ **دَكَّاءَ** ﴾ أي : مدكوكاً مبسوطاً مُسوى بالأرض ، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك ، ومنه الأدك : المنبسط السنام ، وقرئ (دكاء) بالمد ، أي : أرضاً مستوية ﴿ **وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾ آخر حكاية قول ذي القرنين [3] .

---

(١) رواه البخاري (١١٣/١٣) الفتن ، ومسلم (١٨/ ٢ ، ٣) الفتن وأشراط الساعة.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٠٤/٣، ١٠٥) .

(٣) الكشاف (٧٤٨/٢) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- **قال القاسمي** - في ذكر فوائد القصة ، وقد جزم كما تقدم أنه الإسكندر ، وهو خلاف ما رجحناه ، فليتنبه القارئ ، وسوف نجعل «ذي القرنين» بين معكوفتين حتى تستقيم العبارة - ما ملخصه :

* **فمن فوائدها** : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض ، ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً ، لِمَا لَهُ من خَفِيِّ الحكم ، وباهر القدرة ، فلا إله سواه .

* **ومنها** : الإشارة إلى القيام بالأسباب ، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل ، وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر ، فإن ما قص عن الإسكندر [ذي القرنين] من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمْسِ ومطلعها وشمالها ، وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار ، وركوب الأوعار والبحار ، ثم إحرازه ذلك الفخار الذي لا يشق له غبار أكبر عبرة لأولي الأبصار .

* **ومنها** : تنشيط الهمم لرفع العوائق ، وأنه ما تيسرت الأسباب فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر عذراً في الخمول والرضا بالدون ، بل ينبغي أن ينشط .

* **ومنها** : أن مَنْ قدر على أعدائه وتمكن منهم فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال ، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال ، بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته ، فإن ما حكي عن الإسكندر [ذي القرنين] من قوله: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ إلى آخره نهاية في العدل وغاية الإنصاف.

* **ومنها** : أن على الملك التعفف عن أموال رعيته ، والزهد في أخذ الأجرة في مقابلة عمل يأتيه ما أغناه الله عنه ، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته.

* **ومنها** : تعريف الغير ثمرة العمل المهم ليعرفوا قدره ، فيظهروا شكره ، ولذا قال : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ [الكهف : ٩٨] .

* **ومنها** : الإعلام بالدور الأخروي وانقضاء هذا الطور الأولي ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقي والنعيم السرمدي ، ولذا قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ .

* **ومنها** : الاعتبار بتخليد جميل الثناء وجليل الآثار ، فإن مَنْ أنعم النظر فيما قُصَّ عنه في هذه الآيات الكريمة ، يتضح له جليًا حسن سجاياه وسمو مزاياه من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل ، ودأبه على توطيد الأمن وإثابة المحسنين وتأديبه للظالمين والإحسان إلى النوع البشري ، لاسيما في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة وحشية فاسدة [1] .

٢- وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف : ٩٥] : في هذه الآية دليل على أن المَلِك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم ، وسد فرجتهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم التي تفيء عليهم ، وحقوقهم التي تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره ، حتى لو أكلتها الحقوق وأنفذتها المؤن لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ، وذلك بثلاثة شروط :

الأول : ألاَّ يستأثر عليهم بشيء .

---

(١) باختصار من محاسن التأويل (١١/٨٧-٩٠) .

الثاني : أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم .

الثالث : أن يسوي في العطاء بينهم على قدر منازلهم .

فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفراً ، فأطْلَعت الحوادث أمراً بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير ، وتصرف بتدبير ، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج قال : لست أحتاج إليه ، وإنما أحتاج إليكم ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي : اخدموا بأنفسكم معي ، فإن الأموال عندي والرجال عندكم . ورأى أن الأموال لا تغني عنهم ، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه فيعود بالأجر عليهم ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى ؛ وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سراً ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر ، والله تعالى الموفق للصواب (١) .

٣- اندكاك هذا السد وخروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى .

قال الشنقيطي : قوله تعالى ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف : ٩٨-٩٩] .

اعلم أولاً أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه إن كان لبعض الآيات بيان من القرآن لا يفي بإيضاح المقصود ، وقد بينه النبي ﷺ فإنا نتمم بيانه بذكر السنة المبينة له ، وقد قدمنا أمثلة متعددة لذلك ، فإذا علمت ذلك

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/٤٠٩٩) .

فاعلم أن هاتين الآيتين الكريمتين لهما بيان من كتاب أوضحته السنة ، فصار بضميمة السنة إلى القرآن بياناً وافياً بالمقصود ، والله جل وعلا قال في كتابه لنبيه ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل : ٤٤]

فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة وآية الأنبياء قد دلتا في الجملة على أن السد الذي بناه ذو القرنين دون يأجوج ومأجوج إنما يجعله الله دكاً عند مجيء الوقت الموعود بذلك فيه ، وقد دلتا على أنه بقُرْبِ يوم القيامة لأنه قال هنا : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ... ﴾ الآية ، وأظهر الأقوال في الجملة المقدرة التي عوض عنها تنوين ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ من قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ أنه يوم إذ جاء وعد ربي بخروجهم وانتشارهم في الأرض ، ولا ينبغي العدول عن هذا القول لموافقته لظاهر سياق القرآن العظيم .

وآية الأنبياء المشار إليها هي قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ الآية [الأنبياء : ٩٦-٩٧] لأن قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ وإتباعه ذلك بقوله : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يدل في الجملة على ما ذكرنا في تفسير آية الكهف التي نحن بصددها ، وذلك يدل على بطلان قول من قال إنهم روسية وأن السد فتح منذ زمان طويل [1] .

*** *** ***

(١) باختصار من أضواء البيان (٤/١٨١ ، ١٨٢) .

٨- قصة قارون

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٧٦-٨٣]

بين يدي القصة :

هذه القصة التي سجلها الله عز وجل في كتابه عبرة للمعتبرين وذكرى للمتقين، هي قصة فتنة المال حيث ينشغل الناس في جمعه ، وحيث يدعو صاحبه إلى البغي وإلى العجب والكبر فينسى حق الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق: ٦-٧] والعبد لا يستغني عن ربه عز وجل طرفة عين ، ولكنه بجاهه وماله يظن أنه استغنى ، فيطغى عند ذلك على عباد الله ، والقصة تتكرر في كل عصر ومصر ، فأكثر أصحاب الأموال همهم أن يكثر المال

فيبخلون بزكاته ، وشدة حرصهم على المال وحبهم له يجعلهم يجمعونه من الوجوه المباحة وغير المباحة وقال ﷺ : « **ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه** »[1] فطالب المال كشارب ماء البحر، كلما ازداد شُرباً ازداد عطشاً ، ثم هذا الحرص ، وهو الحب الشديد والمبالغة في الطلب ، يفسد على العبد دينه الذي هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة ، وأكثر أصحاب الأموال لا يقولون بألسنتهم ما نطق به قارون : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [القصص : ٧٨] ولكنه يعتقد ذلك بقلبه ، فيظن أنه بمهارته وذكائه حَصَّل هذا المال الذي عجز عن تحصيله الآخرون ، والناس ينخدعون بالمظاهر الكاذبة والزيف الظاهر ويتحاسدون غالباً على الأعراض والزخارف ، فليتهم يتحاسدون على العلم النافع والعمل الصالح ، فأكثرهم إذا رأى أهل الدنيا يتقلبون في زينتها وزخارفها فيلبسون الثياب الفاخرة ، ويركبون السيارات الفاخرة ، وإن لم يقولوا بألسنتهم كما قال من قال: ﴿ **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ ولكنهم يتمنون ذلك بقلوبهم ، ولكن أهل العلم والإيمان أصحاب الموازين الصحيحة يعلمون أن الدنيا ظل زائل وعرض حائل ، وأن الآخرة هي الحيوان وأن ما عند الله خير ، وإنما ينفع المال إذا رزق العبد معه علماً وتقوى لله عز وجل وينفع العلم والتقوى كذلك بغير مال ، قال النبي ﷺ : « **إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي في ماله ربه ، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا ، فهذا بأحسن المنازل عند الله . ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول : لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان . فهو بنيته ، وهما في الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يخبط**

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٢/٩، ٢٢٣) الزهد وقال هذا حديث حسن صحيح وأحمد (٤٥٦/٣) وصححه الألباني في الصحيح ٥٤٩٦ وكذلك عبدالقادر الأرناؤوط في تحقيق جامع الأصول .

في ماله ، لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقًا ، فهذا بأسوأ المنازل عند الله . ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان . فهو بنيته وهما في الوزر سواء » [1] .

فقصة قارون هي قصة الغنى المطغي الذي ينسى العبد نفسه ، وينسيه ربه عز وجل فيتكبر ويتجبر ويبغي على عباد الله ، وينخدع الناس بمظاهر هذا الغنى ، ويظنون أن صاحبه من أسعد النَّاس وأحسنهم حَظًا ، وما علموا أن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحبه ، وذلك لحقارة الدنيا وقد قال الله عز وجل: ﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[الزخرف : ٣٣-٣٥] فلولا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر وتكون الفتنة شديدة على أهل الإيمان ، لفتح الله عز وجل على الكفار هذا الفتح في الدنيا لحقارتها ، ثم جعل الله عز وجل الآخرة الباقية هي نصيب المؤمنين. فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم ، وأن يحشرنا في زمرتهم.

وظهر في نهاية القصة ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ** ﴾ حقارة الدنيا وسرعة زوالها ، وانقلاب حلاوتها مرارة وزخرفها وزينتها دماراً وخسارة ، وهكذا الدنيا من وثق بها واغتر بظاهرها ونسي الآخرة ولم يطلب وجه ربه الأعلى ، تتقلب به الليالي والأيام ، ويذوق الويلات ، ويذهب إلى الآخرة صفر اليدين ، وقد ترك أمواله وعقاراته ، ولم يقدم لحياته ، فلا يجد في الآخرة إلا النار ، نعوذ بالله من حال أهل البوار .

---

(١) رواه الترمذي (٩/١٩٩-٢٠٠) أبواب الزهد وقال حسن صحيح وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٨) وأحمد (٤/٢٣٠ ، ٢٣١) وصححه الألباني .

ولنشرع في شرح الآيات فإنها أقوى تأثيراً وأقوم قيلاً .

قوله تعالى ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴾ .

قال القرطبي : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ** ﴾ لما قال تعالى : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا** ﴾ [القصص : ٦٠] بين أن قارون أوتيها واغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون ، ولستم أيها المشركون بأكثر عدداً ومالاً من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه. قال النخعي وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى. وقال ابن إسحاق : كان عم موسى لأب وأم . وقيل: كان ابن خالته (١).

وقال القاسمي : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ** ﴾ أي : من شاكلتهم في الكفر والطغيان ، وقوم موسى : جماعته الذين أرسل إليهم وهم القبط ، وطاغيتهم فرعون ﴿ **فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي: بالكبر والاستطالة عليهم لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ** ﴾ أي: من الأموال المدخرة ﴿ **مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ** ﴾ أي : مفاتيح صناديقه ، على حذف مضاف ، أو الإضافة لأدنى ملابسة ، وقيل : خزائنه ﴿ **لَتَنُوءُ** ﴾ أي: تثقل ﴿ **بِالْعُصْبَةِ** ﴾ أي : الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال ﴿ **أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ** ﴾ أي : بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴾ أي : هذا الفرح ، لما فيه من إيثارها عن الآخرة والرضا بها عنها والإخلاد إليها ، وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد (٢) .

وقال الزمخشري : وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن ، وأما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/٥٠٢٦) . (٢) محاسن التأويل (١٣/١٢٥ ، ١٢٦).

من قلبه إلى الآخرة ، ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح ، وما أحسن ما قال القائل :

أَشَدُّ الغمِّ عِندي في سُرُورٍ   تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاً [(١)]

قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قال الرازي ما ملخصه : ثم إنه تعالى بين أنه كان في قومه مَنْ وعظه بأمور :

أحدها : قوله ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ والمراد ألا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلاً .

وثانيها : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ والظاهر أنه كان مُقراً بالآخرة ، والمراد : أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة ، ويسلك طريقة التواضع .

وثالثها : قوله ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ وفيه وجوه : **أحدها**: لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا ، فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ ، فنهاه الواعظ عن ذلك . **وثانيها** : لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام أنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة . **وثالثها** : المراد منه الإنفاق في طاعة الله ، فإن ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب .

ورابعها : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ لما أمره بالإحسان بالمال أمره بالإحسان مطلقاً ، ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه ، وطلاقة الوجه ، وحسن اللقاء ، وحسن الذكر ، وإنما قال : ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ تنبيهاً على قوله : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

(١) الكشاف (٣/٤٣٠)، قال في الهامش عن الشعر أنه لأبي الطيب ومعناه : أشد الغم عندي وقت السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه وهكذا سرور الدنيا كله .

وخامسها: **قوله ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾** والمراد: ما كان عليه من الظلم والبغي ، وقيل : إن هذا القائل هو موسى عليه السلام . وقال آخرون : بل مؤمنوا قومه . وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد ، ولكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال : **﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾**[1].

قوله تعالى : **﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾** [القصص: ٧٨] .

قال ابن كثير رحمه الله ما ملخصه : يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نَصحوه وأرشدوه إلى الخير **﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾** أي : أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي . فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له . وهذا كقوله تعالى : **﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾** أي : على علم من الله بي . وكقوله تعالى : **﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾** أي : هذا أستحقه . وقد روي عن بعضهم أنه أراد **﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾** أي : كان يعاني علم الكيمياء . وهذا القول ضعيف ؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل ، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل ، قال الله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾** [الحج : ٧٣] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **يقول الله : ومن أظلم ممن ذهب**

---

(١) التفسير الكبير (١٤/٢٥/١٣) .

يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة »[1] وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زورٌ ومحال وجهل وضلال ، وإنما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة ، وهي كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الأمر ، وليس كذلك قطعاً لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحدٍ من الناس من هذه الطريقة التي يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون ، فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك، فهَذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات ، وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسماوات واختياره .

وقال بعضهم : إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم ، فدعا الله به ، فتمول بسببه ، والصحيح المعنى الأول ؛ ولهذا قال الله تعالى رادًا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه الله من المال : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أي : قد كان من هو أكثر منه مالاً ، وما كان ذلك من محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : لكثرة ذنوبهم[2] .

وقال القاسمي : ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : لا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤال ليعتذروا عنه ، بل متى حق عليها القول بفسقهم أهلكهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر . ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك ولا بنصيحة قومه

---

(١) رواه البخاري (١٠/٣٩٨) اللباس ، ومسلم (١٤/٩٤) اللباس .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٩٩ ، ٤٠٠) باختصار .

بقوله سبحانه [١] : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾.

قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم ، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله ، وغبطوا بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى، وهذه المقالة، وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية ﴿ لا يُلَقَّاهَا ﴾ إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده. وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات [٢].

قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

قال الشوكاني : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ يقال : خسف المكان يخسف خسوفاً : ذهب في الأرض ، وخسف به الأرض خسفاً : أي غاب به فيها ، والمعنى أن الله سبحانه غيبه وغيب داره في الأرض ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ هو في نفسه ﴿ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف [٣] .

(١) محاسن التأويل (١٣/١٢٦ ، ١٢٧).
(٢) قصص القرآن (٤٢٢).
(٣) فتح القدير (٤/١٨٧).

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢] .

قال الزمخشري : قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك ، ولكن الوقت المتقرب على طريق الاستعارة ﴿ مَكَانَهُ ﴾ منزلته في الدنيا (وي) مفصول عن (كأن) وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم . ومعناه أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ وتندموا ثم قالوا : ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح ، وهو مذهب الخليل وسيبويه قال :

وَيْ كأنْ من يكن له نَشبٌ يُحبَبْ   ومن يفتقر يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

وحكى الفراء أن أعرابية قالت لزوجها : أين ابنك ؟ فقال : وي كأنه وراء البيت . وعند الكوفيين « ويك » بمعنى : ويلك وأن المعنى : ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون . ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وى كقوله :

.... ويك عنتر أقدم [1] .

وقال القاسمي : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي: من شقي وسعيد ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يقبض. فلا دلالة في البسط على السعادة ، ولا في القبض على الشقاوة ، بل يفعل سبحانه كل واحدٍ من البسط والقدر بمحض مشيئته ، لا لكرامة توجب البسط ، ولا لهوان

(١) الكشاف (٣/٤٣٤) وتكملة البيت :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنتَر أقْدِم

يقتضي القبض ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي : بعدم إيتائه متمنانا ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي : كما خسف به ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : لنعمة الله في صرفها في غير سبيلها ، أو المكذبون برسله اغتراراً بزخارفهم [1] .

ثم عقب الله عز وجل هذه القصة بالعبرة الظاهرة ، وأتت في صورة السنة التي لا تبدل والقانون الذي لا يتغير ولا يتحول ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال القرطبي : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ يعني : الجنة ، وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها ، يعني: تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ﴾ أي : رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين ﴿ وَلا فَسَادًا ﴾ عملاً بالمعاصي . قاله ابن جريج ومقاتل . وقال عكرمة ومسلم البطين : الفساد أخذ المال بغير حق . وقال الكلبي : الدعاء إلى غير عبادة الله . وقال يحيى بن سلام : هو قتل الأنبياء والمؤمنين.

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قال الضحاك : الجنة [2] .

وقال ابن كثير : ثم أخبر تعالى أن ﴿ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ وهي : دار القرار ، وهي الدار التي يغتبط من أعطيها ، ويعزى من حرمها ، إنما هي معدة ﴿ لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾ فالعلو هو : التكبر والفخر والأشر والبطر . والفساد هو : عمل المعاصي اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3] .

---

(١) محاسن التأويل (١٣/١٢٨) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/٥٠٣٦).
(٣) قصص القرآن (٤٢٥).

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- قال القرطبي في تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] .

أي: اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة ، وهي الجنة ، فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة ، لا في التجبر والبغي ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ اختلف فيه : فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح ، فالكلام على هذا التأويل شدة في الموعظة . وقال الحسن وقتادة : معناه : لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه ، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة . قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله : احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . **وعن الحسن :** قدّم الفضل وأمسك ما يُبَلِّغ . **وقال مالك :** هو الأكل والشرب بلا سرف .

وقيل : أراد بنصيبه الكفن . فهذا وعظ متصل كأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن . ونحو هذا قال الشاعر :

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ ... رِدَاءَانِ تُلْوَى فِيهِمَا وَحَنُوطُ

وقال آخر :

هِيَ القَنَاعَةُ لا تَبْغِي بِهَا بَدَلاً ... فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَةُ البَدَنِ

انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ القُطْنِ[١] والكَفَنِ

قال ابن العربي : وأبدع ما فيه عندي قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا [٢] .

(١) الأولى أن يقول : بغير الزاد والكفن.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/٥٠٣٠).

٢- **قال ابن كثير** : وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٣-٢٤] وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود: ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٩ - ٤٠].

فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم ، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما ، إنهم كانوا خاطئين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبدالرحمن حدثنا سعيد حدثنا كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « **من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف** » انفرد به أحمد رحمه الله [1] .

٣- **قال الدكتور أحمد جمال العمري** : تمثل قصة قارون - في القرآن الكريم - جانب الطغيان بالمال والغرور بالعلم ، وكيف مآلها إلى الفناء إذا تسلطت الأهواء ، وسيطرت الأطماع ، وتحول الإنسان من مجرد مخلوق من مخلوقات الله إلى متجبر متكبر يعلو بنفسه فوق الناس ، ويزهو ويتعالى عليهم ، وينظر إليهم بمنظار الاستعلاء والاستكبار ، وقد وردت هذه القصة في القرآن على سبيل العظة والعبرة ، لإثبات أن

---

(١) قصص الأنبياء (٤٢٤ ، ٤٢٥) والحديث رواه أحمد (٢/١٦٩) والدارمي (٢/٣٠١) الرقاق، ومحمد بن نصر المروزي (٥٨) تعظيم قدر الصلاة ، وابن حبان (٤/ ٣٢٩) رقم ١٤٦٧ من الإحسان وصححه شعيب الأرناؤوط ، وقال الهيثمي : رجال أحمد ثقات.

كل شيء مآله إلى زوال وأن الباقي هو وجه الله ذو الجلال والإكرام (١) .

٤- **وقال الأستاذ سيد قطب :** في كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ، فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته، ولا أي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة من مالٍ أو منصب أو جاه ، ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى ! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه ، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها (٢) .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع ، وهم أعلى نفساً وأكبر قلباً من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعاً ، ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد وهؤلاء هم ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون ، الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم ، الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها ، الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون ، وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة ، درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان (٣) .

*** *** ***

(١) دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني للدكتور أحمد جمال العمري (٢٩٢) الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(٢) وهذا في الغالب وليس على عمومه فإن جملة من الناس يوسع الله عز وجل عليهم من الحلال وأما أكثرهم يجمعون المال من الوجوه المباحة والوجوه المحرمة ويمنعون الحقوق الواجبة .

(٣) في ظلال القرآن (٥/٢٧١٣) .

٩- قصة سبأ

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ١٥-٢١] .

بين يدي القصة :

بعد أن قص الله عز وجل علينا في هذه السورة المباركة قصة داود وسليمان ، وقد وهبهما الله عز وجل النبوَّة والملك ، وكانوا أمثلة للشكر ، وأدام الله عليهما نِعَمَهُ ، وزادهما من فضله ما لم يعط أحداً من العالمين ، ذكر الله عز وجل قصة هذه القرية التي كانت تسكنها قبيلة سبأ ، وكيف أن الله عز وجل وهبها من الخير العظيم والرزق العميم ، وعاملهم بمغفرته وفضله ، وكان عندهم من الزروع والنعيم وسهل لهم طرق السفر ، وجعل بينهم وبين قرى الشام التي يقصدونها أماكن للاستراحة والقيلولة والمبيت، بحيث إنهم لا يحسون مشقة السفر ، فكفروا بكل هذه النعم ، ولم يقوموا بالشكر عليها ، والله عز وجل حليم غفور شكور ، لا يعاقب بعقوبات الاستئصال والعذاب الشديد إلا المبالغين في الكفر ،

ويعامل المؤمن بمغفرته ورحمته ، وأشار إلى ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ أي : بمثل هذا العذاب ، فبدلهم الله عز وجل بهذه الجنان الوارفة الظل كثيرة الثمر بأشجار الأراك والشوك ، ولما كان أفضل هذه الأشجار السدر قال : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ وباعد بين أسفارهم ، فصاروا يسيرون في مفاوزَ وقفار ، وفقدوا أماكن الظل والراحة ، وتفتت قبيلتهم شذرَ مَذَرَ ، فبدلهم الله بنعيمهم عذاباً ، وبراحتهم مشقة ، وبعد اجتماعهم تفرقاً وشتاتاً ، ومَزَّقهم كل ممزق آية للصابرين والشاكرين ، وعبرة للمعتبرين وذكرى للعالمين .

ولنشرع في شرح الآيات الكريمات :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] .

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التتابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان ﷺ من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر كما سيأتي إن شاء الله تفصيله وبيانه قريباً وبه الثقة . قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو عبدالرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبدالله بن هبيرة عن عبد الرحمن بن وعلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ؛ ما هو ، أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال ﷺ : « **بل هو رجل ولد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير ، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة**

وغسان »(١) ورواه عبد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة به ، وهذا إسناد حسن ولم يخرجوه . ومعنى قوله ﷺ : « **ولد له عشرة من العرب** » أي : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم مَنْ بينَهُ وبينَهُ الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر كما هو مقرر مبينٌ في مواضعه من كتب النسب . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتى ارتفع الماء وحكِمَ على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن .

كما ذكر غير واحدٍ من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذي تخترف فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه . وكان هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف . وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيءٌ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيءٌ من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ، ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أي : من ناحيتي الجبلين ، والبلدة بين ذلك ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أي : غفور لكم إذا استمررتم على التوحيد (٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ : ١٦] .

---

(١) رواه أحمد (١/٣١٦) . قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وبقية رجالهما ثقات .

(٢) باختصار من تفسير القرآن العظيم (٣/٥٣٠-٥٣٢).

قال القاسمي : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي : عن الشكر ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ أي : سيل الأمر العرم أي : الصعب ، والمطر الشديد، أو الوادي، أو السكْر الذي يحبس الماء، أو هو البناء الرَّصين المبني بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخزنها ، وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم ، فلما طغوا أهلكهم الله بخراب هذا البناء ، فانهال عليهم تيار مائه ، فأغرق بلادهم ، وأفسد عمرانهم وأرضهم ، واضطر من نجا منهم للنزوح عنها ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ أي : ثمر مُرٍّ ، أو بَشِع لا يؤكل ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ وهو شجر النبق، أي: قلة لا تسمن ولا تغني من جوع، فهذا تبديل النعم بالنقم ، لمن لم يشكر النعم[1] .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ [سبأ : ١٧]

قال الشوكاني : الإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى ما تقدم من التبديل أو إلى مصدر ﴿ جَزَيْنَاهُم ﴾ والباء في ﴿ بِمَا كَفَرُوا ﴾ للسببية أي : ذلك التبديل أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ أي: وهل نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ فيه[2].

وقال الزمخشري : والمعنى أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر ، وهو العقاب العاجل ، وقيل : المؤمن تكفر سيئاته بحسناته ، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء .

ووجه آخر : وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة في معنى المعاقبة وأخرى في معنى الإثابة ، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله : ﴿ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ بمعنى : عاقبناهم بكفرهم . قيل : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ بمعنى : وهل يعاقب ؟ وهو الوجه الصحيح ، وليس لقائل أن يقول : لم قيل ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ على اختصاص الكفور بالجزاء والجزاء عام للكافر والمؤمن ،

(١) محاسن التأويل (١٤/١٢) . (٢) فتح القدير للشوكاني (٤/٣٢١) .

لأنَّهُ لم يرد الجزاء العام وإنما أراد الخاص وهو العقاب، بل لا يجوز أن يراد العموم، وليس بموضعه . ألا ترى أنك لو قلت : جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكافر والمؤمن لم يصح ، ولم يسد كلاماً، فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [1] .

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

قال القرطبي ما ملخصه: قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ قال الحسن : يعني : بين اليمن والشام ، والقرى التي بورك فيها : الشام والأردن وفلسطين ، والبركة قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء ، ويحتمل أن يكون ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بكثرة العدد ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ يريد بين المدينة والشام .

وقال قتادة : معنى ﴿ ظَاهِرَةً ﴾ متصلة على الطريق ، يغدون فيقيلون في قرية ، ويروحون فيبيتون في قرية، وقيل: ﴿ ظَاهِرَةً ﴾ أي: مرتفعة ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أي : جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيراً مقدراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية ، أي : جعلنا بين كل قريتين نصف يوم ، حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى ، وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد ﴿ سِيرُوا فِيهَا ﴾ أي : وقلنا لهم سيروا فيها أي : في هذه المسافة فهو أمر

(١) الكشاف (٢/٥٧٠ – ٥٧٧) .

تمكين أي : كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين فهو أمر بمعنى : الخبر ، أي : كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه [١] .

قال الرازي : وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين : أحدهما : أن يسألوا بطراً كما طلبت اليهود الثوم والبصل ، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر ، كما يقول القائل لغيره : اضربني إشارة إلى أنه لا يقدر عليه ، ويمكن أن يقال : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا بَاعِد ﴾ بلسان الحال ، أي : لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ، ويخرب المعمور من ديارهم ، وقوله : ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُم ﴾ يكون بياناً لذلك ، وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيث ﴾ أي : فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلاً ، يقال: تفرقوا أيدي سبأ. وقوله : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ بيان لجعلهم أحاديث، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : فيما ذكرناه من حال الشاكرين ، ووبال الكافرين [٢] .

وقال القرطبي : لما بطروا وطغوا وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة ، كقول بني إسرائيل ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا ﴾[البقرة :٦١] وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾[الأنفال : ٣٢] فأجابه الله تبارك وتعالى وقتل يوم بدر بالسيف صبراً [٣] فكذلك هؤلاء تبددوا في الدنيا ومُزِّقوا كل ممزق ، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ، ويتزودون الأزواد [٤] .

(١)، (٤) الجامع لأحكام القرآن (٥٣٧٢/٦). (٢) التفسير الكبير (٢١٩/٢٥/١٣).

(٣) يقال للرجل إذا شدت يداه ورجلاه ، أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه ، أو حبس على القتل حتى يقتل : قتل صبراً .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ٢٠-٢١] .

قال ابن كثير ما ملخصه : لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ثم ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٢] وقال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات في هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : من حجة . وقال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله عز وجل : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أي : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ممن هو منها في شك .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي : ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من أتباع الرسل [١].

---

(١) باختصار من تفسير القرآن العظيم (٣/٥٣٥ ، ٥٣٦) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- قال القرطبي في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ : ١٧] .

في هذه الآية سؤال ليس في هذه السورة أشد منه ، وهو أن يقال : لم خص الله تعالى المجازاة بالكفور ، ولم يذكر أصحاب المعاصي ؟ فتكلم العلماء في هذا فقال قوم : ليس يجازي بهذا الجزاء الذي هو الاصطلام والإهلاك إلا من كفر .

قال مجاهد : يجازي بمعنى يعاقب ؛ وذلك أن المؤمن يُكَفِّر الله تعالى عنه سيئاته ، والكافر يجازى بكلِّ سوءٍ عمله ، فالمؤمن يجزى ولا يجازى ، لأنه يثاب .

وقال طاوس : هو المناقشة في الحساب ، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب.

وقال قطرب خلاف هذا ، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار وقال : المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر .

وقال النحاس:وأولى ما قيل في هذه الآية وأجل ما روي فيها أن الحسن قال:مثلاً بمثل .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **من حوسب هلك** » فقلت : يا نبي الله فأين قوله جل وعز ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ [الانشقاق : ٧] قال: « **إنما ذلك العرض، ومن نوقش الحساب هَلك** » [1] وهذا إسناد صحيح، وشرحه : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير ، ويبين هذا قوله تعالى في الأول ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ وفي الثاني ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ ومعنى ﴿نُجَازِي﴾ يكافأ بكل عمل عمله ، ومعنى ﴿جَزَيْنَاهُم﴾ : وفّيناهم ، فهذا حقيقة اللغة ، وإن كان « جَازَى » يقع بمعنى «جَزَى» مجازاً[2] .

*** *** ***

---

(١) رواه البخاري (١١/٤٠٠) الرقاق ، ومسلم (١٧/٢٠٨) صفة يوم القيامة ، والترمذي (١١/٢٥٨) صفة القيامة ، وأحمد (٦/٤٧ ، ٩١ ، ١٢٧) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/٥٣٧٠ ، ٥٣٧١) .

١٠ - قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون

قال الله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس : ١٣-٣٠] .

بين يدي القصة :

هذه القصة مثل من أمثلة الدعوة إلى الله عز وجل وقد استفرغ الدعاة إلى الله عز وجل جهدهم في البلاغ والنصيحة والتضحية من أجل هداية قومهم ، وكان القوم غاية في الغباوة والكفر والتكذيب ، فلم ينفعهم نصح الناصحين ووعظ الواعظين ، وإن كانت عاقبة المؤمنين والمكذبين قد تتشابه في النظر القاصر على الدنيا ، الجاحد للآخرة ، إلا أن الله عز وجل الذي أحاط بكل شيء علماً ويستوي

في علمه السر والعلانية ، والغيب والشهادة ، بين لنا كيف أن المؤمن ما هي إلا لحظة القتل ، والشهيد لا يذوق من مس القتل إلا كما يذوق من مس القرصة ، فما هي إلا مَسٌّ القرصة ثم ينتقل إلى كرامة الله ورحمته ، والداعية تتغلغل الدعوة في قلبه مع أنه ليس عليه هداهم ، إلا أنه حريص على هداية قومه كما قال الله تعالى في حق نبيه محمد ﷺ ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢] فقال هذا المؤمن ، وقد انتقل من دار الجهد والبلاء ، إلى دار النعيم والجزاء : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ فتمنى لو أن قومه الذين قتلوه نصراً للباطل وغيرة على الكفر اطلعوا على ما آل إليه أمره من النعيم المقيم والسعادة في جوار رب العالمين ؛ لعل ذلك يجعلهم يراجِعُونَ أنفسهم ويثوبون إلى رشدهم ويتوبون إلى ربهم ، وكما أن العاقبة كانت أحسن العواقب للمؤمن الذي قام بواجب الدعوة والبيان ، كانت عاقبة الكفر والكافرين أوخم العواقب وأبشعها ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ قال الله عز وجل ذلك تحقيراً لشأنهم وكيف أن الأمر لم يستأهل نزول ملائكة من السماء ، وإنما كانت صيحة واحدة أرضية أو سماوية ، أو من جبريل عليه السلام فإذا هم خامدون ، فأين التهديد ؟ وأين الوعيد ؟ وأين صولة الباطل وانتعاش المبطلين ؟ ما هي إلا صيحة واحدة خسروا بها الدنيا والآخرة ، وانتقلوا من عقوبة الدنيا وعذابها إلى عقوبة الآخرة وجحيمها ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

ولنشرع في شرح الآيات الكريمات :

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

قال الشوكاني : المعنى : اضرب لأجلهم مثلاً ، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلاً ، أي : مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية ، فعلى الأول لما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ قال قل لهم : ما أنا بِدعاً من الرسل ، فإن قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون ، وأنذروهم بما أنذرتكم ، وذكّروا التوحيد ، وخوفوا بالقيامة ، وبشروا بنعيم دار الإقامة .

وعلى الثاني : لما قال إن الإنذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي صلي الله عليه وآله وسلم اضرب لنفسك ولقومك مثلاً ، أي : مثل لهم عند نفسك مثلاً بأصحاب القرية حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا ، وصبر الرسل على الإيذاء ، وأنت جئت إليهم واحداً ، وقومك أكثر من قوم الثلاثة ، فإنهم جاءوا إلى أهل القرية ، وأنت بعثتك إلى الناس كافة ، والمعنى : واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية ، أي : اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، فترك المثل ، وأقيم أصحاب القرية مقامه في الإعراب .

قال القرطبي : هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين [وسوف يأتي ما في هذا القول إن شاء الله تعالى] .

وقوله : ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُون ﴾ قيل : رسل من الله على الابتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله [1] .

قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُون ﴾

قال ابن كثير رحمه الله : وقوله تعالى ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أي : بادروهما بالتكذيب ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِث ﴾ أي : قويناهما وشددنا أزرهما برسول

---

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن (٥٤٥٨/٦)

ثالث ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي : لأهل تلك القرية ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أي : من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له. قاله أبوالعالية ، وزعم قتادة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي : فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ، ونحن بشر ، فلم لا أوحي إلينا مثلكم ، ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي : استعجبوا من ذلك وأنكروه .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾[إبراهيم : ١٠] وقوله تعالى حكاية عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾[المؤمنون : ٣٤] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إلا أَن قَالُوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ (١).

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾.

قال الزمخشري : وقوله : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ جار مجرى القسم في التوكيد ، وكذلك قولهم : شهد الله ، وعلم الله ، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم : ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي : الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته ، وإلا فلو قال المدعي : والله إني لصادق فيما أدعي ، ولم يحضر البينة كان قبيحاً .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

قال الزمخشري ما ملخصه : ﴿ تَطَيَّرْنَا بِكُم ﴾ تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا

---

(١) باختصار من تفسير القرآن العظيم (٣/٥٦٧) .

إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا : ببركة هذا وبشؤم هذا . كما حكى الله عن القبط : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ [الأعراف : ١٣١] وعن مشركي مكة : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء : ٧٨] ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ وقرئ « طيركم » أي : سبب شؤمكم معكم ، وهو كفركم أو أسباب شؤمكم معكم ، وهي : كفرهم ومعاصيهم.

وقرئ ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط ، و « آئن » بألف بينهما بمعنى: أتطيرون إن ذكرتم، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ في العصيان؛ ومن ثمّ أتاكم الشؤم ، لا من قبل رسل الله وتذكيرهم ، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله [١].

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس : ٢٠-٢١] .

قال الرازي ما ملخّصه : ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان :

أحدهما : أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي ، وعلى هذا فقوله : ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ فيه بلاغة باهرة ، وذلك لأنه لما ﴿ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة .

وثانيهما : أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه بعد الفراغ من ذكر الرسل بسعي المؤمنين في تصديق رسلهم ، وصبرهم على ما أوذوا ووصول الجزاء الأوفى إليهم ؛ ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد ، كما أن ذكر

---

(١) باختصار من الكشاف (٤/٩) .

المرسلين تسلية لقلب محمد ﷺ .

وفي التفسير مسائل :

المسألة الأولى : قوله : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ في تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله فائدتان :

الأولى : أن يكون تعظيماً لشأنه أي : رجل كامل الرجولية .

الثانية : أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين ، حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به ، فلا يقال إنهم تواطئوا .

المسألة الثانية : قوله : ﴿ يَسْعَى ﴾ تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ؛ ليكونوا في النصح باذلين جهدهم . وقوله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ فيه معانٍ لطيفة :

الأول : في قوله : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ فإنه ينبئ عن إشفاق عليهم وشفقة ، فإن إضافتهم إلى نفسه بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً ، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ ﴾ [غافر : ٣٨] فإن قيل : قال هذا الرجل ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال ذلك ﴿ اتَّبِعُونِ ﴾ فما الفرق؟ نقول : هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته ، فقال : اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل ، وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مراراً فقال اتبعوني في الإيمان بموسى وهارون عليهما السلام واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسي ، وأنتم تعلمون أني اخترته ، ولم يكن للرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى أن يقول : أنتم تعلمون اتباعي لهم .

الثاني : جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ نصيحة وقوله: ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إظهار أنه آمن .

الثالث : قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان ؛ لأنه كان ساعياً في النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله ﴿ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ يدل على كونه مريداً

للنصح .

ثم قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُون ﴾ وهذا في غاية الحسن ، وذلك من حيث إنه لما قال : ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِين ﴾ كأنهم منعوا كونهم مرسلين ، فنزل درجة وقال : لاشك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة ، وطالبون للاستقامة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين : إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة ، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق . لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة ، وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين ، أليسوا بمهتدين ؟ فاتبعوهم [١] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُون ﴾ .

قال القاسمي : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي : خلقني. وهذا تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه ، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبئ عنه قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ أي : بعد الموت ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أي : فأضرع إليها وأعبدها ، وهي في المهانة والحقارة بحيث ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُون ﴾ أي : من ذلك الضر بالنصر والمظاهرة ، وفيه تحميق لهم لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق كيف يعبد؟ [٢].

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ [يس : ٢٥-٢٧] .

(١) باختصار من التفسير الكبير (١٣ / ٢٦/٤٨ – ٤٩) .
(٢) محاسن التأويل (١٤/٦٥) .

قال الزمخشري : يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني ، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه ، أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم ، وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ، ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ، ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه ! إنكم لفي هذا الاستحباب في ضلالٍ ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز . وقيل : لما نصح قومه أخذوا يرجمونه ، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ أي : اسمعوا إيماني تشهدوا لي به [1] .

قوله : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس : ٢٦-٢٧] .

قال ابن كثير : قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً ، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى: ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه.

وقال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وبعد مماته في قوله: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ رواه ابن أبي حاتم . وقال سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ بإيماني بربي وتصديق المرسلين ، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضي عنه فلقد كان حريصاً على هداية قومه [2].

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس : ٢٨-٢٩] .

(١) الكشاف (٤/١٠-١١) باختصار .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٦٨) .

قال الزمخشري ما ملخصه : المعنى : أن الله كفى أمرهم بصيحة مَلَكٍ، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق ، فإن قلت : وما معنى قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ قلت : معناه : وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء ، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض ، وما ذلك إلا بناءً على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت : ٤٠] فإن قلت : فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ، قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب : ٩] ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال : ٩] ﴿ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٤] ﴿ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ؟ .

قلت : إنما كان يكفي ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ، ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل ، فضلاً عن حبيب النجار ، وأولاه من أسباب الكرامة والإعذار ما لم يوله أحداً ؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء وكأنه أشار بقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا ﴾ ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك وما كنا نفعله بغيرك ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ خمدوا كما تخمد النار فتعود رماداً كما قال لبيد :

وَمَا المَرْءُ إلا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِعُ[1]

قوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

(١) الكشاف باختصار وتصرف (٤/١٢ - ١٣) .

قال الرازي : ثم قال تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أي : هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة ، والتنكير للتكثير وفيه مسائل :

المسألة الأولى : الألف واللام في العباد يحتمل وجهين :

أحدهما : للمعهود الذين أخذتهم الصيحة ، فيا حسرة على أولئك .

وثانيهما : لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين .

المسألة الثانية : من المتحسر ؟ نقول : فيه وجوه :

الأول : لا متحسر أصلاً في الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة ، حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

الثاني : أن قائل يا حسرة هو الله على الاستعارة تعظيماً للأمر وتهويلاً له .

الثالث : المتلهفون من المسلمين والملائكة .

إلى أن قال رحمه الله : ثم بين تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهذا سبب الندامة ، وذلك لأن من جاءه مَلِكٌ من بادية وأعرفه نفسه ، وطلب منه أمراً هيناً ، فكذبه ولم يجبه إلى ما دعاه ، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه ، فعرفه أنه ذلك ، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه ، فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم بإعزاز الله إياهم وجعلهم توابه كما قال : ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] وجاءوا وعرفوا أنفسهم ، ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحس ، ثم يوم القيامة أو عند ظهور اليأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم ، وكان ما يدعون إليه أمراً هيناً نفعه عائد إليهم من عبادة الله ، وما كانوا يسألون عليه أجرا، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة ، وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزؤوا واستخفوا واستهانوا (١) .

(١) باختصار من التفسير الكبير (٥٦/٢٦/١١) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- قال ابن كثير رحمه الله : قد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ إلى أن قالوا ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكروه عند قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً ، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة

النصرانية ولا قبل ذلك . والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ ملخصاً [١].

٢- قال القرطبي في قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ : وفي معنى تمنيه قولان :

أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا بحاله ، ليعلموا حسن ماله وحميد عاقبته .

الثاني : تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه ، فيصيروا إلى مثل حاله ، قال ابن عباس: نصح قومه حيًا وميتاً .

وفي هذه الآية تنبيه عظيم ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام [٢].

٣- قال الرازي في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لما قال : ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحي القيوم ، ومن عبادة ما لا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع ، وفيه لطائف أخرى ؛ قوله : ﴿ مَا لِي ﴾ أي : مَا لِيَ مَانع من جانبي ، إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لا خفاء فيه ، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ، ولا مانع من جانبي ، فلا جرم عبدته ، وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى **ولطيفة ثانية: وهي** أنه لو قال ما لكم لا تعبدون الذي فطركم، لم يكن في البيان مثل قوله : ﴿ وَمَا لِي ﴾ لأنه لما قال : ﴿ وَمَا لِي ﴾ وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحدٍ أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد ، لأنه أعلم بحال نفسه ، فهو يبين عدم المانع ، وأما لو قال : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ جاز أن يفهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥٦٩/٣ ، ٥٧٠) باختصار .

(٢) باختصار من الجامع لأحكام القرآن (٥٤٦٤/٦) وهو بتصرف من الكشاف (١١/٤) .

منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه ، فإن قيل : قال الله : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : ١٣] نقول: القائل هناك غير مدعو، وإنما هو داع، وهنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ ﴾ وقد طلب مني ذلك .

الثالثة : قوله : ﴿ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ إشارة إلى وجود المقتضى فإن قوله : ﴿ وَمَا لِي ﴾ إشارة إلى عدم المانع ، وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى فقوله : ﴿ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ينبئ عن الاقتضاء ، فإن الخالق ابتداءً مالك ، والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه .

الرابعة : قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى ، مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع ، فيوجد لأن المقتضى لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه .

الخامسة : اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُد ﴾ بإسناد العبادة إلى نفسه ، اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه، وبيان ذلك هو أن خالق عمرو يجب على زيد عبادته ، لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة ، شامل العلم ، واجب الوجود ، وهو مستحق للعبادة على كل مكلف ، لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ إشارة إلى الخوف والرجاء كما قال : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[الأعراف : ٥٦] وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى ، وفيه أيضاً معنى لطيف ، وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مراراً : **فالأول** : عابد يعبد الله لكونه إلهاً مالكاً سواء أنعم بعد ذلك أو لم ينعم، كالعبد الذي يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن إليه أو أساء .

الثاني : عابد يعبد الله للنعمة الواصلة إليه . **الثالث** : عابد يعبد الله خوفاً [١] .

---

(١) التفسير الكبير (١٣/٢٦/٤٩-٥٠) باختصار. والواجب على المسلم أن يعبد الله =

٤- قال الأستاذ سيد قطب في وصف خاتمة القصة :

يوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه ، وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة ، وإنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القوم وما هم فيه ، ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق متبعاً صوت الفطرة ، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل ، نراه في العالم الآخر ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة ، ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء ، وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة ، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق ، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين ، ونرى الرجل المؤمن وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة يذكر قومه طيب القلب رضي النفس ، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق معرفة اليقين .

هذا كان جزاء الإيمان ، فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره ، فهو ضعيف ضعيف : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم ، تهويناً لشأنهم وتصغيراً لقدرهم، فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم [١] .

*** *** ***

= عز وجل حباً ورجاءً وخوفاً وقد يغلب أحد هذه الثلاثة في بعض الأوقات أو الأشخاص ، ولكن العبادة لا تخلو من ذلك ، فقد قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئي ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

(١) في ظلال القرآن (٢٩٦٤/٥) بتصرف .

١١ - قصة مؤمن آل فرعون

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا

يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٢٦-٤٦] .

بين يدي القصة :

الصراع بين الإيمان والكفر قصته واحدة يختلف الأفراد من الطغاة والجبابرة ، ومن المؤمنين ، ولكنَّ الصراع واحد ، وأدلة أهل الإيمان على إيمانهم واحدة وشبهات الطغاة والجبابرة واحدة ، كما أن النهاية كذلك واحدة ، فالباطل ينتفش ويبدو بأسبابه الأرضية كأنه على كل شيء قدير ، ولكنه عندما يواجه الحق الذي يستمد قوته من الله عز وجل تكون العاقبة للمتقين ، والهلاك والعذاب للطغاة والمتكبرين .

والذي معنا في هذه القصة ليس نبيًا من الأنبياء ، ولكنه مؤمن صادق الإيمان ، قوي الحجة ، يدعو إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد ظل يكتم إيمانه حتى يقبل قوله في الوقت الذي تنفع فيه نصيحته ، وتقبل دعوته ، وقد أظهر إيمانه عندما اشتد الخلاف واحتدم النزاع بين طاغية الزمان فرعون وبين رسول رب الأنام موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦].

واحتمى موسى بجناب الله الذي يحتمي به المؤمنون ، ويثق به المتقون فقال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر : ٢٧] .

وقد كان رحمه الله ورضي عنه يقودهم في مناظرته بالمنطق الطيب والحجة الدامغة، فأنكر أولاً عليهم كيف يقتلون من يقول ربي الله ولا مصلحة في ذلك لأنه إن كان كاذباً على الله فسينتقم الله منه فيكفيهم أمره، وإن كان صادقاً انتقم الله عز وجل منهم ، ثم أخبرهم بأن معاداة أولياء الله من أعظم أسباب هلاك الأمم، وزوال سلطان الحكام ، ثم استرجع بهم الأمم المكذبة قوم عاد وثمود والذين من بعدهم ، كما ذكرهم بنبي الله يوسف، وكيف كان شأنهم معه ، ثم قارن لهم بين دعوته لهم ودعوتهم ، وكيف أن دعوته إلى الله عز وجل دعوة إلى النجاة والسعادة الأبدية ، ودعوتهم إلى الكفر والشرك دعوة إلى النار ، ثم فوض أمره إلى الله عز وجل ولاشك أنهم مكروا به ، وكادوا له ، ولكن العاقبة كما قال الله عز وجل للمتقين ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ .

فكان حظه النجاة من كيد الدنيا وعذاب الآخرة ، والفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، وكان عاقبة فرعون وآله وجنوده الهلاك في الدنيا بالغرق ، وعرض أرواحهم على النار وفي البرزخ ، ويستمر بهم ذلك إلى أن تقوم الساعة فيأمر الله عز وجل بهم إلى أشد العذاب ، نعوذ بالله من أسباب الخسران والخذلان .

ولنشرع في شرح الآيات الكريمات :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦] .

قال الزمخشري : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ كانوا إذا همَّ بقتله كفُّوه بقولهم ليس بالذي تخافه ، وهو أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلا بعض السحرة ، ومثله

لا يقاوم إلا ساحراً مثله ، ويقولون : إذا قتلته أدخلت الشبهة على النّاس واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة ، والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ، ولكن الرجل كان فيه خِبٌ وجربزة وكان قتالاً سفّاكا للدّماء في أهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه هو الذي يثل عرشه ، ويهدم ملكه ، ولكنه كان يخاف إن هَمَّ بقتله أن يعاجل بالهلاك ، وقوله : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه ، وكان قوله : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه ، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي : يغير ما أنتم عليه ، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام بدليل قوله : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه [١] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر : ٢٧]

قال ابن كثير : أي : عذت بالله ، ولجأت إليه ، واستجرت بجنابه ، من أن يسطو فرعون وغيره عَلَيَّ بسوء ، وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي : جَبَّارٍ عَنِيدٍ لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاءً ، ولهذا قال : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾.

---

(١) الكشاف (٤/١٦٠-١٦١) باختصار .
(٢) قصص الأنبياء (٣٣٣ ، ٣٣٤).

قال الشوكاني : قال الحسن ومقاتل والسدي : كان قبطيًا وهو ابن عم فرعون، وهو الذي نجا مع موسى ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ ﴾ الآية [القصص : ٢٠] وقيل : كان من بني إسرائيل ، ولم يكن من آل فرعون ، وهو خلاف ما في الآية ، وقد تمحل لذلك بأن في الآية تقديماً وتأخيراً . والتقدير : وقال رجل مؤمن من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون، **قال القشيري** : ومن جعله إسرائيليًا ففيه بعد ، لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾[النساء : ٤٢] وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول [١] .

وقال الزمخشري ما ملخصه : ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ لأن يقول ، وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها، وهي قوله : ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ مع أنَّه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة ، ولكن بيناتٍ عدة ، من عند من نسب إليه الربوبية ، وهو ربكم لا ربُّه وحده ، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به ولِيُلَيِّنَ بذلك جماحهم ، ويكسر من سورتهم ، وقوله: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها ، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً فإن ﴿ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ أي يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ﴾ ما يعدكم إن تعرضتم له . فإن قلت : لم قال : ﴿ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ وهو نبي صادق لابد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه ؟ قلت : لأنه في مقاولة خصوم موسى ومُنَاكِرِيهِ إلى أن يلاوههم ويداريهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ، ويأتيهم من وجهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وتقديم

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/٤٨٨ ، ٤٨٩).

الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل [١] .

وقال القاسمي : قال الناصر : ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٢٦-٢٧] فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالاً بأن الحق معه، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة ، وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ، ما في قصة يوسف مع أخيه . إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . انتهى[٢] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ .

قال الشوكاني: وهو احتجاج آخر ذو وجهين : **أحدهما**: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات ، وأيده بالمعجزات .

وثانيهما : أنه إذا كان كذلك خذله الله وأهلكه ، فلا حاجة لكم إلى قتله ، والمسرف : المقيم على المعاصي المستكثر منها . والكذاب : المفتري [٣].

قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

قال ابن كثير : وقوله ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز ، فإنه ما تعرضت الدولة للدين إلا سلبوا ملكهم ، وذلوا بعد عزهم . وكذا وقع لآل فرعون ، ما زالوا في شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به ، حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك

---

(١) الكشاف (٤/١٦٢) باختصار.
(٢) محاسن التأويل (١٣/٢٣٢).
(٣) فتح القدير (٤/٤٨٩).

والأملاك والدور والقصور ، والنعمة والحبور ، ثم حولوا إلى البحر مُهَانِين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين . ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه ، الكامل العقل : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ﴾ أي : لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعُدَّة ، والقوة والشدة ، لما نفعنا ذلك ، ولا رد عنا بأس مالك الممالك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي : في جوابه هذا كله ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ ﴾ أي : ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين ، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً وعتُوّاً وكفراناً ، قال الله تعالى إخباراً عن موسى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] وقال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .

وأما قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ فقد كذب أيضاً ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال في دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال [١] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا

---

(١) قصص القرآن باختصار (٣٣٥ - ٣٣٦) .

قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر : ٣٠ - ٣٣] .

قال الرازي ما ملخصه : واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعاً من الكلمات ذكرها لفرعون ، **فالأول** قوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ والتقدير : مثل أيام الأحزاب ، إلا أنه لما أضاف اليوم إلى الأحزاب ، وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود فحينئذٍ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين في البلاء ، فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس ثم فسر قوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ بقوله : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ ودأب هؤلاء دونهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي فيكون ذلك دائباً دائما لا يفترون عنه ، ولابد من حذف مضاف ، يريد مثل جزاء دأبهم ، والحاصل أنه خوفهم بهلاك معجلٍ في الدنيا ، ثم خوفهم أيضاً بهلاك الآخرة وهو قوله:﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة.

والنوع الثاني من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ يعني أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلاً ، لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء ، فتلك الجملة قائمة ههنا فوجب حصول الحكم ههنا .

النوع الثالث من كلمات هذا المؤمن ، قوله : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى : التناد تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم أي : نادى بعضهم بعضاً ، وأجمع المفسرون على أن يوم التناد يوم القيامة وفي سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه :

الأول : أن أهل النار ينادون أهل الجنة ، وأهل الجنة ينادون أهل النار .

الثاني : قال الزجاج : لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] .

الثالث : أنه ينادي بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور ، فيقولون :﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾

الرابع : ينادون إلى المحشر أي : يُدعَون .

الخامس : ينادي المؤمن ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : ١٩] والكافر ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : ٢٥] .

السادس : ينادي باللعنة على الظالمين .

السابع : يجاء بالموت على صورة كبش أملح ، ثم يذبح وينادى يا أهل القيامة لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، وأهل النار حزناً على حزنهم .

الثامن : قال أبو علي الفارسي : التنادي مشتق من التناد من قولهم نَدَّ فلان إذا هرب ، وهو قراءة ابن عباس فقال : يندون كما تند الإبل ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾[عبس:٣٤] الآية وقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ لأنهم إذا سمعوا زفير النار يندون هاربين ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه .

المسألة الثانية : انتصب قوله : ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ لوجهين : **أحدهما** : الظرف للخوف كأنه خاف عليهم في ذلك اليوم لما يلحقهم من العذاب إن لم يؤمنوا ، **والآخر**: أن يكون التقدير : إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَاب يوم التناد . إذا كان كذلك كان انتصاب يوم التناد المفعول به.

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ وهو بدل من قوله : ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ عن

قتادة : منصرفين عن موقف يوم الحساب إلى النار . ثم أكد التهديد فقال : ﴿ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ثم نبه على قوة ضلالهم وشدة جهالتهم فقال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر : ٣٤] .

قال ابن كثير رحمه الله : وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعني : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ أي : يئستم فقلتم طامعين : ﴿ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أي : كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

قال ابن الجوزي : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ قال الزجاج : هذا تفسير المسرف المرتاب . والمعنى : هم الذين يجادلون في آيات الله .

قال المفسرون : يجادلون في إبطالها والتكذيب بها بغير سلطان ، أي : بغير

(١) باختصار من التفسير الكبير (٥٣/٢٧/١٤-٥٤) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧٩/٤).

حجة أتتهم من الله .

﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ أي : كبر جدالهم مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا .

والمعنى : يمقتهم الله ويمقتهم المؤمنون بذلك الجدال .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : كما طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا وجادلوا بالباطل يطبع ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ عن عبادة الله وتوحيده [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦] .

قال ابن كثير : كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص : ٣٨] وقال ها هنا : ﴿ لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ أي : طرقها ومسالكها ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ ويحتمل هذا معنيين : **أحدهما** : وإني لأظنه كاذباً في قوله إن للعالم ربًّا غيري ، **والثاني** : في دعواه أن الله أرسله ، **والأول** أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع ، **والثاني** أقرب إلى اللفظ حيث قال : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ ﴾ أي : فأسأله هل أرسله أم لا ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أي : في دعواه ذلك ، وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام[2].

---

(١) زاد المسير (٧/٢٢٢).
(٢) قصص الأنبياء (٣٣٨).

قال القرطبي: ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أي : الشرك والتكذيب ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ على ما لم يسم فاعله . وقرأ ابن أبي إسحاق وعبدالرحمن ابن بكرة ﴿ وَصُدٌّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ والباقون ﴿ وَصَدَّ ﴾ بفتح الصاد والدال أي : صد فرعون الناس عن السبيل ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أي : في خسران وضلال ، ومنه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : ١] وقوله : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : ١٠١] وفي موضع ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : ٦٣] فهدَّ الله صرحه وغرَّقه هو وقومه على ما تقدم [١].

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [غافر : ٣٨-٣٩] .

قال الزمخشري : قال : ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ فأجمل لهم ، ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها ، لأن الإخلاد إليها هو أصل الشر كله ، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة ، وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ، وأنها هي الوطن والمستقر ، وذكر الأعمال سيئها وحسنها ، وعاقبة كل منهما ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف ثم وازن بين الدعوتين : دعوة إلى دين الله الذي ثمرته النجاة ، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار ، وحذر وأنذر ، واجتهد في ذلك واحتشد . لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون ، وجعله حجة عليهم ، وعبرة للمعتبرين [٢] .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٤٠] .

قال الألوسي : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ في الدنيا ﴿ فَلَا يُجْزَى ﴾ في الآخرة ﴿ إِلَّا

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥٧٥٩/٧).
(٢) الكشاف (١٦٨/٤) .

مِثْلَهَا ﴾ عدلاً من الله عز وجل واستدل به على أن الجنايات تُغَرَّم بمثلها أي: بوزانها من غير مضاعفة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافاً مضاعفة فضلاً منه تعالى ورحمة ، وقسم العمال إلى ذكر وأنثى للاهتمام والاحتياط في الشمول ، لاحتمال نقص الإناث ، وجعل الجزاء في جزاء أعمالهم جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة ، مع تفضيل الثواب ، وتفصيله تغليباً للرحمة وترغيباً فيما عند الله عز وجل وجعل العمل عمدة وركناً من القضية الشرطية ، والإيمان حالاً للدلالة على أن الإيمان شرط في اعتبار العمل ، والاعتداد به ، والثواب عليه ، لأن الأحوال قيود وشروط للحكم التي وقعت فيه ، ويتضمن ذلك الإشارة إلى عظيم شرفه ومزيد ثوابه [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ .

قال الشوكاني : كرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة أنه منهم ، وأنه إنما تصدى التذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ أي : أخبروني عنكم كيف هذه الحال : أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة بالإيمان بالله وإجابة رسله ، وتدعونني إلى النار بما تريدونه مني من الشرك . قيل : معنى ﴿ مَا لِي أَدْعُوكُمْ ﴾ : ما لكم أدعوكم كما تقول : ما لي أراك حزيناً أي : ما لك ، ثم فسر الدعوتين فقال : ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ فقوله : تَدْعُونَنِي بدل

(١) روح المعاني (٢٤/٧٠-٧١) .

تدعونني الأولى أو بيان لها ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : ما لا علم لي بكونه شريكاً لله ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ أي : العزيز في انتقامه ممن كفر الغفار لذنب من آمن به ﴿ لا جَرَمَ ﴾ وجرم فعل ماضي بمعنى : حق ، ولا الداخلة عليه لنفي ما ادعوه ، ورد ما زعموه ، وفاعل هذا الفعل هو قوله : ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ ﴾ أي حق ووجب بطلان دعوته ، قال الزجاج : معناه : ليس له استجابة دعوة تنفع ، وقيل : ليس له دعوة توجب له الألوهية في الدنيا ولا في الآخرة ، وقال الكلبي : ليس له شفاعة ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : مرجعنا ومصيرنا إليه بالموت أولاً وبالبعث آخراً ، فيجازي كل أحدٍ بما يستحقه من خيرٍ وشر ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي : المستكثرين من معاصي الله [1] .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

قال الشنقيطي رحمه الله ما ملخصه : التحقيق الذي لا شك فيه أن هذا الكلام من كلام مؤمن آل فرعون الذي ذكر الله عنه وليس لموسى فيه دخل .
وقوله : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ يعني أنهم يوم القيامة يعلمون صحة ما كان يقول لهم ، ويذكرون نصيحته ، فيندمون حيث لا ينفع الندم ، والآيات الدالة على مثل هذا من أن الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به في الدنيا كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٦-٦٧] وقوله تعالى :

(١) فتح القدير (٤/٤٩٤) باختصار .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٨] وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : ٤-٥] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله وتفويض الأمور إليه سبب للحفظ والوقاية من كل سوء ، وقد جاء ذلك في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤] والظاهر أن ما في قوله : ﴿ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ مصدرية أي : فوقاه الله سيئات مكرهم ، أي : أضرار مكرهم وشدائده والمكر : الكيد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ معناه أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن وقاه الله مكرهم ورد العاقبة السيئة عليهم ، فرد سوء مكرهم إليهم ، فكان المؤمن المذكور ناجياً في الدنيا والآخرة ، وكان فرعون وقومه هالكين في الدنيا والآخرة والبرزخ .

فقال في هلاكهم في الدنيا : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ الآية وأمثالها من الآيات وقال في مصيرهم في البرزخ ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ وقال في عذابهم في الآخرة : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من حيق المكر السيئ بالماكر أوضحه تعالى ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] والعرب تقول : حاق به المكروه يحيق به حيقاً وحيوقاً إذا نزل به وأحاط به ، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة [١].

---

(١) أضواء البيان (٧/٨٨-٩٠) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- لاشك أن ما قام به هذا الرجل المؤمن من آل فرعون ، من الإنكار على فرعون عندما قال : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ثم من دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان بالواحد الديان ، والكفر بالطواغيت والأوثان من أفضل الجهاد ، فقد قال النبي ﷺ : « **أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر** » [1] وإنما كان ذلك أفضل الجهاد ؛ لأن الخروج إلى الجهاد تعريض للنفس للتلف فقد تتلف نفسه وقد ينجو ، أما الإنكار على السلطان الجائر فإن التلف يكون محققاً ، إلا أن يشاء الله - عز وجل - وقد تكون المصلحة في الإنكار على السلطان الجائر أعظم نفعاً من المشاركة في ميدان القتال .

قال ابن كثير رحمه الله : المقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هَمَّ فرعون - لعنه الله - بقتل موسى - عليه السلام - وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال على وجه المشورة والرأي ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر** » وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لا أشد جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ؛ لأن فيه عصمة نبي ، ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه ، وصرح لهم بما كان يكتمه ، والأول أظهر والله أعلم [2].

قال القرطبي : قوله تعالى ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ قال القاضي أبوبكر ابن العربي :

---

(١) رواه أبوداود (٤٣٢٢) الملاحم ، والترمذي (٩/ ٢٠) الفتن وقال : هذا حديث حسن غريب ، وابن ماجه (٤٠١١) الفتن ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم٤٩١ عن أبي سعيد الخدري.

(٢) قصص القرآن لابن كثير (٣٣٤) .

ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمناً باعتقاده ، وقد قال مالك : إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه ، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه ، فجعل مدار الإيمان على القلب ، وإنه كذلك لكن ليس على الإطلاق، وقد بيناه في أصول الفقه بما لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً ، وإن لم يتلفظ بلسانه ، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى ، وإنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره ، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير في صحته من التكليف ، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله [1] .

٣- وقف أبو بكر الصديق ﷺ هذا الموقف الذي وقفه مؤمن آل فرعون مع موسى عليه السلام روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير قال : سألت عبدالله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال : رأيت عقبة ابن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فجاء أبوبكر حتى دفعه عنه فقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [2] [غافر : ٢٨] بل ثبت أن أبا بكر وعمر ﷺ أفضل أولياء الله عز وجل بعد النبيين .

٤- استدل أهل السنة والجماعة الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر : ٣٦-٣٧] على فوقية الله عز وجل على خلقه ، وأنه تعالى فوق السماء ، وأن فرعون ما قال ذلك إلا لأن

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥٧٥٢/٧) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٣/٧) مناقب الأنصار .

موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أخبره أن الله فوق السماء ، وأدلة أهل السنة على ذلك أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تنشر وإن خالف في ذلك المخالفون ، ومن أظهر الأدلة في ذلك تصريح الله عز وجل بذلك في كتابه حيث قال تعالى : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٦- ١٧] فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون .

وقال ابن جرير في قوله ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أي: لأظن موسى كاذباً فيما يقول ، ويدعي من أن له في السماء ربًا أرسله إلينا (١) .

٥ - وقال القاسمي في قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] والمراد : عرض أرواحهم عليها دائماً ، واكتفي بالطرفين المحيطين - الغدو والعشي - عن الجميع ، وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ ، وقانا الله تعالى بمنّه .

قال السيوطي : وفي « العجائب » للكرماني : في هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر ، لأن المعطوف غير المعطوف عليه ، يعني: قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أي : هذا العرض ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة يقال لهم ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وهو عذاب جهنم ؛ لأنه جزاء شدة كفرهم (٢) .

*** *** ***

---

(١) جامع البيان (٦٦/٢٤) ط. الحلبي الثانية .
(٢) محاسن التأويل (٢٣٩/١٤) .

١٢ - أصحاب الجنة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ١٧ - ٣٣] .

بين يدي القصة :

هذه القصة التي سجلها الله عز وجل في كتابه ، بعد أن ذَمَّ الوليد بن المغيرة ، وقيل : الأخنس بن شريق ، وقيل : الأسود بن عبد يغوث لقوله : ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [القلم : ١٠-١٦] عاتب الله عز وجل أهل مكة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي أن الله عز وجل كما ابتلى أهل هذه الجنة بالخير والنعم فكفروا النعمة ، ولم يقوموا بواجب الشكر ، ومن الشكر الواجب أن يؤدوا زكاة زروعهم ، وأن يعملوا بقول الله تعالى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] وتمالأوا على حرمان المساكين فعوقبوا بالحرمان والخيبة والخسران ، وندموا بعد فوات الأوان وإن كان هذا العذاب شديداً على الناس عامة فهو أشد على الذين تعلقت قلوبهم بالدنيا وأعراضها وزخارفها ، حيث منعهم شدة حبهم لها وحرصهم عليها من أداء حق الله فيها ؛ فكيف بهم وقد ذهبت دنياهم وضاعت

أسباب سعادتهم ، وماتوا بحسرتهم قال تعالى بعد أن قص قصتهم ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ٣٣] فالذين لا يؤدون شكر النعمة ولا يقومون بحقها معرضون للعذاب العاجل بزوالها والحرمان منها والعذاب الآجل في الآخرة ، كما أن شكر النعمة سبب لدوامها وزيادتها ، ولثواب الآخرة وسعادتها كما قال تعالى : ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] وقال تعالى : ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٥].

فكما ابتلى الله عز وجل أصحاب هذه الجنة ابتلى تعالى أهل مكة ، وابتلى تعالى الناس كلهم بالخير والشر فتنة ، فقال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

شرح الآيات :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم : ١٧-١٨] .

قال ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعمة الجسيمة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي : اختبرناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهي : البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ولا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي : فيما حلفو به ، ولهذا حنثهم الله تعالى في أيمانهم [١].

وقال الشوكاني : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ يعني : كفار مكة ، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله ﷺ عليهم والابتلاء : الاختبار . والمعنى :

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٠٦) .

أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ المعروف خبرهم عندهم ، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حق الله منها فمات ، وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحَقِّ الله فيها .

قال الواحدي : هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيءٍ حظًا للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقال بنوه : المال قليلٌ ، والعيالُ كثيرٌ ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله في كتابه [1] .

قوله تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [القلم ١٩-٢٠] .

قال الرازي : ثم قال تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ طائف من ربك أي : من عذاب ربك ، والطائف لا يكون إلا ليلاً ، أي طرقها طارق من عذاب الله .

واعلم أن الصريم (فعيل) فيحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، وأن يكون بمعنى الفاعل ، وههنا احتمالات : **أحدها** : أنها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة في هلاك الثمر ، وإن حصل الاختلاف في أمور أخر ، فإن الأشجار إذا احترقت فإنها لا تشبه الأشجار التي قطعت ثمارها ، إلا أن هذا الاختلاف وإن حصل من هذا الوجه لكن المشابهة في هلاك الثمر حاصلة .

وثانيها : قال الحسن : أي : صرم عنها الخير ، فليس فيها شيء ، وعلى هذين المعنيين الصريم بمعنى المصروم [2] .

---

(١) فتح القدير (٥/٢٧١) .

(٢) التفسير الكبير باختصار (١٥/٣٠/٧٨).

وقال القاسمي : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي : فطرق جنة هؤلاء القوم طارق من أمر الله لتدميرها .

وقوله : ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي : مستغرقون في سباتهم ، غافلون عما يمكر بهم تأكيد على الأول وتأسيس على الثاني ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي : كالبستان الذي صرم ثمره ، بحيث لم يبق فيه شيء ؛ أو كالليل الأسود لاحتراقها (١) .

قوله تعالى : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ [القلم : ٢١ - ٢٣] .

قال ابن كثير : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ أي : القطع ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أي : تريدون الصرام .

قال مجاهد : كان حرثهم عنباً ﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسْمِعُونَ أحداً كلامهم ، ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال تعالى : ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ، . قال الله تعالى : ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي : قوة وشدة (٢).

وقال الألوسي : ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي : منع ، كما قال أبوعبيد وغيره من قولهم حاردت الإبل إذا قَلَّتْ ألبانها ، وحاردت السنة إذا قل مطرها وحرد . والجار متعلق بقوله تعالى : ﴿ قَادِرِينَ ﴾ قدم للحصر ورعاية الفواصل ، أي : وغدوا قادرين على منع لا غير ، والمعنى أنهم عزموا على منع المساكين ، وطلبوا حرمانهم ونكدهم ، وهم قادرون على نفعهم فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلا على المنع والحرمان ، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان ، أو غدوا على

(١) محاسن التأويل (١٤/٢٥٨) باختصار . (٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٠٦).

محاردة جَنَّتِهم وذهاب خيرها بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها ، أي : غدوا حاصلين على حرمان أنفسهم مكان كونهم قادرين على الانتفاع ، والحصر على الأول حقيقي، وعلى هذا إضافي ، بالنسبة إلى انتفاعهم من جنتهم ، والحرمان عليه خاص بهم وجوز أن يكون (على حرد) متعلقاً بـ(غَدَوْا) والمراد بالحرد حرد الجنة جيء به مشاكلة للحرث ، كأنه لما قالوا اغدوا على حرثكم ، وقد خبثت نيتهم ، عاقبهم الله تعالى بأن حاردت جنتهم ، وحرموا خيرها ، فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد ، وقادرين من عكس الكلام للتهكم، أي : قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين [١] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[القلم : ٢٦-٢٩] .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : لما رأوها محترقة لا شيءَ فيهَا قد صارت كالليل الأسود ، ينظرون إليها كالرماد ، أنكروها وشكوا فيها ، وقال بعضهم لبعض ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : ضللنا الطريق إلى جنتنا قاله قتادة ، وقال : أي ضالون عن الصواب في غدونا على نية منع المساكين ، فلذلك عوقبنا ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : حُرمنا جنتنا بما صنعنا[٢] .

وقال ابن كثير رحمه الله : أي : فلما وصلوا إليها ، وأشرفوا عليها ، وهي الحالة التي قال الله عز وجل لقد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار ، إلى أن صارت سوداء مدلهمة ، لا ينتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ، ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي

(١) باختصار من روح المعاني (٢٩/٣١) .
(٢) باختصار من الجامع لأحكام القرآن (٨/٦٧٢٣).

فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : بل هي هذه ولكن نحن لاحظ لنا ولا نصيب ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أي : أعدلهم وخيرهم ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ قال مجاهد والسدي وابن جريح ﴿ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ أيْ : لَوْلا تَسْتَثْنُونَ . قال السدي : وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً . وقال ابن جرير : هو قول القائل : إن شاء الله ، وقيل : معناه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي : هلا تسبحون الله ، وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم عليكم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع (١) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ٣٠ - ٣٣] .

قال الشوكاني : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴾ أي : يلوم بعضهم بعضاً في منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي : عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء ، وترك الاستثناء .

قال ابن كيسان : أي : طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم بخير منها فقالوا : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ أي : طالبون منه الخير ، راجون لعفوه ، راجعون إليه ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي : مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : أشد وأعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك ، ولكنهم لا يعلمون (٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٠٦).

(٢) فتح القدير باختصار (٥/٢٧٣).

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- **قال الرازي** : واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة أمران : **أحدهما** : أنه تعالى قال : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ والمعنى : لأجل أن أعطاه المال والبنين كفر بالله ، كلا ، بل الله تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء ، فإذا صرفه إلى الكفر دمر الله عليه ، بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية ، دمر الله على جنتهم ، فكيف يكون الحال في حق من عاند الرسول وأصر على الكفر والمعصية .

والثاني : أن أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة ، ويمنعوا الفقراء عنها ، فقلب الله عليهم القضية ، فكذا أهل مكة لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمداً وأصحابه ، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة ، وشربوا الخمور ، فأخلف الله ظنهم فقتلوا وأسروا ، كأهل هذه الجنة [1] .

٢- **وقال القرطبي** : قال بعض العلماء : على من حصد زرعاً أو جَدَّ ثمره أن يواسي منه من حضره ، وذلك معنى قوله : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] وأنه غير الزكاة على ما تقدم في « الأنعام » بيانه.

وقال بعضهم : وعليه ترك ما أخطأه الحصادون ، وكان بعض العباد يتحرون أقواتهم من هذا ، وروي أنه نهى عن الحصاد ليلاً . فقيل : إنه لما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق ، وتأول من قال هذا الآية التي في سورة ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ ﴾ وقيل : إنما نَهَى عن ذلك خشية الحيَّاتِ وهوام الأرض .

قلت (القرطبي) : والأول أصح ، والثاني حسن ، وإنما قلنا الأول أصح لأن العقوبة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين كما ذكر الله تعالى [2] .

---

(١) التفسير الكبير (٨٠/٣٠/١٥) . (٢) الجامع لأحكام القرآن (٦٧١٨/٨).

٣- وقال كذلك : في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : « **إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النار** » قيل : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال : « **إنه كان حريصاً على قتل صاحبه** » (١) .

٤- وقال القاسمي : قال في « الإكليل » قال ابن الضريس : استدل بهذه القصة عبدالوهاب على أن من فَرَّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط، فإن ذلك لا يسقطها ، ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين ، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم ، وفيها : كراهة الجذاذ والحصاد بالليل كما ورد التصريح بالنهي عنه في الحديث .

هذا وحكى الزمخشري عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كفلتني تعباً .

وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها . والله أعلم اهـ (٢) .

والأولى الوقوف مع الشرع والتأدب معه ، وعدم الزيادة عليه أو النقص منه ، فلم يصرح في الآيات أنهم أبدلوا خيراً منها وأن الله عز وجل قد قبل توبتهم ، كما لم يصح بذلك حديث ، وإنما هي أقوال ليس لها خِطَام ولا زمام ، فالله أعلم بحالهم ، نسأل الله حسن الخاتمة .

*** *** ***

---

(١) السابق (٨/٦٧٢٠) والحديث تقدم تخريجه ص (٣٤٧) .
(٢) محاسن التأويل (١٦/٢٦١) .

١٣ - قصة أصحاب الأخدود

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [البروج : ١-١١] .

وورد في صحيح السنة تكملة هذه القصة فروى مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : «**كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر فلما كَبِرَ قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليَّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب ، وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر ، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هَاهُنَا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني**

لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : مَنْ رد عليك بصرك ؟ قال : ربي . قال : ولك رب غيري! قال : ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل . فقال : إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل . فقال : اللهم اكفنيهم بما شئتَ ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعَلَ أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم الله ربِّ الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد

القوس ، ثم قال : باسم الله ربِّ الغلام ثم رماه فوقع السهم في صُدْغِهِ فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام ، فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حَذَرك قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت ، وأضرم النيران . وقال : مَن لم يرجع عن دينه فأَحْمُوهُ فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أُمَّه اصبري فإنك على الحق » [1] .

بين يدي القصة :

هذه القصة البديعة التي سجل الله عز وجل خاتمتها في كتابه ، وبيَّنَ النبي ﷺ بدايتها وسياقها يظهر فيها بجلاء قوة الإيمان ، وكيف أن العبد إذا وجد طعم الإيمان وذاق حلاوته ، فإن ذلك يشغله عما يتعرض له الجسد من إيلام وعذاب ، فالقلب يأسر الإيمان لموافقته للفطرة السليمة فيتحمل المؤمنون أشد ألوان الأذى ويكون أيسر على المؤمن أن تخرج روحه من جسده ، ولا يخرج الإيمان من قلبه ، ولا شك أن هذه السورة سورة البروج مكية ، فهذه القصة كانت تسلية للصحابة الكرام الذين كانوا يعانون ألوان العذاب بمكة ، ويظهر فيها لطف الله عز وجل بالمؤمنين ، وتثبيته لهم ، فإن مَنْ قصد الهداية وسلك سبيلها أمده الله عز وجل بأسباب التثبيت ، وزاده من الهداية كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم : ٧٦] وقال : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] كما أن من قصد الضلال والمحادَّة لله عز وجل ولرسله الكرام ، فإن الله عز وجل يحرمه هدايته وتوفيقه ، ويكله إلى نفسه وشيطانه فيعده ويمنيه ويضله ويغويه ، ولا يرضى منه دون الكفر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فأهل

(١) رواه مسلم (١٨/١٣٠-١٣٣) الزهد ، وابن حبان (٣/١٥٤-١٥٧) رقم ٨٧٣ من الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان .

الإيمان يكافؤون على إيمانهم بمزيد من أسباب الإيمان ، وأهل الطغيان يعاقبون على طغيانهم بمزيد من الخذلان ، فلا يزدادون إلا غيًا وضلالاً ، فانظر كيف تدرج الحال بهذا الملك الكافر حتى حفر لأهل الإيمان الأخاديد، وملأها ناراً وساق إليها الذين رضوا بالله ربًا وبالإسلام ديناً ، والناظر بالأسباب المادية والمقاييس الدنيوية يهوله الأمر ، ولكن المؤمن الذي يثق بوعد الله عز وجل ويؤمن بأن الدنيا عرض زائل ، وأن الآخرة هي الحيوان ، يعلم بأنها لحظات ثم تخرج هذه الروح إلى فاطرها، حيث تخاطب ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] إنها لحظات والشهيد لا يذوق من مس القتل إلا كما يذوق من مس القرصة ، ثم ينقلون إلى جنة الله عز وجل فتصيرُ هذه النار التي أُلقُوا فيها عليهم برداً وسلاماً ، بل تصير أخاديد النار رياضاً من رياض الجنة، وتسرح أرواحهم في الجنة حيث شاءت . أما الكفرة الفجرة فنارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦] خالدين في هذا العذاب الأليم ، والشقاء المقيم خلوداً أبديًا لأن نفوسهم لا تصلح إلا لذلك ، ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

وفي القصة كذلك سنة من سنن الله عز وجل وهي سنة الابتلاء كما قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢-٣] .

وفيه من آداب الداعية التنزه عن أعراض الدنيا والرضا بالله عز وجل وثوابه ، وفيه حرص الداعية على إيمان قومه ولو كان بسبب هذا الإيمان ذهاب نفسه وخروج روحه ، وإثبات كرامة الأولياء ، وكيف أنها من أسباب ثبات المؤمنين ، وزيادة إيمانهم وسوف نسوق الفوائد والآثار بعد شرح الآيات الكريمات والله

ولي المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ [البروج : ٤] .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أي : لعن .

قال ابن عباس : كل شيء في القرآن ﴿ قُتِلَ ﴾ فهو لعن. وهذا جواب القسم – في قول الفرَّاء – واللام فيه مضمرة كقوله : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس : ١] ثم قال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩] أي : لقد أفلح. وقيل : فيه تقديم وتأخير أي : قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج . والأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد ومنه الخد لمجاري الدموع ، والمِخدة لأن الخد يوضع عليها [١] .

وقال الزمخشري : فإن قلت : أين جواب القسم ؟ قلت : محذوف يدل عليه قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون يعني : كفار قريش ، كما لعن أصحاب الأخدود ، وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى ، وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا بهم ، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ملعونين ، أحقاء بأن يقال فيهم : قتلت قريش ، كما قيل : قتل أصحاب الأخدود. وقتل دعاء عليهم كقوله ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : ١٧] [٢].

قوله تعالى : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ [البروج : ٥-٧] .

---

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن (٨ / ٧٠٧٧ – ٧٠٧٨) .

(٢) الكشاف (٤ / ٧٢٩ ، ٧٣٠) .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ ﴾ هذا بدل من الأخدود ، كأنه قال : قتل أصحاب النار و ﴿ الوَقُود ﴾ مفسر في [البقرة : ٢٤] وقرأ أبو رزين العقيلي وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن ومجاهد وأبو العالية وأبو يعمر وابن أبي عبلة ﴿ الوُقُود ﴾ بضم الواو ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي : عند النار ، وكان الملك وأصحابه جلوساً على الكراسي عند الأخدود يعرضون المؤمنين على الكفر ، فمن أبى ألقوه ﴿ وهَمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أي : حضور، فأخبر الله عز وجل في هذه الآيات بقصة قوم بلغ من إيمانهم ويقينهم أن صبروا على التحريق بالنار ، ولم يرجعوا عن دينهم (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلا أن يُؤْمِنُوا بالله العَزِيزِ الحَمِيدِ ، الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج : ٨-٩] .

قال الشوكاني : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أي : ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم ﴿ إلا أن يُؤْمِنُوا بِالله العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ أي : إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال . قال الزجاج : ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم ، وهذا كقوله : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إلا أَنْ آمَنَّا بِالله ﴾ ، وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله :

لا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنَّ النَّزِيلَ بِهِمْ ... يَسْلُو عَنْ الأَهْلِ وَالأَوْطَانِ وَالحَشَمِ

وقول الآخر :

ولا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ شُكْلَةِ عَيْنِهَا ... كَذَاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ شُكْلاً عُيُونُهَا

قرأ الجمهور : ﴿ نَقَمُوا ﴾ بفتح القاف وقرأ أبوحيوة بكسرها والفصيح الفتح ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم والفخامة فقال : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ومن كان هذا شأنه، فهو حقيق بأن يُؤْمَنَ به ويوحد ﴿ وَالله عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ ﴾ من فعلهم بالمؤمنين ، لا يخفى عليه منه خافية ، وفي هذا

---

(١) زاد المسير (٩ / ٧٧) .

وعيد شديد لأصحاب الأخدود ووعيد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين ، ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق[١] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠] .

قال الرازي ما ملخصه : اعلم أنه سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الأخدود، أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى : يحتمل أن يكون المراد منه أصحاب الأخدود فقط ، ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك ، وهذا أولى لأن اللفظ والحكم عام ، فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل .

المسألة الثانية : أصل الفتنة الابتلاء والامتحان ، وذلك لأن أولئك الكفار امتحنوا أولئك المؤمنين وعرضوهم على النار وأحرقوهم . وقال بعض المفسرين : الفتنة هي : الإحراق بالنار .

المسألة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ يدل على أنهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيد ، وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة، ويدل على أن توبة القاتل عمداً مقبولة خلاف ما يروى عن ابن عباس .

المسألة الرابعة : في قوله : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ قولان :

الأول : أن كلا العذابين يحصلان في الآخرة ، إلا أن عذاب جهنم هو العذاب الحاصل بسبب كفرهم ، وعذاب الحريق هو العذاب الزائد على عذاب الكفر بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين ، فيحتمل أن يكون العذاب الأول عذاب

(١) فتح القدير (٥ / ٤١٢ – ٤١٣) .

برد، والثاني عذاب إحراق ، وأن يكون الأول عذاب إحراق والزائد على الإحراق أيضاً إحراق ، إلا أن العذاب الأول كأنه خرج عن أن يسمى إحراقاً بالنسبة إلى الثاني ، لأن الثاني قد اجتمع فيه نوعا الإحراق ، فتكامل جداً فكان الأول ضعيفاً ، فلا جرم لم يسم إحراقاً .

القول الثاني : أن قوله ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ إشارة إلى عذاب الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن أولئك الكفار ارتفعت عليهم نار الأخدود فاحترقوا بها (١) .

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾ [البروج : ١١] .

قال الألوسي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيرهم ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ إن أريد بالجنات الأشجار ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها ، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر ، فإن أشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة ، وفصل الجملة قيل : لأنها كالتأكيد لما أشعرت به الآية قَبْلُ من اختصاص العذاب بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى كون ما ذكر لهم ، وحيازتهم إياه ، وقيل : للجنات الموصوفة ، والتذكير لتأويلها بما ذكر ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو الدرجة ، وبعد المنزلة في الفضل والشرف ، ومحله الرفع على الابتداء خبره ﴿ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ الذي يصغر عنده الفوز بالدنيا وما فيها من الرغائب ، والفوز : النجاة من الشر والظفر بالخير (٢) .

---

(١) باختصار من التفسير الكبير (١١١/٣١/١٦) .
(٢) روح المعاني (٩١/٣٠) .

الفــوائــد والآثــار الإيمانيــة :

١- قال عطية محمد سالم في العبر والأحكام في هذه القصة ما ملخصه :

الأول : أن السحر بالتعلم . **الثاني** : إمكان اجتماع الخير مع الشر إذا كان الشخص جاهلاً بحال الشر . **الثالث** : إجراء خوارق العادات على أيدي دعاة الخير . **الرابع** : اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه ، كاعتراف الراهب للغلام . **الخامس** : ابتلاء الدعاة إلى الله ، ووجوب الصبر على ذلك ، وتفاوت درجات الناس في ذلك . **السادس** : إسناد الفعل إلى الله « **إنما يشفي الله** » . **السابع** : رفض الداعي إلى الله الأجر على عمله ، وهدايته ﴿ **قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** ﴾ . **الثامن** : بيان ركن أصيل في قضية التوسل ، وهو أن مبناه على الإيمان بالله ، ثم الدعاء وسؤال الله تعالى . **التاسع** : اللجوء إلى العنف والبطش عند العجز عن الإقناع والإفهام ، أسلوب الجهلة والجبابرة . **العاشر** : التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة [1] .

٢- قال القرطبي ما ملخصه : قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه من وُجِد قبلهم من الشدائد يؤنسهم بذلك وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به ، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته ، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه ، وعظم صبره ، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار ، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار ، ولم يرجعوا عن دينهم ، قال ابن العربي : وهذا منسوخ عندنا حسب ما تقدم بيانه في سورة النمل .

قلت (القرطبي) : ليس بمنسوخ عندنا وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصَلُب دينه أولى قال الله تعالى مخبراً عن لقمان : ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ**

(١) تتمة أضواء البيان (٩/١٤١-١٤٣) باختصار .

بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧] وروى أبوسعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : «**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**» [١] خرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب قال علماؤنا : ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد ، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما ، وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق وغير ذلك [٢] .

٣- قال سيد قطب رحمه الله : وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار التي تملأ القلوب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله ، وما استحقه من نقمته وغضبه ، فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه في حساب الله ما وراءه .

كذلك تنتهي رواية الحادث ، وقد ملأت القلب بالروعة ، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم ، وجاذبية الأرض ، فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم ، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة وكم كانت البشرية كلها تخسر كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير معنى : زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ، إنه معنى كريم جداً ، ومعنى كبير جداً هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض ، ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكبير الذي تزكيه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب [٣] .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٨٦) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن باختصار (٧٠٨٤/٨) . وانظر في بحث « وقفات تربوية مع السيرة النبوية » في سمات الفترة المكية أمثلة لما تحمله الصحابة - ﷺ - بمكة من التعذيب والتكذيب والإيذاء والاستهزاء .

(٣) في ظلال القرآن (٣٨٧٤/٦).

١٤ - قصة الفيل

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [سورة الفيل] .

هذه قصة الفيل كما وردت في كتاب الله عز وجل بآيات في غاية الإيجاز والإعجاز ، وفي السنة إشارات إلى هذه القصة موجزة ومطولة ، فمن ذلك أن ناقة النبي ﷺ بركت وهو قاصد مكة للعمرة عام الحديبية فقالوا : خَلأت القصواء . فقال النبي ﷺ : **« مَا خَلأتْ القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل »**[1] . ومن ذلك أن النبي ﷺ لما فتح الله عليه مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : **« إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين »**[2]. ومن ذلك ما رواه الحاكم في مستدركه وعنه البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبدالمطلب فقال لملكهم : ما جاء بك إلينا ! ما عناك ! ألا بعثت فنأتيك بكل شيءٍ أردت ! فقال : أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمِنَ فجئت أخيف أهله . فقال : إنا نأتيك بكل شيءٍ تريد فارجع ، فأبى إلا أن يدخله وانطلق يسير نحوه ، وتخلف عبد المطلب فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ثم قال :

اللهـــم إن لكـــل إلـــه   حـــلالاً فـامنـع حـــلالك

---

(١) رواه البخاري (٥ / ٣٨٨) الشروط .
وقوله : « خلأت » أي : تركت السير. والخلاء للنوق كالإلحاح للجمال والحران للدواب يقال : خلأت الناقة وألح الجمل وحرن الفرس (النهاية لابن الأثير: ٢ / ٥٨).
(٢) رواه البخاري (٥/١٠٤–١٠٥) اللقطة ، ومسلم (٩ / ١٢٨) الحج .

لا يغلبن محالهم أبداً محالك
اللهم فإن فعلت فأمر ما بدا لكَ

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طيراً أبابيل ، التي قال الله عز وجل : ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال : فجعل الفيل يعجُّ عجّاً ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [1] .

بين يدي القصة :

هذه القصة فيها خوارق للعادات ، وكان أهل مكة يعبدون الأوثان قبل بعثة المصطفى ﷺ وكان أصحاب الفيل نصارى أهل كتاب ، ولاشك أن أهل الكتاب أحسن حالاً من عبدة الأوثان ، فلم تكن هذه الحادثة كرامة لأهل مكة ، ولا لعبد المطلب وهو على دين قومه ، وإنما كانت معجزة من معجزات هذا النبي الخاتم ، الذي تتهيأ مكة لاستقباله ، وتستعد البشرية لرؤية أنواره ، وقد كان حملاً كريماً في هذا الوقت ، حيث ولد ﷺ في هذا العام عام الفيل ، وكان ذلك كذلك كرامة لهذا البيت ، الذي سوف يصير قبلة لخير أمة أخرجت للناس ، يترددون إليه ولا يرون أنهم قضوا منه وطراً ، ففي هذه البقعة المباركة وبجوار هذا البيت العتيق ينبثق نور الإسلام وتبدأ بعد قليل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام فليس بعجيب أن يرغم الله آناف من قصدوه بِشَرٍّ ، وأن يمزقهم الله عز وجل كل ممزق ، وأن يجعلهم الله عز وجل كورق شجرٍ أكلته الدواب

(١) رواه الحاكم (٥٣٥/٢) التفسير وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . والبيهقي في الدلائل (١٢١/١-١٢٢) .
قال عادل عبدالغفور في دراسة مرويات العهد المكي : وفيه نظر فإن قابوس بن أبي ظبيان قال عنه الحافظ فيه لين وبقية رجال الإسناد ثقات إلا أن جرير بن عبد الحميد قال عنه الحافظ بعد أن وثقه : قيل : كان في آخر عمره يهم من حفظه ..

فألقته روثاً ، مبالغة في إهانتهم وإحباط كيدهم ، وتحقير شأنهم ، لأنهم قصدوا إهانة بيت الله ، وراموا العز بذلك لأنفسهم فأهانهم الله عز وجل وأذلهم وجعلهم عبرة للمعتبرين إلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

ولنشرع في شرح الآيات الكريمات :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل : ١] .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي : ألم تخبر . وقيل : ألم تعلم وقال ابن عباس : ألم تسمع . واللفظ استفهام ، والمعنى : تقرير ، والخطاب للنبي ﷺ ، ولكنه عام أي : ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل ، أي قد رأيتم ذلك وعرفتم موضع منتي عليكم فما لكم لا تؤمنون [١] .

وقال الزمخشري : إنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة ، وسمعت الأخبار به متواترة ، فقامت مقام المشاهدة [٢] .

وقال ابن كثير : هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم ، وأضل عملهم ، وردهم بشر خيبة ، وكانوا قوماً نصارى ، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في هذا العام ولد على أشهر الأقوال ، ولسان حال القدرة يقول لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق ، الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٧٢٧٧) .
(٢) الكشاف (٤/٧٩٩).

وسلامه عليه خاتم الأنبياء[١].

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ [الفيل : ٢] .

قال الرازي : واعلم أنه تعالى ذكر ما فعل بهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ وفيه مسائل : **المسألة الأولى** : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية ، إن قيل فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ قلنا : نعم . لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر ، لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته .

المسألة الثانية : قالت المعتزلة : إضافة الكيد إليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالقبيح ، إذ لو رضي لأضافه إلى ذاته كقوله : « الصَّوْمُ لي » [٢] والجواب : أنه ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، فلم لا يكفي في حسن هذه الإضافة وقوعه مطابقاً لإرادتهم واختيارهم ؟

المسألة الثالثة : ﴿ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ أي : في تضييع وإبطال ، يقال ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾[٣] [غافر : ٥٠] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل : ٣] .

قال ابن الجوزي : وفي الأبابيل خمسة أقوال :

أحدها : أنها المتفرقة من هاهنا وهاهنا ، قاله ابن مسعود والأخفش .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤٨ – ٥٤٩) .

(٢) رواه البخاري (٤/١٠٣) الصوم ، ومسلم (٨–٣٢) الصيام .

(٣) باختصار من التفسير الكبير (١٦ / ٣٢ / ٩٤) .

والثاني : أنها المتابعة التي يتبع بعضها بعضاً ، قاله ابن عباس ومجاهد ومقاتل .

والثالث : الكثيرة ، قاله الحسن وطاووس .

والرابع : أنها الجمع بعد الجمع ، قاله عطاء وأبوصالح ، وكذلك قال أبوعبيدة وابن قتيبة والزجاج : جماعات في تفرقة .

والخامس : المختلفة الألوان قاله زيد بن أسلم ، قال الفراء وأبوعبيدة: الأبابيل لا واحد لها [1].

قوله تعالى : ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل : ٤] .

قال الشيخ عطية محمد سالم : اختلف في معنى السجيل هنا :

فقال قوم : هو السجين أبدلت النون لاماً ، والسجين : النار .

وقيل : إن السجيل من السجل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيناً لديوان أعمالهم واشتقا من الإسجال وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وهي : حجارة مرسلة لقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾.

وقوله : إن سجيناً عَلَمٌ لديوان أعمالهم يعني: قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ [المطففين : ٧].

وقيل : معنى سجيل : ستك وطين يعني : بعض حجر وبعض طين ، وقيل : معناه الشديد ، وقيل : السجيل اسم لسماء الدنيا . وتقدم للشيخ – أي : الشنقيطي رحمة الله تعالى علينا وعليه – ترجيح أنها من طين شديد القوة ، وهذا ما يشهد له القرآن لما في سورة الذاريات : ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ

---

(١) زاد المسير (٩/٢٣٦) .

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات : ٣٢-٣٤]
فَنَصَّ على أنها من طين . والحجارة من الطين هي الآجر ، وهو : الطين المطبوخ حتى يتحجر . وجاء النص الآخر أنها من سجيل منضود في قوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود :٨٢] وقيل فيها : كالحمصة والعدسة [١] .

قوله تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل :٥]

قال ابن كثير : قال سعيد بن جبير : يعني : التبن الذي تسميه العامة هبور ، ورواية عن سعيد : ورق الحنطة ، وعنه أيضاً العصف : التبن ، والمأكول القصيل يُحَذُّ للدواب ، وكذلك قال الحسن البصري . وعن ابن عباس العصف : القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة ، وقال ابن زيد : العصف : ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار دريناً ، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح [٢] .

وقال الرازي : أما قوله : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى : ذكروا في تفسير العصف وجوهاً ذكرناها في قوله : ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ [الرحمن : ١٢] وذكروا ههنا وجوهاً : **أحدها :** أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي.

وثانيها : قال أبومسلم : العصف : التبن لقوله : ﴿ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾

(١) تتمة أضواء البيان لعطية محمد سالم (٩ / ٥٢١ – ٥٢٢) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٥٥٢) .

[الرحمن : ١٢] لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب ، وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه .

وثالثها : قال الفراء : هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل .

ورابعها : هو الحب الذي أكل لبه وبقي قشره .

المسألة الثانية : ذكروا في تفسير المأكول وجوهاً :

أحدها : أنه الذي أكل ، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان :

أحدهما : أن يكون المعنى : كزرع وتبن قد أكلته الدواب ثم ألقته روثاً، ثم يجف وتتفرق أجزاؤه ، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن كقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[المائدة: ٧٥] وهو قول مقاتل وعطاء عن ابن عباس .

والاحتمال الثاني : على هذا الوجه أن يكون التشبيه واقعاً بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود .

الوجه الثاني في تفسير قوله : ﴿ مَأْكُولٍ ﴾ هو أنه جعلهم كزرع قد أكل حبه وبقي تبنه ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : كعصف مأكول الحب ، كما يقال فلان حسن أي : حسن الوجه ، فأجرى مأكول على العصف من أجل أنه أكل حبه ؛ لأن هذا المعنى معلوم ، وهذا قول الحسن.

الوجه الثالث في التفسير: أن يكون معنى ﴿ مَأْكُولٍ ﴾ أنه ما يؤكل يعني تأكله الدواب ، يقال: كل شيء يصلح للأكل هو مأكول ، والمعنى : جعلهم كتبن تأكله الدواب ، وهو قول عكرمة والضحاك [1] .

---

(١) التفسير الكبير (٩٦/٣٢/١٦) .

الفوائد والآثار الإيمانية :

١- قال الماوردي : آيات الملك باهرة ، وشواهد النبوة ظاهرة ، تشهد مباديها بالعواقب ، فلا يلتبس فيها كذبٌ بصدق ، ولا منتحل بمحق ، وبحسب قوتها وانتشارها ، يكون بشائرها وإنذارها .

ولما دنا مولد رسول الله ﷺ ، تعاطرت آيات نبوته ، وظهرت آيات بركته ، فكان من أعظمها شأناً وأشهرها عياناً وبياناً أصحاب الفيل ، أنفذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكة لقتل رجالها، وسبى ذراريها وهدم الكعبة إلى أن قال :

وآية الرسول ﷺ في قصة الفيل أنه كان في زمانه حملاً في بطن أمه بمكة ، ولد بعد خمسين يوماً من الفيل ، وبعد موت أبيه في يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول فكانت آيته في ذلك من وجهين :

أحدهما : أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا ، فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله ﷺ أن يجرى عليه السبى حملاً ووليداً .

والثاني : أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب ، لأنهم كانوا بين عابد صنم ، أو متدين وثن ، أو قائل بالزندقة ، أو مانع من الرجعة ، ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيساً للنبوة وتعظيماً للكعبة ، وأن يجعلها قبلة للصلاة ، ومنسكاً للحج .

فإن قيل : فكيف منع الكعبة قبل مصيرها قبلةً ومنسكاً ، ولم يمنع الحَجَّاجَ من هدمها وقد صارت قبلة ومنسكاً ، حتى أحرقها ، ونصب المنجنيق عليها ، فقال فيها على ما حكى عنه :

كَيْـفَ تَـرَاهُ سَاطِعاً غُبَارُهُ وَاللهُ فِيْمَا يَزْعُمُونَ جارُهُ

قيـل : فعل الحـجاج كـان بعد اسـتقـرار الدين ، فاستغنى عن آيات المنع منهـا آية لتأسيس النبوة ومجيء الرسالة ، فلذلك اختلف حكمها في الحالتين والله تعالى أعلم.

ولما انتـشـر فـي الـعرب مـا صنــع الله تعـالى بجـيش الفـيل ، تهـيبـوا الحـرم وأعظموه ، وزادت حرمته في النفوس ، ودانت لقريش بالطاعة وقالوا : أهل الله قاتل عنهم ، وكـفاهم كيـد عدوهم ، فزادهم تشريفـاً وتعظيماً ، وقـامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية .

والوفادة : مالٌ تخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعاماً للناس أيام منى ، فصاروا أئمة ديانين وقادة متبوعين ، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين[1] .

٢- وقال شيـخ الإسـلام رحمـه الله : وقد تواترت قصة أصـحاب الفيل ، وأن أصحاب الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم ، معهم فيل ؛ ليهينوا الكعبة، لما أهان بعض العـرب كنيسـتهم التي بـاليمن ، فـقصـدوا إهانة الكعبـة ، وتعظيم كنائسهم ، فأرسل الله عليهم طيراً أهلكهم عـامتهم ، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ، ودين النصارى خير منهم ، فعـلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيـران البيت حـينئذٍ ، بل كـانت لأجل البيت ، أو لأجل النبي ﷺ الذي ولد في ذلك العام عند البيت ، أو لمجموعهما ، وأي ذلك كان ؛ فهو من دلائل نبوته[2] .

(١) باختصار من أعلام النبوة للماوردي (١٨٥-١٨٩). ط . مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) أورد الشيخ عطيـة سالم في تتـمة الأضواء أجـوبة أخرى : **منها** : أن الجيش ظالم باغ والبـغي مـرتعه وخـيم ولو كـان المظلوم أقل من الظالم : ويشـهـد لذلك نصـرة المظلوم واستـجابة دعوته ولو كان كـافراً . **ومنها** : أن الوثنيـة اعتـداء على حق الله في العبـادة وغزو هذا الجيش اعتداء على حقوق العباد . تتمة الأضواء (٩ - ٥٢٨) .

فإنه إذا قيل : إنما كان آية للبيت وحفظاً له وذباً عنه ؛ لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل ، فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت ويصلي فيه إلا أمة محمد ﷺ هو الذي فرض حجه والصلاة إليه[1] .

٣- قال الشيخ عطية محمد سالم في تتمة الأضواء ما ملخصه :

قد أوردنا نصوص معنى سجيل ، وترجيح الشيخ – رحمة الله تعالى علينا وعليه – أنها حجارة من طين شديد القوة ، تنبيهاً على ما قيل من استبعاد ذلك ، وردًا على من صرف معناها إلى غير الحجارة المحسوسة .

أما مَنْ استبعدها فقد حكاه الفخر الرازي بقوله : واعلم أن من الناس من أنكر ذلك ، وقالوا : لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً من الثقل ، وأن يكون في وزن التبنة ، وذلك يرفع الأمان من المشاهدات ثم قال : واعلم أن ذلك جائز في مذهبنا ، إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع ، وهذا القول يحكيه الفخر الرازي المتوفي سنة ٦٠٦ ستمائة وست ، فنرى استبعادهم إياها مبني على تحكيم العقل ، وهذا باطل لأن خوارق العادات دائماً فوق قانون العقل ، بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده ، وإذا حُدِّثَ العقلُ بما لم يشاهده أو يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو في واقعنا اليوم ، ولو حدثت به العقول سابقاً من نقل الحديث والصورة على الأثير ، وتوجيه الطائرات وأمثالها ، لما قوي على تصورها ، لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته.

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتي يوم تكون فيه كالعهن المنفوش أخف من

---

(١) الجواب الصحيح (١٢٢/٤) .

التبنة التي مثلوا بها ، بل ستكون أقل من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ : ٢٠] فظهر بطلان هذا القول الذي استبعدها لعدم إدراك العقل لها .

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر ، فهو قريب من الأول من حيث المبدأ ، إلا أنه أثبتَ الأصلَ ، وفسره بما يتناسب والعقل . وهو محكي عن الإمام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، إذ فسر الحجارة من سجيل بأنه وباء الجدري ، وبالتالي فالطير الأبابيل هي: البعوض وما أشبهه .

وقد تقدم أن الحجارة التي من سجيل جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم ، بل ألقيت على قوم لوط بعد أن جعل عاليها سافلها ، فما موقع الجدري منهم بعد إهلاكهم بإفكها المذكور .

ثم جاء أيضاً أنها من طين ، فأين الطين من الجراثيم الجدرية .

ومن الناحية العلمية : من أين جيء بميكروب الجدري ؟ وأين كان قبل أن تأتي به الطير الأبابيل ؟ ومتى كان ميكروب الجدري أو غيره يميز بين قرشي وحبشي؟ ومتى كان أي ميكروب يفتك بقوم وبسرعة يجعلهم ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ مع أن ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ تشعر بالسرعة في إهلاكهم ، والعصف اليابس الذي تعصف به الريح لخفته ؟

ثم من ناحية أخرى : إذا رددنا خوارق العادات لعدم تصور العقل لها ، فكيف نثبت مثل حنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ ونحو ذلك وتسبيح الحصى في كفه صلوات الله وسلامه عليه ؟

الواقع أننا في كل زمان ومع كل قضية يجب أن نلتزم جانب الاعتدال ، لا

هو جري وراء كل خبر ولو كان إسرائيليًا ، ولا هو رد لكل نص ولو كان صريحاً قرآنيًا ، بل كما قال السيد قطب في ذلك : يجب أن نستمد فكرتنا من نصوص القرآن ، وأن ما يقرره نعتقده ونقول به [1] .

٤- وقال القاسمي: قال القاشاني : قصة أصحاب الفيل مشهورة وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ وهي إحدى آيات قدرة الله ، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه ، وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان ؛ لكون نفوسهم ساذجة وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله فيها ليس بمستنكر ، ومن اطلع على عالم القدرة وكشف له حجاب الحكمة عرف لمية أمثل هذه.

قال : وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد ، وإفساد زروعهم ورجوعها في البرية إلى شط جيحون ، وأخذ كل واحدٍ منها خشبة من الأيكة ، التي على شط نهرها وركوبها عليها وعبروا به النهر [2] .

*** *** ***

انتهى بحمد الله تعالى ما تيسر لنا جمعه من هذا الكتاب المبارك ، وكانت المراجعة النهائية في غرة المحرم من الثالثة عشرة بعد القرن الرابع عشر من بعثة النبي ﷺ . ونسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن ، وأن ينفع به من انتهى إليه ، وأن يرزقنا بره وذخره يوم الورود عليه ، وصلى اللهم وسلم وبارك على صاحب اللواء المنشود والحوض المورود وعلى آله وصحبه .

*** *** ***

(١) باختصار من تتمة أضواء البيان (٩/٥٢٢-٥٢٨) لعطية محمد سالم .
(٢) محاسن التأويل (١٧/٢٦٢) .

** فهــرس المراجــع **

١- أضواء البيان .لمحمد الأمين الشنقيطي - سلسلة السلفيون يتحدثون.

٢- أعلام النبوة . للماوردي - ط . مكتبة الكليات الأزهرية .

٣- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير . لأبي بكر الجزائري .

٤- إرواء الغليل . لمحمد ناصر الدين الألباني - ط. المكتب الإسلامي .

٥- الإحسان في تقريب أحاديث ابن حبان ، للأمير علاء الدين الفارسي ، بتحقيق شعيب الأرناؤوط - ط . مؤسسة الرسالة .

٦- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد. للألباني - ط . جمعية إحياء التراث

٧- تخريج أحاديث مشكلة الفقر . للألباني - ط . المكتب الإسلامي .

٨- تفسير القرآن الحكيم . لمحمد رشيد رضا - ط . دار المعرفة بيروت .

٩- تفسير القرآن العظيم .للحافظ ابن كثير - ط . دار المعرفة .

١٠- تلخيص الحبير. للحافظ ابن حجر - ط. شركة الطباعة الفنية المتحدة.

١١- تيسير العلي الكبير .لمحمد نسيب الرفاعي - ط . دار المعارف .

١٢- تيسير الكريم المنان في خلاصة تفسير القرآن . لعبدالرحمن بن ناصر السعدي .

١٣- التفسير الكبير . لفخر الدين الرازي - دار الكتب العلمية .

١٤- جامع الأصول. لابن الأثير بتحقيق عبدالقادر الأرناؤوط - ط . دار الفكر.

١٥- جامع العلوم والحكم .لابن رجب الحنبلي - ط . الحلبي .

١٦- جامع البيان. لابن جرير الطبري - ط . دار المعرفة .

١٧- الجامع لأحكام. القرآن للقرطبي - ط . الشعب .

١٨- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .لشيخ الإسلام ابن تيمية .

١٩- حلية الأولياء .لأبي نعيم - مطبعة السعادة .

٢٠- دراسة مرويات العهد المكي . ماجستير لعادل عبدالغفور - ط . الآلة الكاتبة .

٢١- دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني.لأحمد جمال العمري ط. الخانجي .

٢٢- روح المعاني . للألوسي - ط . دار التراث .

٢٣- زاد المسير . لأبي الفرج بن الجوزي - ط . المكتب الإسلامي .

٢٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة . للألباني - ط . المكتب الإسلامي.

٢٥- سنن الدارمي . للإمام عثمان بن سعيد الدارمي . ط . دار الكتب العلمية .

٢٦- سنن ابن ماجة بترقيم محمد فؤاد عبدالباقي - ط . دار الكتب العلمية .

٢٧- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي - ط . دار الكتب العلمية .

٢٨- السنن الكبرى . للبيهقي - ط . دار المعرفة .

٢٩- صحيح أبي داود . للألباني - ط . مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٣٠- صحيح ابن ماجه . للألباني - ط . مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٣١- صحيح الترمذي. للألباني - ط . مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٣٢- صحيح النسائي . للألباني - ط . مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٣٣- صحيح الجامع الصغير وزيادته . للألباني - ط . المكتب الإسلامي .

٣٤- صحيح الكلم الطيب . للألباني - ط . جمعية إحياء التراث الإسلامي .

٣٥- صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية ومكتبتها .

٣٦- عارضة الأحوذي بشرح جامع الترمذي . لابن العربي - ط . دار الوحي .

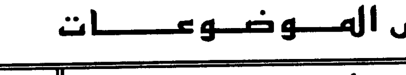
٣٧- عون المعبود شرح سنن أبي داود . لشمس الحق أبادي - ط . م. السلفية بالمدينة .

٣٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ط . المكتبة السلفية بمصر - .

٣٩- فتح القدير . للشوكاني - ط . دار المعرفة .
٤٠- في ظلال القرآن . لسيد قطب - ط . دار العلم بجدة .
٤١- قصص الأنبياء . للحافظ ابن كثير - ط . دار عمر بن الخطاب .
٤٢- الكشاف . للزمخشري - ط . الريان .
٤٣- متن العقيدة الطحاوية .لأبي جعفر الطحاوي - ط .الرئاسة العامة للبحوث.
٤٤- محاسن التأويل . للقاسمي - ط . دار الفكر .
٤٥- مجمع الزوائد . لنور الدين الهيثمي - ط . دار الكتاب العربي .
٤٦- مستدرك الحاكم ، ومعه تلخيص الذهبي - دار المعرفة .
٤٧- مسند الشهاب للقضاعي بتحقيق حمدي عبدالمجيد - ط.مؤسسة الرسالة.
٤٨- موارد الظمآن في زوائد صحيح ابن حبان - ط . دار الكتب العلمية .
٤٩- موسوعة أطراف الحديث النبوي لمحمد السعيد زغلول - ط . عالم التراث.
٥٠- موطأ الإمام مالك بترقيم محمد فؤاد عبدالباقي - ط . الحلبي .
٥١- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لجماعة من المستشرقين ، ط. دار الدعوة.
٥٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
٥٣- المعجم الكبير .للطبراني ، بتحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي .



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات

فهـــرس المــوضــوعــــات



فهرس الموضوعات

فهـرس المـوضـوعـات